
باتريك زوسكند
مكتبة بغداد
العطر
قصة قاتل
منشورات الجمل
رواية

باتريك زوسكند

العطر

قصة قاتل

ترجمها عن الألمانية:

كاميران حوج

منشورات الجمل

ـ ولد باتريك زوسكند عام ١٩٤٩ في أمباخ ـ ألمانيا. مارس الصحافة والتحرير وعمل في الراديو والتلفزيون. صدر له عن منشورات الجمل: **الحمامة** (٢٠٠٧)؛ **الكونتروباص** (٢٠٠٧).

ـ ولد كاميران حوج عام ١٩٦٨ في تلك أربد ـ سوريا. له العديد من الترجمات عن الألمانية. ترجم لمنشورات الجمل: **غونتر غراس: في خطو السرطان**، قصة (٢٠٠٦).

باتريك زوسكند: العطر، قصة قاتل

ترجمها عن الألمانية: كاميران حوج

الطبعة الثانية ـ ٢٠٠٩

تلفون وفاكس: ٦٦٨١١٨ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١ بيروت ـ لبنان

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Patrick Süskind: Das Parfum, die Geschichte eines Mördes

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

الجزء الأول

١

في عصر لا يفتقر إلى النوابغ والسفلة، عاش في فرنسا القرن الثامن عشر رجل من أكثر الكائنات نبوغاً وسفالة. رجل ستُسرد حكايته هنا. كان اسمه جان بابتيست غرينوي. وإذا كان اسمه قد صار نسياً منسياً، خلافاً لأسماء النوابغ السفلة الآخرين على غرار دي ساد، سان جوست، فوشيه، نابليون وغيرهم، فليس لأنه كان دونهم عنجهية واحتقاراً للإنسانية ولا أخلاقية (وباختصار: كفراً)، بل لأن نبوغه وولعه حُشِرَا في حقل لا يترك في التاريخ إلا النزر اليسير من الأثر، ألا وهو حقل الروائح الطيّارة.

في ذلك العهد، سادت المدن نتانة لا نستطيع، نحن أبناء هذا العصر، تخيّلها إلا بشقّ الأنفس. كانت الشوارع تنتن بالروث، الأفنية الخلفية تنتن بالبول، سلالم البيوت تنتن بالخشب المتعفّن وفضلات الجرذان، والمطابخ تنتن باللفت الفاسد وشحم الحملان. من الردهات، التي لا تهوّى، كانت تنبعث رائحة الغبار المتعطّن. من المخادع رائحة الشراشف المدهنة، رائحة الأسرة ذات النوابض الرطبة ورائحة المباول الحادة اللذيذة. كانت المداخن تنشر رائحة الكبريت، المدابغ رائحة القلويات النفاذة، المسالخ رائحة الدم المتخثر. كان الناس ضواريَ ينتنون بالعرق والثياب القذرة: من أفواههم تنبعث رائحة الأسنان النخرة، من معداتهم تنبعث رائحة عصارة البصل، ومن أجسادهم، إن لم يعودوا في ذروة الشباب، رائحة الجبن العتيق والحليب الحازر ورائحة الأورام السرطانية. كانت الأنهار تنتن،

والساحات تنتن، والكنائس تنتن، الأكواخ كذلك، والقصور. كان للفلاح ذفر القسيس وللصانع ذفر زوجة المعلم. كان النبلاء ينتنون، بل وحتى الملك كان نتناً، كانت له ريح حيوان كاسر. والملكة كان لها رائحة عنزة جرباء، صيفَ شتاء. إذ لم يكن قد وُضعت بعد في القرن الثامن عشر حدود لنشاطات الباكتريا المحلّلة، وهكذا فلم يكن ثمّة من فعل إنساني، بنّاءً أو مدمّراً. لم يكن ثمة مظهر من مظاهر الحياة، نامية أو زائلة، إلا ورافقها النتن.

وبالطبع، كان النتن في باريس على أشدّه، لأنها كانت أكبر مدن فرنسا. وفي باريس تلك، كان ثمة مكان تسوده رائحة جهنمية لا تُطاق بين شارعَيْ اوفيرس ودو لا فيرونري أي سيميتيه ديزينوسانس. فقد جيء إليه بجثث الموتى في مستشفى «أوتيل ديو» والرعيات المجاورة ثمانمئة عام، فقد نُقلت إليه الجيف بالعشرات يوماً بعد يوم، وأُلقيت في خنادق طويلة ثمانمئة عام، وأطبقت العُظَيمات في المدافن وقصور العظام طبقات طبقات ثمانمئة عام. ولاحقاً، عشية الثورة الفرنسية، بعدما تصدّعت حفر الجثث تصدعاً خطيراً، ولم يدفع النتن المنبعث من المقبرة الفائضة على مجرّد الاحتجاج، بل على تظاهرات حقيقية، أُغلقت المقبرة أخيراً وفُتحت القبور، وجُرفت ملايين العظام والجماجم إلى سراديب مونمارتر وافتتح في مكانها سوق للبقالين.

وهنا في أنتن مكان في المملكة ولد جان بابتيست غرينوي في يوم من أشدّ أيام السنة قيظاً. كان الحرّ كغطاء من الرصاص فوق المقبرة، يهصر سديم التعفن الذي يُصدر ريحاً هي مزيج من البطيخ الفاسد والقرن المحروق، ليندلق في الأزقة المجاورة. كانت والدة غرينوي، حين أتاها الطلق، واقفة في دكان السمك في شارع اوفيرس تقشر السمك الأبيض، الذي نظّفته من قبل. وكان السمك، الذي أقسمت الأيمان على أنه

اصطيد صباحاً من نهر السين، نتناً إلى درجة أن رائحته غطّت على ريح الجثث. إلا أنها لم تشعر لا برائحة السمك ولا بريح الجثث، فقد كان أنفها محصناً تحصيناً منيعاً ضدّ الروائح، وعلاوة على ذلك كانت تعاني ألماً في بطنها قتل فيها كل إحساس بالانطباعات التي يتركها العالم الخارجي في الحواس. كان أقصى ما تريده، هو أن يزول الوجع، أن تنتهي الولادة المقزّزة بأقصى سرعة، كما انتهت الولادات السابقة من قبل، فهذه كانت ولادتها الخامسة. وقد نجحت في أداء السابقات في دكان السمك، وكان مواليدها أمواتاً أو نصف أموات، فاللحم الدامي الذي خرج منها لم يتميّز كثيراً عن أحشاء السمك المرمي هناك، كما أنه لم يعش أطول منها. وقد جُرفت الخلائط كلّها مساء لتُلقى إما في المقبرة وإما في النهر. وكان من المفترض أن تأخذ الأمور المجرى نفسه اليوم، ووالدة غرينوي الشابّة التي بلغت للتوّ أواسط العشرين، لا تزال حسناء تحتفظ تقريباً بكلّ الأسنان في فمها، وعلى رأسها لم يزل بعض الشعر. وبصرف النظر عن التهاب المفاصل والزهري مع سلّ خفيف، فلم تكن تعاني من أمراض جدّية، وما زالت تأمل بأن تحيا أعواماً مديدة، ربما خمسة، بل وربما عشرة، بل قد يكون لديها بصيص أمل في الزواج وإنجاب أطفال حقيقيين كزوجة حقيقية لحرفي أرمل، وما إلى هنالك من الأطماع في الحياة... على كل حال، كانت أمّ غرينوي تهفو لأن ينتهي الأمر بسرعة، وعندما حمي الطلق تكوّرت تحت الطاولة وولدت هناك، كما فعلت أربع مرات من قبل، وقطعت حبل السرّة بسكين تنظيف السمك. لكن لسوء الحظ، وبسبب اللظى والنتن، الذي لم تشعر به نتناً، بل شيئاً لا يطاق، شيئاً مخدّراً، مثل سهب من الزنبق أو غرفة مليئة بالنرجس، أُغمي عليها، ترنّحت وخارت أمام الطاولة وسط الشارع، وظلّت هناك وبيدها السكين.

الناس يصرخون، يتراكضون، يتحلّقون حولها مبحلقين، مع الشرطة التي تمّ استدعاؤها. والمرأة لا تزال ملقاة في الشارع وبيدها السكين. تستعيد الوعي ببطء، يسألها الشرطي عما جرى لها.

لا شيء.

عما تفعله بالسكين؟

لا شيء.

من أين جاء الدم على ثيابها؟

من السمك.

تنهض المرأة، ترمي السكين جانباً وتمضي لتغتسل. هنا، وخلافاً للتوقعات، يبدأ الوليد بالصراخ تحت الطاولة. ينظر الناس، يكتشفونه تحت سرب من الذباب وبين أحشاء السمك ورؤوسه، يستخرجونه من هناك. ولدواعٍ رسمية يُسلّم المولود إلى مرضع. تُعتقل الأم، وتقرّ بالذنب معترفةً دون إكراه أنها أرادت أن تترك ذلك الشيء هناك ليفطس، كما فعلت في ولاداتها الأربع السابقة. تُحاكم، وتدان بجرائم قتل أطفال، وبعد أسابيع عدّة يُقطع رأسها على المقصلة في ساحة دو غريف.

حتى هذه اللحظة يكون الطفل قد غيّر المرضع ثلاث مرات، فلم ترضَ واحدة منهن أن تبقيه في حضانتها أكثر من أيام عدّة بدعوى أنه جشع، يمتصّ حليباً يكفي اثنين، ويمنع الحليب عن الأطفال الآخرين، وبذلك يمنع عن المرضعات معاشهن، فلا يمكن لمرضع أن تعيش من إرضاع طفل واحد. أثار الموضوع شفقة ضابط الشرطة، السيد لافروس فسعى إلى تسليم الطفل بأقصى سرعة إلى دار اللقطاء واليتامى في شارع سان أنطوان خارج المدينة، حيث تنطلق كل يوم مواكب تسليم اللقطاء

إلى مراكز رسمية للقطاء في روين، لكن، ولأن عمليات الشحن تتم بوساطة عتالين يحملون الرضع في سلال على ظهورهم، يضعون فيها أربعة أطفال دفعة واحدة، بدوافع عقلانية، ولأن نسبة الوفيات أثناء الطريق عالية جداً، ولأن العتالين، بناء عليه، كانوا مكلّفين إيصال الرضّع المعمّدين، خصوصاً الذين يتمتعون بوثيقة نقل رسمية يجب أن تُختم في روين، ولأن الطفل غرينوي لم يعمّد، لا بل ليس له اسم ليُسجّل في وثيقة النقل، ثم لأن الشرطة لم تعتد أن ترمي طفلاً أمام بوابات مركز التجميع الذي سينهي، في هكذا حال، كل الأمور الروتينية الأخرى. . . إذاً لصعوبات عديدة، بيروقراطية وإدارية كانت ستظهر حال ترحيل الطفل، ثم لأن الوقت كان ضيقاً، تراجع ضابط الشرطة لافوس عن عزمه، وأمر بتسليم الطفل إلى مؤسسة كنسية وتعويضه بحساب مالي، حتى يُعمّد الطفل هناك، ويتقرّر مصير حياته المقبلة. وبذلك تمّ التخلص منه في دير سان ميري في شارع سان مارتان، حيث عُمّد وحصل على اسم جان بابتيست. ولأن رئيس الدير كان في ذلك اليوم حسن المزاج، ولأن صندوقه الخيري لم يكن قد أُفرغ تماماً، لم يأمر بتصدير الطفل إلى روين، بل برعايته على حساب الدير. ولهذه الغاية سُلّم الطفل إلى مرضع اسمها جان بوسي في شارع سانت دنيس، حصلت على ثلاثة فرنكات في الأسبوع تعويضاً على أتعابها.

٢

بعد أسابيع عدّة وقفت المرضع جان بوسي تحمل بيدها سلّة أمام بوابة الدير في سانت ميري، وقالت للراهب الأقرع الذي ينضح برائحة الخلّ، الأب ترير البالغ من العمر حوالى الخمسين عاماً، حالما فتح لها: هاك، واضعةً السلة على العتبة. ما هذا؟، تساءل ترير منحنياً على السلة يتشممها، ظناً منه أن فيها طعاماً.

ابن الحرام، ابن قاتلة الأطفال من شارع أوفيرس.

نبش الراهب بإصبعه في السلة حتى أزاح الغطاء عن وجه الرضيع النائم:

يبدو سليماً. إنه مورّد الخدين ومغذى خير تغذية.

طبعاً، لأنه علف مني، لأنه فرّغ عظامي. لكن كفى. يمكنكم أنتم أن تغذّوه بعد الآن بحليب الماعز، بالهريس، بعصير البنجر (الشمندر السكري)، إنه يعلف كل شيء، ابن الحرام.

كان الأب ترير رجلاً خلي البال، بين مسؤولياته إدارة صندوق الدير الخيري وتوزيع النقود على الفقراء والمحتاجين، وينتظر بعض الشكر والحمد على جهوده من دون أن يثقل عليه الآخرون. ويمتعض كثيراً من التفاصيل التقنية، فالتفاصيل تعني صعوبات، والصعوبات تعني إزعاجاً لراحة البال، وهذا ما لا يستطيعه. ضاق صدره بالمرأة لمجرّد أنه فتح لها الباب، وتمنى لو تأخذ سلتها وتمضي إلى البيت تاركة إياه بعيداً عن مشاكلها مع الرضيع. اعتدل ببطء وتنشّق بنفس واحد رائحة

الحليب وصوف الخروف مختلطة بالجبن، التي ترسلها السيدة. كان عبقاً طيباً:

لا أفهم ماذا تريدين! لا أفهم فعلاً ما تريدين قوله. أعتقد بأنه لن يضير هذا الرضيع إذا بقي زمناً طويلاً على صدرك.

همّت المرضع في وجهه: لن يضرّه، لكنه سيضرّني أنا. فقدت خمسة كيلوغرامات من وزني رغم أني آكل طعام ثلاثة. لماذا أفعل هذا كلّه؟ من أجل ثلاثة فرنكات في الأسبوع!

ردّ الأب ترير، كأنما أزاح أحدهم همّاً ثقيلاً عنه: آه فهمت، إذاً المشكلة مشكلة مال.

لا، قالت المرضع.

أكيد، جميع المشاكل تدور حول المال. حالما يطرق أحدهم هذه البوابة، يكون عنده مشاكل مالية. أتمنى من كل قلبي أن أفتح مرّة البوابة لأجد إنساناً عنده شيء آخر غير مشكلة المال. أو أجد شخصاً يحمل معه هدية صغيرة، قليلاً من الفاكهة مثلاً أو بعض حبّات الجوز. نحن في الخريف، وفي الخريف توجد أشياء كثيرة، يمكن لأحدهم أن يأتي بها. باقة ورد مثلاً، أو أن يأتي شخص ويقول بمودّة: حيّاكم الله أبونا ترير، طاب يومكم، لكن لا. يبدو أني لن أعيش إلى مثل هذا اليوم أبداً. إذا لم يكن الطارق متسولاً، فإنه تاجر، وإذا لم يكن تاجراً فإنه حرفيّ، وإذا لم يطلب صدقة فإنه يقدّم حساباً. لم يعد في وسعي الخروج. فإذا ما خرجت إلى الشارع يحاصرني بعد ثلاث خطوات عوام يريدون مني نقوداً. . . .

أنا لن أكون بينهم، قالت المرضع.

. . . إلا أني أقول لك شيئاً، أنت لست المرضع الوحيدة في

الأبرشية. توجد مئات من المربّيات القديرات اللاتي سيتهافتن، من أجل ثلاثة فرنكات، على ضمّ هذا الرضيع الفاتن إلى صدورهن، أو إطعامه بعض الهريس والعصير أو إلى ما هنالك من المواد الغذائية.

إذاً أعطوه لواحدة منهن. . . .

. . . من جهة أخرى، ليس من المستحسن دفع طفل من صدر إلى صدر. مَن يعلم إذا كان في وسعه الاعتياد على حليب آخر غير حليبك. ثم انه اعتاد عبق صدرك ونبضات قلبك.

من جديد أخذ نفساً عميقاً من البخار الحارّ الذي تطلقه المرأة، وقال عندما تبيّن أن كلماته لم تترك فيها أثراً:

خذي الطفل معك الآن. سأتداول بشأنه مع رئيس الدير. سأقترح عليه أن يدفع لك أربعة فرنكات في الأسبوع.

لا، قالت المرضع.

طيّب، خمسة.

لا.

كم تطلبين إذاً؟، صرخ فيها: خمسة فرنكات كومة كبيرة من المال لأجل وظيفة متواضعة كإطعام طفل.

لا أريد نقوداً على الإطلاق، كل ما أريده، هو أن يخرج ابن الحرام من بيتي.

لكن لماذا سيدتي العزيزة؟، قال ترير منقباً بإصبعه من جديد في السلّة: إنه طفل حلو جداً. ورديّ البشرة، لا يصرخ، ينام نوماً هنيئاً، ثم انه معمّد.

الشيطان راكبه.

وبسرعة سحب ترير إصبعه من السلة: مستحيل. يستحيل أن يركب

الشيطان طفلاً. الرضيع ليس إنساناً كاملاً، لكنه نصف إنسان، وليست له روح كاملة. وعليه فهو لا يهمّ الشيطان في شيء. هل يتكلّم منذ الآن؟ هل له رائحة نتنة؟

ليست له أي رائحة.

أرأيت! هذا دليل قاطع، لأنه سينتن لو ركبه الشيطان.

وإرضاء للمرضع وبرهاناً لذاته على شجاعته، رفع ترير السلّة ووضعها تحت أنفه، وقال بعدما تشممها طويلاً: لا أشمّ شيئاً كريهاً، بالفعل لا شيء كريهاً. لكن في الواقع يبدو لي أن ثمة رائحة تطلع من القماط، ودفع إليها بالسلّة، لتؤكد له سلامة حسّه.

لم أعنِ هذا، قالت السيّدة بجفاء دافعةً السلّة عن نفسها: لا أعني ما في القماط، فرائحة برازه جيّدة. لكنه هو نفسه، ابن الحرام، بلا رائحة.

هتف ترير: لأنه سليم، لأنه سليم ليس له رائحة. الرائحة تطلع من الأطفال المرضى فقط، هذا معروف. من المعلوم أن الطفل المصاب بالجدري تفوح منه رائحة روث الخيل، والطفل المصاب بالحمّى القرمزية تفوح منه رائحة التفاح القديم، والطفل المصاب بالسلّ تفوح منه رائحة البصل. هذا طفل سليم، هذا كل ما يعوزه. هل عليه أن ينتن؟ هل لأطفالك رائحة نتنة؟

لا، قالت المرضع: أطفالي يفوحون برائحة جميع أبناء البشر.

حذراً أعاد ترير السلّة ليضعها على الأرض، فقد شعر بأولى سورات الغضب على المخلوق الواقف أمامه تتصاعد فيه، وليس من المستبعد أن يحتاج في مسار المحاجحة إلى ذراعيه الاثنتين كي يعبر عن آرائه، ولم يكن يريد أن يضرّ بالرضيع عبر حركات اليدين. إلا أنه شبك يديه خلف ظهره، وأبرز بطنه المدببة للمرضع وسألها محتدّاً:

إذاً فأنت تزعمين أنك تعلمين كيف يجب أن تكون رائحة ابن الإنسان، وهو، وأذكّرك هنا، خصوصاً إذا كان معمداً، ابن الله على كل حال؟

فردّت المرضع: نعم.

ثم أنك تزعمين، أنت المرضع جان بوسي من شارع سانت دنيس أنه إذا لم تكن له رائحة، كما يجب أن تكون، بحسب رأيك، فإنه ابن الشيطان؟، ولوّح بيده اليسرى من خلف ظهره ومدّها في وجه المرأة مهدداً بالشاهدة، عاقفاً إياها كإشارة استفهام.

فكّرت المرضع، فلم يكن في صالحها أن يتحول الحديث بغتة إلى استجواب لاهوتي، لا بدّ أن تخسر فيه، لذلك قالت متنصّلة: لم أعنِ ذلك. أنتم تحددون إذا كان للموضوع علاقة بالشيطان أم لا. أبونا ترير، أنا لا أفهم مثل هذه الأشياء. كل ما أعرفه هو أني أرتعب هلعاً من هذا الرضيع، لأنه ليست له رائحة مثل رائحة جميع الأطفال.

أرجع ترير ذراعه إلى خلف ظهره وقال راضياً: آه، إذاً انتهينا من حكاية الشيطان. طيّب، لكن الآن قولي لي من فضلك، كيف هي رائحة الرضيع إذا كانت له رائحة، بحسب زعمك؟ ها؟

قالت المرضع: له رائحة طيّبة.

فصرخ فيها ترير: وما معنى طيّبة؟ للكثير من الأشياء رائحة طيّبة. باقة الخزامى لها رائحة طيبة. مرق اللحم له رائحة طيّبة، الحدائق لها رائحة طيّبة. . . أريد أن أعرف كيف تكون رائحة الرضيع.

تردّدت المرضع، فقد كانت تعرف كيف هي رائحة الرضيع، كانت تعرف بكل تأكيد، فقد أرضعت العشرات منهم، اعتنت بهم، هزّت مهودهم، قبّلتهم. . . كان بوسعها أن تجدهم في الظلام بأنفها، كانت رائحة الرضيع في أنفها الآن أيضاً، بيد أنها لم تصفها قط بالكلمات.

ها! عوى في وجهها ترير، وطقطق أصابعه بنفاد صبر.

بدأت المرضع متباطئة: إذاً، ليس من السهل أن أقول، لأن. . . لأنه ليس لهم الرائحة نفسها في كل موضع، مع أن رائحتهم طيّبة في كل المواضع. أبونا، أتوسل إليكم افهموني، مثلاً لأقدامهم رائحة الحجر الأملس الساخن، لا، لا، رائحة الزبادي. . . أو، مثل رائحة الزبدة، مثل الزبدة الطازجة. نعم، بالضبط، لهم رائحة الزبدة الطازجة. ولأجسامهم رائحة مثل رائحة المعجنات المنقوعة في الحليب، ولرؤوسهم، هنا فوق، خلف الرأس، أينما يكون الشعر دوّامة هنا، انظر أبونا، هنا، ليس لديكم شعر. . .، ونقرت على صلعة ترير وهو مسلوب الإرادة لبرهة في هذا الفيض من التفاصيل الغبية خافضاً رأسه طواعية: . . . هنا، بالضبط هنا، تكون رائحتهم أطيب رائحة. هنا تطلع منهم رائحة الكراميلا، رائحة حلوة، رائحة عظيمة، أبونا، لا يمكنكم تصوّرها. إذا شمّ أحد رائحتهم هنا سيحبّهم، سواء أكانوا أطفاله أم أطفال الغرباء. ويجب أن يكون للأطفال الصغار مثل هذه الرائحة ولا غيرها. وإذا لم تكن لهم هذه الرائحة، إذا لم تكن لهم رائحة هنا فوق، إذا كانت رائحتهم هنا مثل رائحة الهواء البارد وأقل، مثل هذا، ابن الحرام، فإنهم. . . أنتم تستطيعون تفسير هذا الشيء مثلما تحبون، أبونا، لكن أنا. وشبكت ذراعيها تحت ثدييها مصممة ورمت نظرة متقززة على السلّة أمام قدميها، وكأنها تحتوي على ضفادع: أنا جان بوسي لن أستلم هذا الشيء هنا أبداً.

ببطء رفع الأب ترير رأسه الخفيض ومسّد صلعته مرات عدة بأصابعه، كأنه بصدد تسريح شعره، ثم وضع إصبعه، كأنما بمحض الصدفة، تحت أنفه يتشمّمها متفكّراً.

مثل الكراميلا! تساءل وحاول أن يستردّ صوته الحازم: كراميلا؟ ماذا تعرفين أنت عن الكراميلا؟ هل سبق لك أن أكلت الكراميلا؟

قالت المرضع: ليس مباشرة. لكني كنت مرة في نزل كبير في شارع سانت اونوريه وشاهدت كيف يصنعونها من السكّر الذائب والقشدة. وكانت له رائحة طيبة لن أنساها طول حياتي.

نعم، نعم. طيّب، قال ترير وأبعد إصبعه عن أنفه: رجاء اسكتي الآن. في الحقيقة يصعب علي جداً مواصلة الحديث معك على هذا المستوى الوضيع. أنا أثبت هنا أنك تمتنعين، كائنة ما كانت الأسباب، عن متابعة إطعام الرضيع جان بابتيست غرينوي، الذي فوض إليك أمره وبذلك تعيدين وصايتك الموقّتة عليه إلى دير سانت ميري. أجد الأمر مؤسفاً، لكني لا أستطيع تغييره. أنت طليقة.

ثم حمل السلّة، أخذ نفساً آخر من بخار الحليب الحارّ والصوفي، الذي هبّ بذهاب المرأة وأغلق البوابة ومضى إلى مكتبه.

٣

كان الأب ترير رجلاً مثقفاً، درس الفلسفة علاوة على اللاهوت، كما أنه شغل نفسه إلى ذلك شيئاً ما بالنباتات والسيمياء وكان ذهنه الوقاد يتحمل بعض المواقف الحرجة، دون أن يتوغل عميقاً في النقد ويرتاب، كما يفعل البعض، في المعجزات والنبؤات وحقيقة الأسفار المقدسة، حتى لو لم تكن تفسر بالعقل وحده، إذا دققنا الأمر، بل وأنها تتعارض أحياناً معه. ولم يشأ أن يدس أنفه في هكذا مسائل صعبة، فهذه تزعج البال كثيراً ولن ترميه إلا في أحضان الشك المعذب والقلق، مع أن الرجل لا يحتاج ضماناً للعقل إلا الطمأنينة والراحة. بيد أنه كان مكافحاً عنيداً للتصوّرات الخرافية لعامة الشعب، مثل السحر وقراءة الورق، التمائم، الحسد، التعزيم، شعوذة تمام القمر وكلّ ما يقوم به العوام من الشعوذات، وكان يقنط أشد القنوط لأن تلك الأعراف الوثنية ما زالت سائدة بعد مرور أكثر من ألف عام على قيام المؤسسة الدينية المسيحية. كما ثبت أن معظم حالات المسّ ومحالفة الشيطان لم تكن إلا ضوضاء خرافية وخزعبلات، إذا درسها المرء دراسة جيدة، إلا أن الأب لن يمضي إلى حدّ إنكار وجود الشيطان والارتياب في قدراته، ثم ان حسم مثل هذه المحن التي تلامس أسس اللاهوت، من مسؤولية سلطات أعلى وليست من اختصاص راهب صغير وبسيط. ومن ناحية أخرى، فمن الجلي أنه إذا ادعى شخص ساذج مثل تلك المرضع أنه كشف الحجاب عن لعنة شيطانية، فلن يكون للشيطان يد في الموضوع، بل وأفضل دليل على استحالة ورود

الشيطان في الموضوع، هو أنها هي من يعتقد أنه كشفه، فالشيطان ليس غبياً إلى درجة أن يكشف نفسه على يد المرضع السخيفة جان بوسي. وكيف اكتشفته؟ بالأنف! عضو الشم البدائي، أوضع الحواس! يا للعجب، كأن لجهنم رائحة الكبريت وللجنة رائحة المر واللبان! أليست هذه خرافة كما في أشد العهود الوثنية ظلمة، عندما كان البشر يعيشون كالحيوانات، عندما لم يكن لديهم عيون ثاقبة، لا يعرفون الألوان ويؤمنون أنهم قادرين على شم الدم، يعتقدون بالتمييز بين الصديق والعدو من رائحته، يعتقدون أن العماليق آكلي لحوم البشر يستروحونهم وأن إلهات الثأر تشم روائحهم ويقربون لآلهتهم المقرفة أضاحي منتنة تزكم الأنوف. شيء يثير الاشمئزاز حقاً، بأنفه يرى المجنون أكثر مما بعينيه ويبدو أن على نور العقل، الذي منحنا إياه الله، أن ينير ألف عام أخرى قبل أن يتغلب على بقايا الاعتقادات البدائية. آه، والطفل المسكين! هذا الكائن البريء، غاف بدعة في السلة، غافل عمل يدور حوله من الشبهات المقرفة. تجرؤ المرضع التعيسة لتقول أنك لا تفوح كما يجب أن يفوح بنو الإنسان! ماذا نقول في هذا؟ وش وش. وهزّ السلة برفق على ركبتيه، مسح برقة على رأس الرضيع وقال بين الهنيهة والأخرى وش وش، ما حسبه تعبيراً ذي أثر ناعم ومهدئ على الأطفال الصغار. يفترض أن تكون له رائحة الكراميلا! يا للغباء. وش وش.

بعد برهة، سحب إصبعه ودسه تحت أنفه، تشممه، إلا أنه لم يشمّ إلا رائحة الملفوف المخلل الذي أكله على الغداء. تردد هنيهة، التفت حوله ليطمئن أن لا أحد يراقبه، رفع السلة ودس فيها أنفه الكبير، بحيث دغدغت شعيرات الطفل الرقيقة الحميراء خياشيمه، متوقعاً أن يستروح منها رائحة. لم يكن يعلم بالضبط كيف هي رائحة رأس الأطفال الرضع، طبعاً لن تكون رائحة الكراميلا، كان واثقاً من هذا،

فالكراميلا تصنع من السكر المذاب، وكيف لطفل لم يرضع سوى الحليب أن يفوح برائحة قطر السكر! قد يفوح برائحة الحليب، رائحة حليب المرضعات. بيد أنه لم يفح برائحة الحليب. قد يفوح برائحة الشعر، برائحة الشعر والجلد وربما ببعض من رائحة عرق الأطفال. تشمّمه ترير متوقعاً أن يشم جلداً وشعراً وعرق أطفال، بيد أنه لم يشمّ شيئاً، رغم كل طيب السريرة. وفكّر، ربما لا يعبق الأطفال، لا بدّ أنهم لا يعبقون، لا بدّ أن طفلاً، ما دام نظيفاً، لا يعبق، تماماً كما أنه لا يتكلم، لا يمشي ولا يكتب، فهذه الأشياء تأتي بتقدّم العمر. وبشكل أدق، يبعث الإنسان رائحة إذا راهق، هذا هو الصواب وليس العكس. ألم يكتب هوراس العظيم: رائحة الثور تضوع من الفتى، والفتاة تعبق برائحة النرجس الأبيض، وكان الرومان يفهمون شيئاً من الحياة. رائحة الإنسان رائحة لحمية، أي رائحة الآثام، فكيف يكون لرضيع لا يعرف إثم اللحم حتى في الحلم رائحة؟ كيف تكون له رائحة؟ وش وش؟ لا رائحة له. وضع السلة على ركبتيه من جديد وهدهدها برفق. ما زال ينام نوماً عميقاً. ظهرت قبضته اليمنى من تحت الغطاء، صغيرة وحمراء وكان جفنه يرفّ أحياناً. ابتسم ترير وانشرح صدره بغتة، ولهنيهة خُيّل إليه أنه والد الطفل، إنه لم يصبح راهباً إنما إنساناً عادياً، ربما حرفياً قويماً، إنه اتخذ له زوجاً دافئة، تفوح برائحة الحليب والصوف وأنجب منها ولداً، يهدهده على ركبتيه، طفله، وش وش وش... وشعر فرحاً غامراً في هذا الحلم، فقد كان على سوية عالية من الأصالة. أب يهدهد ابنه على ركبتيه، وش وش، كانت الصورة قديمة قدم العالم، آه، يا للجمال! شعر ترير في قلبه دفئاً وفي روحه عواطف جيّاشة.

هنا استيقظ الطفل واستيقظ أول ما استيقظ فيه أنفه. اهتزّ الأنف الصغير، ارتفع نحو الأعلى وتشمم. استنشق الهواء وزفره في دفقات

قصيرة، كعطاس غير مكتمل، وفتح الصغير عينيه. كان للعينين لون غير محدد، لون بين الرمادي والحليبي، يغشاهما حجاب مخاطي، ومن الظاهر أنهما لا تريان جيداً. شعر ترير بأنهما لا تأبهان به، بخلاف الأنف، وبينما تحدق عينا الطفل الخابيتان في الفراغ، كان الأنف يتركز على هدف معين وشعر ترير أنه هو الهدف المعيّن، ترير نفسه. انتفخت طاقتا الأنف الدقيقتان حول الثقبين الدقيقين وسط وجه الطفل كزهرة تتفتح، بالأحرى مثل تويجات النباتات مفترسة اللحوم في حديقة الملك. ومثلها بدت طاقتا الأنف على قدرة عظيمة على الامتصاص. بدا لترير وكأن الطفل يراه بمنخريه، كأنه يحدق فيه عميقاً، يتوغّل فيه أكثر مما يبصر الإنسان بالعينين، كأنه يلتهم بأنفه شيئاً يصدر منه، من ترير، وليس بوسعه أن يمسكه أو يخفيه... كان الطفل عديم الرائحة يسحب منه رائحته دون حياء، نعم هكذا كان! كان يتنسمه ولاح ترير لذاته نتنا، ينتن بالعرق والخلّ والملفوف المخلل والثياب القذرة. لاح لذاته عارياً وقبيحاً، كأنما هو يبحلق فيه شخص لا يفشي بشيء عن نفسه. بدا كأن الرضيع يستروح أعمق من جلده، في أعمق أعماقه، وبغتة تعرت العواطف الجياشة والأحلام القذرة أمام الأنف الصغير الجشع، الذي لم يكتمل بعد: كان عضواً لا يكف عن التجعّد، عن الانتفاخ، عضواً هزازاً، قميئاً ومثقوباً. ارتعدت فرائص ترير، أصابه الاشمئزاز وشدّ عضلات أنفه كأنه يشم شيئاً كريهاً، لا يعرفه. وداعاً للحلم الوردي بقرة العين وفلذة الكبد. سحقاً للمثال العاطفي عن الأب والابن والأمّ العبقة. سحقاً لحجاب الفكر الذي ألقاه على نفسه وعلى الطفل. على ركبتيه كائن غريب، بارد، حيوان عدواني وإن لم يكن رجلاً يخشى الله ويهابه ويسير في هدى العقل لقذفه في الهواء في لحظة الاشمئزاز مثل عنكبوت. نهض ترير بحركة واحدة ووضع السلة على المائدة. أراد أن يتخلص من هذا الشيء بأقصى سرعة، حالاً، فوراً.

عندئذ بدأ الشيء بالجعار. شد أجفانه، فتح بلعومه الأحمر على

آخره وزعق زعيقاً مقززاً جمد الدم في عروق ترير، الذي مدّ ذراعه ليهزّ السلة عن بعد وصرخ في الطفل وش وش ليسكت، إلا أن الطفل صرخ أعلى فأعلى وازرقّ وجهه كأنه سينفجر من الزعيق. فكّر ترير في تلك اللحظة، أبعدوا هذا. . . الشيطان كاد أن يقول، إلا أنه تماسك، كبح جماح غيظه. أبعدوا هذا العفريت، هذا الطفل الذي لا يطاق، لكن إلى أين؟ كان يعرف العشرات من المربيات ودور اليتامى في الحي، لكنها بدت له قريبة، ملتصقة به، يجب أن يقصي هذا الشيء، بعيداً، بعيداً بحيث لا يسمعه، بعيداً، بعيداً، بحيث لا يراه بعد ساعات على الباب، يجب أن يُنفى إلى أبرشية أخرى إذا أمكن، ويفضّل أن تكون على الضفة الأخرى من النهر، من الأفضل خارج أسوار المدينة، إلى فوبورغ سان أنطوان، نعم، إلى هناك يجب أن يُبعد قليل الأدب الجعار، بعيداً نحو الشرق، على الناحية الأخرى من الباستيل، حيث تغلق البوابات ليلاً.

تناول قفطانه على عجل وأخذ السلة الصارخة وجرى بها عبر متاهات الأزقة إلى حي فوبورغ سان أنطوان مع نهر السين نحو الشرق، خارج المدينة، أبعد وأبعد، حتى شارع دو شارون، حتى نهايته تقريباً، حيث يعرف قرب دير مادلين دو ترينيل عنوان امرأة تدعى مدام غايار، تقبل برعاية أطفال من كل الأجناس والأعمار، ما دام أحدهم يدفع، وهناك سلمها الأب ترير السلة التي ما زالت تصرخ، دفع عن عام مقدّماً وفرّ عائداً إلى المدينة، ألقى ثوبه عنه حالماً وصل الدير، كأنها ثياب لطختها القذارة، اغتسل من قمة الرأس حتى أخمص قدميه وزحف في حجرته إلى سريره، حيث رسم إشارات الصليب مرات متعددة، صلّى طويلاً وتمكن أخيراً من الاستغراق في النوم.

٤

تركت السيدة غايار، رغم أنها لم تتجاوز الثلاثين، حياتها وراءها. ظاهرياً كانت تبدو في عمر يناسب سنها الحقيقي، وكانت في الآن ذاته، تبدو في سن مضاعفة، في ثلاثة أضعاف سنها، مئات أضعاف سنها، مثل مومياء فتاة، أما داخلياً، فقد ماتت منذ عهد بعيد. ضربها أبوها، عندما كانت طفلة، بحديدة المدفئة على جبينها قرب جذر الأنف وفقدت مذاك حاسة الشم وكل إحساس بالدفء الإنساني، بالبرد الإنساني، والرغبات. بالضربة على جبينها فقدت مدام غايار مع معنى الاشمئزاز معنى الرأفة، ومع معنى اليأس معنى الفرح. لم تشعر بشيء عندما ضاجعت رجلاً، كما لم تشعر بشيء عندما أنجبت أطفالاً. لم تحزن على من توفوا عنها، ولم تفرح لمن بقي لها. لم يرف لها جفن عندما كان زوجها يضربها، ولم يتحرك فيها أي شعور بالفرح عندما مات بالكوليرا في مستشفى «أوتيل ديو». كل ما تعرفه من الخوارق، كان بعض السوداوية عندما تأتيها الشقيقة مرة في الشهر، وبعض الانتعاش إذا تركت الشقيقة رأسها. علاوة على ذلك لم يكن لدى السيدة العجفاء أدنى إحساس.

من الناحية الأخرى، وربما بسبب خلوّها التام من المشاعر، كان للسيدة غايار حسّ صارم بالانضباط والعدالة. فلم تفضّل طفلاً عهد إليها على آخر، ولم تهمل أحدهم على حساب آخر. كانت تناولهم ثلاث وجبات في اليوم ولا تزيد لقمة واحدة. كانت تقمّط الصغار ثلاث مرات في اليوم حتى عيد ميلادهم الثاني فقط، وأما من تبوّل بعدها في ثيابه

فينال صفعة لا رحمة فيها ووجبة أقل. كانت تنفق نصف النقود تماماً على الربيب وتحتفظ بنصف النقود تماماً لنفسها. لم تحاول في زمن اليسر أن تزيد أرباحها، غير أنها لم تصرف في زمن العسر قرشاً زائداً، حتى لو تعلق الأمر بالحياة والموت، وإلا لما عاد عليها العمل بفائدة. كانت تحتاج المال وتحسب حساب المستقبل بحسابات بالغة الدقة، فهي تنوي أن تضمن لها راتباً تقاعدياً وتملك علاوة عليه ما يمكن من المال لتضمن لنفسها الموت في البيت، وليس في «أوتيل ديو» مثل زوجها. لم يحرك فيها موته شعرة، بيد أنها كانت ترتعش خوفاً من الموت العمومي المشترك مع المئات من الأغراب وتريد أن تضمن لنفسها موتاً خصوصياً، ولأجل هذا الموت الخصوصي تحتاج إلى مقدم مالي من نفقات رعاياها. مات عنها في بعض الشتاءات من عشرين من ضامني تقاعدها الصغار ثلاثة أو أربعة، بيد أنها كانت أفضل بكثير من غالب المربيات الخصوصيات وتجاوزت كثيراً مراكز اللقطاء الحكومية أو الكنسية، التي بلغت نسبة الخسارات فيها تسعة أعشار. كما أن الاحتياط كان موفوراً، فباريس كانت تنتج في العام الواحد أكثر من عشرة آلاف لقيط، نغل ويتيم، وبهذا كانت السيدة تسلو عن خساراتها.

بالنسبة إلى الصغير غرينوي كانت مؤسسة مدام غايار بركة، فغالب الظن أنه ما تمكن من الاستمرار في الحياة في مكان آخر، لكن عندها، عند تلك السيدة الضحلة، نما وابتهج. كان شديد البنية، فمن يبقى على قيد الحياة بعد ولادة مثل ولادته في القمامة، لن يستسلم بسهولة لمجاريف الحياة. كان له الاكتفاء بعصيدة الماء، العيش من الحليب المعدوم الدسم، تحمل الخضار العفنة واللحم المتفسخ. انتصر في حياته القصيرة على الحصبة، الزحار، جدري الماء، الكوليرا، السقوط من ارتفاع ستة أمتار في أعماق بئر، السموط بالماء المغلي، ورغم أنه

حمل من إصاباته ندوباً، تقشرات وتشققات في الجلد وقدماً كسيحة، جعلته يعرج، إلا أنه ظل على قيد الحياة. كان صعب المراس كبكتيريا جلدة وقنوعاً كقرّاد يقبع ساكناً على شجرة ويتغذى من قطيرة دم غنمها منذ سنين طويلة. لم يحتج لجسده إلا إلى أدنى الكميات من الطعام واللباس، وأما لروحه فلم يحتج شيئاً على الاطلاق. فالطمأنينة، العناية، الحنان، الحب، أو ما يطلق من مسميات على تلك الأشياء التي يزعم أن الأطفال يحتاجونها، كانت مفاهيم لا يعوزها الطفل غرينوي، بل ويبدو لنا أنه استغنى عنها منذ البداية، كي يتمكن من البقاء على قيد الحياة. لم تكن الصرخة التي أطلقها بعد الولادة، الصرخة من تحت طاولة تقشير السمك، التي أعلن بها عن نفسه وقاد بها أمه إلى المقصلة، صرخة غريزية نحو العطف والحب، إنما صرخة متبصرة، يمكن لنا القول صرخة عقلانية، قرر عبرها الوليد أن يكون ضد الحب، ولكن مع الحياة. ففي تلك الظروف، كانت هذه دون ذاك ممكنة، ولسقط في الحضيض لو طالب بالاثنين معاً. كان له آنذاك التمسك بإمكانية أخرى أتيحت له ويختار الطريق من الولادة إلى الموت مباشرة دون المرور بمنعطف الحياة، ولوفر بذلك الكثير من الويلات على نفسه، وعلى العالم كذلك. لكن ليعتزل بهكذا بساطة، كان غرينوي يحتاج أدنى درجة من المودة الفطرية، وهذه كانت مفتقدة لديه. كان سافلاً منذ البداية وقرر البقاء في الحياة عناداً وبغضاً.

من البديهي أنه لم يقرّر كما يقرّر بالغ يستعمل عقله، الكبير أو الصغير، وتجاربه ليختار بين خيارات عديدة، غير أنه قرر بفطرة النبات، كما تقرر حبة حنطة مرمية أن تنتشي أو أن تختفي من الوجود. أو مثل القرّاد على الشجرة، الذي لا تقدم له الحياة إلا سباتاً شتوياً لا ينتهي. القراد الصغير البشع، الذي يكور جسده الرصاصي ليظهر للعالم

الخارجي أقل ما يمكن من سطحه والذي يجعل جسمه ملساً وكتيماً كي لا ينضح، كي لا يمنح الخارج أي شيء. القرّاد الذي يتعمد التصاغر والاتضاع كي لا يراه أحد ويسحقه. القراد المنعزل، الذي يعتكف منطوياً على شجرته، أصمَّ، أعمى، أبكم ويكتفي بالتنسم سنيناً عقب سنين، وعلى بعد أميال، يتنسم دماء الحيوانات المارة، التي لا يستطيع الوصول إليها بقوته الذاتية. في وسع القراد أن يتساقط، في وسعه أن يتساقط على أرض الغابة وأن يزحف بقوائمه الست الدقيقة عدة مليمترات إلى هذه الجهة أو تلك ويترك نفسه للموت تحت الأوراق، ولن يؤسف عليه، بحق الله لن يؤسف عليه. بيد أن القراد، وهو العنيد، المتعنت والمقزز، يظل مقرفصاً، يعيش ويترقب. يترقب حتى تأتيه الصدفة غير المحتملة إطلاقاً بالدم في هيئة حيوان إلى الشجرة، وهنا يتخلّى عن حذره، يقفز وينشب أظفاره، ينهش ويعض اللحم الغريب.

مثل هذا القراد كان الطفل غرينوي، ينغلق على ذاته ويترقب زمناً أفضل. لم يمنح العالم شيئاً أكثر من برازه، لا ابتسامة، لا صرخة، لا بريق عينين ولا حتى رائحة خاصة. سوى مدام غايار كانت ركلت مثل ذلك الطفل الشبح، لكنها لم تكن تشم أنه لا يفوح برائحة ولم تنتظر منه خلجات روحية، لأن روحها هي كانت مغلقة.

لكن الأطفال الآخرين شعروا فوراً بماهية الطفل غرينوي، فقد رهبوه منذ اليوم الأول. تجنبوا التابوت الذي يضطجع فيه والتصقوا في مخادعهم، وكأن الغرفة صارت أبرد. صرخ الصغار منهم ليلاً وكأن هواء بارداً يعبر الغرفة، آخرون شعروا بأن أحدهم يكتم عليهم أنفاسهم. اجتمع الكبار منهم مرة على أن يخنقوه. كوموا الخرق والمخدات والقش على وجهه وثقّلوها بالحجارة. وعندما نقبت عنه مدام غايار في صبيحة اليوم التالي، كان منكمشاً على نفسه، منسحقاً، ومزرقاً، لكن

ليس ميتا. حاولوا عدة مرات أخرى، إلا أنهم فشلوا. فهم لم يجرؤوا على خنقه بأيديهم، أو سد أنفه وفمه مباشرة، ما كان سيضمن موته، فقد كانوا يجزعون من لمسه. كانوا يشمئزون منه مثل اشمئزازهم من عنكبوت ضخم لا يريد أحدهم أن يسحقه بيده، ثم أنهم توقفوا عن محاولات قتله عندما كبر قليلاً، فقد ثبت لديهم أنه غير قابل للاندحار وعوضاً عن محاولة قتله انصرفوا عنه، تفادوه وتوقوا لمسه. لم يكرهوه، لم يغيروا منه أو يحسدوه على الطعام، فلم يكن لدى آل غايار أي مناسبة لمثل هذه العواطف. ببساطة كان وجوده يزعجهم. لم يتمكنوا من شمه. كانوا يخافون منه.

٥

للحقيقة، لم يكن في غرينوي ما يخيف. فلم يكن، عندما نشأ ونما، كبيراً، لم يكن قوياً، ورغم أنه قبيح، بيد أنه لم يكن قبيحاً إلى درجة يرتعب منها المرء، لم يكن عدوانياً، لم يكن أعسر، لم يكن غدارا ولم يكن يستفز أحداً ويفضل الاختلاء بنفسه. كما أن ذكاءه لم يبدو رفيعاً، فلم يقف على قدميه إلا في الثالثة من العمر، وفي الرابعة نطق أولى كلماته، وهذه كانت كلمة سمك، التي انطلقت من فيه في لحظة مباغتة من لحظات الهيجان مثل الصدى، كأن بياع سمك جاء إلى شارع دو شارون ويصيح معلناً عن بضاعته. كانت الكلمات التالية التي تلفظ بها جيرانيوم، حظيرة العنز، الملفوف وجاك لورور وهذا كان اسم جنائني الجمعية الخيرية المجاورة في «في دو لا كروا»، الذي يؤدي بعض الأعمال القذرة والصعبة لدى مدام غايار أحياناً، وميزته أنه لم يغتسل طوال حياته. كانت الأفعال والصفات وكلمات الحشو نادرة عليه. علاوة على نعم ولا ـ اللتين نطقهما متأخراً جداً ـ لم يلفظ إلا الأسماء، بالأحرى أسماء أشياء معينة، أسماء نباتات، حيوانات وبشر وذلك فقط في حال استحوذت هذه الأشياء، النباتات، الحيوانات، البشر بروائحها على ملكاته من حيث لا يدري.

جالساً في شمس آذار على أكداس من حطب الزان، الذي يتقصف في حرارة آذار، نطق لأول مرة كلمة خشب. كان قد رأى الخشب مئات المرات سابقاً وسمع الكلمة مئات المرات وفهم معناها أيضاً، فقد أرسلته السيدة غايار غالبا في الشتاء ليجلب الخشب، لكن المادة خشب

لم تستثره من قبل لدرجة أن يجتهد في نطق اسمها، ما حدث له في ذلك اليوم من آذار، عندما كان جالساً على كومة الخشب. كانت الأكداس متراصة مثل مقعد على الجهة الجنوبية لمخزن خشب مدام غايار تحت سقف متدل وكانت قطع الحطب العلوية تعبق برائحة حارة لذيذة، من الأعماق تفوح رائحة الطحالب ومن جدار المخزن من خشب الشربين تتساقط في الحرارة رائحة الراتنج. جلس غرينوي ماداً ساقيه على الأكداس، سانداً ظهره إلى جدار المخزن، أغمض عينيه وتوقف عن الحراك. لم ير شيئاً، لم يسمع شيئاً ولم يشعر بأي شيء. اكتفى بشم رائحة الخشب التي تتصاعد من حوله وتتجمع تحت السقف كأنما تحت عريش. تنشق الرائحة، غرق فيها، وتشرّب بها حتى أدق مساماته. صار ذاته خشباً، مثل لعبة خشبية، مثل بينوكيو على ركام من الخشب، مثل ميت، حتى استبعث بعد زمن طويل، ربما بعد نصف ساعة، كلمة خشب. كأنما امتلأ خشباً حتى أذنيه، كأنما غرق في الخشب حتى أذنيه، كأنما طفح بطنه، بلعومه، أنفه بالخشب، كذلك تقيأ الكلمة. وبذلك استعاد نفسه، أنقذ نفسه، قبل أن يخنقه الحضور الطاغي للخشب ورائحته. انتابته نوبة جنون، انزلق عن الأكداس وراح يعرج كأنه يسير على ساقين خشبيتين. أُخذ بتجربة الرائحة الشديدة أياماً طويلة، فكان لا يني يدمدم، كلما اقتحمته الذكريات عنها: خشب، خشب.

هكذا تعلّم الكلام. كانت أصعب معاناته تلك الكلمات التي لا تصف شيئاً له رائحة، أي المفاهيم المجردة، وخاصة ذات الطبيعة الأخلاقية والمعنوية. لم يستطع الاحتفاظ بها وكان يخلطها ولم يستخدمها طواعية حتى عندما بلغ سن الرشد، وغالباً ما استخدمها خطأ: الحق، الضمير، الله، الفرح، المسؤولية، التواضع، الحمد...

إلخ. كلمات استغلقت عليه معانيها. من ناحية أخرى لم تعد اللغة المتداولة تكفي للتعبير عن تلك الأشياء التي استوعبها في ذاته كمصطلحات للحس الشمي. فلم يعد يشم خشباً، بل أصناف الخشب، كالاسفندان، البلوط، الصنوبر، الدردار والدراق، خشب عتيق، طازج، خشب هش، عفن، طحلبي، بل وصار يميّز بين فلجات الخشب، شظايا الخشب ونشارة الخشب. وشمّها كأشياء على أعظم الاختلاف، كما لا يمكن للآخرين أن يميزوها بالعين والأمر نفسه مع كل المواد الأخرى. فلئن يسمى ذلك الشراب الأبيض، الذي تعطيه مدام غايار لربيبيها كل صباح، حليباً، رغم أن رائحته تختلف عند غرينوي من صباح لصباح وأيضاً طعمه، وذلك بحسب حرارته، بحسب البقرة التي درّته وبحسب ما علفت تلك البقرة، بحسب كمية الدسم التي تركت فيه وهكذا... ولئن يكون للدخان، الذي يتألف من مئات الروائح النفاذة، المتبدلة من دقيقة لأخرى، بل ومن ثانية لأخرى، والمتآلفة في وحدة جديدة كل مرة، مثل دخان النار، ذلك الاسم الوحيد دخان... ولئن يكون للتراب، للسهوب، للهواء، التي تفوح مع كل خطوة ومع كل نفس برائحة مختلفة ويكون لها بذلك هويات مختلفة، توصف رغم ذلك بتلك الكلمات الثلاثة الفظة! هذا التنافر العجيب كلّه بين غنى العالم المحسوس شماً وفقر اللغة، دعا الغلام غرينوي إلى الشك في فائدة اللغة ذاتها، ولم يعمد إلى استخدامها إلا إذا اضطره إليها التعامل مع أناس آخرين اضطراراً.

في السادسة من عمره استشعر كامل محيطه شماً. لم يبق من منزل مدام غايار شيء، لم يبق من شارع دو شارون الشمالي مكان، لم يبق إنسان، حجر، شجرة، شجيرة، سياج خشبي، بقعة مهما كانت صغيرة إلا وعرفها غرينوي، تعرفها واحتفظ بفرادتها في ذاكرته حفظاً لا يزول

بعده. جمع عشرات الآلاف، مئات الآلاف من الروائح النوعية واحتفظ بها جلية، حية، بحيث لا يتذكرها فقط إذا شمها من جديد، بل يشمها فعلاً إذا تذكرها، بل وأكثر، بحيث تمكن من مزجها في خياله مع بعضها البعض وأبدع في ذاته روائح لا تتوافر في العالم الواقعي. كأنه يمتلك معجماً عملاقاً من المفردات التي تعلمها بذاته عن الروائح، يمكنه من أن يصوغ كماً هائلاً كما يشاء من جمل الرائحة، وذلك في عمر يتلعثم فيه الأطفال الآخرون من تركيب أولى الجمل التقليدية، والتي تعجز عن وصف العالم بالكلمات التي سكبت فيهم عبر الأقماع ببالغ الجهد.

ربما يمكن مقارنة موهبته بموهبة طفل معجزة، تنصت إلى الألحان والأنغام، إلى ألفباء الأصوات ويسعى لتأليف ألحان وأنغام جديدة كل الجدّة، بفارق أن ألفباء الروائح أوسع بكثير وأبلغ من ألفباء الأصوات، وبفارق أن العمل الخلاق للطفل المعجزة غرينوي، كان يعتمل في داخله فحسب وليس لأحد غيره أن يشعر به.

انغلق على نفسه أكثر فأكثر. وفضل التسكع وحيداً في فوبورغ سان أنطوان الشمالية عبر بساتين الفاكهة، كروم العنب، وعبر المروج. أحياناً لم يكن يعود إلى البيت ويختفي أياماً طوال، فيدفع استحقاق التربية بالعصا دون أن تلوح على وجهه تعابير الألم، ولم تبدل عقوبات الحجز في البيت، المنع عن الطعام، والسخرة، من سلوكه. كما لم يظهر عام ونصف من الزيارات المتقطعة لمدرسة الرعية في نوتردام دو بون سكوير آثاراً بيّنة عليه، فلم يتعلم علاوة على القراءة بالتهجئة وكتابة اسمه شيئاً آخر واعتبره معلمه أبله.

إلا أن مدام غايار استغربت فيه قدرات وصفات غير عادية، حتى لا يقال خارقة، فخوف الأطفال من الظلام والليل مثلاً كان غريباً عليه.

كان لها أن ترسله حينما شاءت إلى القبو حيث لا يجرؤ الأطفال الآخرون على الذهاب حاملين مصباحاً، إلا أنه كان يجد طريقه ويأتي فورا بالمطلوب، دون أن يخطئ، دون أن يتعثر أو يوقع شيئاً. والأغرب، كما تبين لمدام غايار وآمنت به، أنه قادر على الرؤية عبر الورق والقماش والخشب، بل وحتى عبر الجدران المحصنة والأبواب المحكمة. فكان له أن يعرف كم ومن من الأطفال يتواجدون في غرفة النوم دون أن يدخلها، أن يعرف بوجود الدود في رأس القرنبيط قبل أن يقطع. ومرة، عندما أخفت نقودها جيداً بحيث لم تعد نفسها تعرف أين تجدها، فقد كانت تغير المخبأ على الدوام، أشار إلى مكانها خلف دعامة الموقدة دون أن يبحث ثانية واحدة. ويا للعجب، كانت النقود هناك. بل ظنت أنه قادر على استطلاع المستقبل، إذ يعلن عن زيارة شخص ما قبل أن يصل بوقت طويل أو يعرف بقدوم زخة مطر قبل أن تلوح أي سحابة في السماء. ولما خطر في بال مدام غايار حتى في الحلم، حتى لو لم تكن ضربة حديدة النار على جبينها أعطبت قدرتها على الشم، أنه لا يرى كل تلك الأشياء، لا يراها بالعين، بل يتنسمها بأنفه الذي يزداد رهافة ودقة يوماً بعد يوم، كالدود في القرنبيط، النقود خلف الدعامة والبشر عن بعد عدة شوارع. كانت واثقة كل الوثوق أن للغلام، أبله كان أم لا، وجهاً ثانياً، ولأنها تعلم أن ذوي الوجهين يجلبون الشؤم والموت، انقبض صدرها. وانقبض أكثر، بل لم تعد تطيق فكرة الحياة تحت سقف واحد مع شخص وهب القدرة على رؤية النقود المخبأة باتقان خلف الجدران والدعامات، وهي إذا اكتشفت هذه القدرة المفزعة لدى غرينوي، صبت إلى التخلص منه. ولحسن الصدف حدث وأن قطع دير سانت ميري مدفوعاته السنوية دون الإعلان عن السبب في الوقت ذاته تقريباً، وكان غرينوي بلغ الثامنة. لم تعلم مدام

غايار الدير باستحقاقاتها وتمهلت، مراعاة للأدب، أسبوعاً آخر وإذ لم يصل الاستحقاق المالي، أخذت الغلام من يده ومضت به إلى المدينة.

كانت تعرف في شارع دو مورتيرين قرب النهر، دباغاً اسمه غريمال، مشهوراً بحاجته الدائمة إلى عمال صغار، ليس إلى صناع أو مساعدين فعليين، إنما إلى خدام رخيصين، فقد كان في المهنة أشغال، مثل تقشير اللحم المتعفن عن الجلود، خلط سموط الألوان والأدباغ السامة وتشريب الجلود العطنة بالمواد الكاوية، على درجة عالية من الخطورة بحيث لا يستخدم معلم على قدر من المسؤولية مساعديه المتعلمين فيها، إنما يضحي بالحثالة العاطلين عن العمل، بالأفاقين والأطفال المشردين، الذين لن يسأل عنهم أحد إذا حدث لهم المقدر. طبعاً كانت مدام غايار تعلم أن غرينوي لن يعيش طويلاً في ورشة الدباغة، بحسب المقاييس الإنسانية، لكنها لم تكن السيدة التي تزعج دماغها بهكذا خواطر. لقد أدت واجبها. انتهى عقد الكفالة. وأما ما سيحدث مع الربيب فليس من شأنها. حسن إذا أفلح وإذا مات، فالله هو الوكيل. المهم أن تأخذ الأمور مجراها السليم. وهكذا أرغمت غريمال على توقيع عقد باستلام الصبي، كما وقعت بدورها على وصل مالي باستلام خمسة عشر فرنكا عمولة واتخذت طريقها إلى البيت في شارع دو شارون دون أدنى شعور بالذنب، بل العكس، لم تعتقد أنها أحسنت صنيعاً فحسب، بل وأقامت عدلاً، فبقاء طفل لا يدفع عنه أحد في عهدتها يثقل بالضرورة على الأطفال الآخرين وقد يثقل عليها أيضاً، وربما أضر بمستقبل الأطفال الآخرين وقد يضرّ بمستقبلها أيضاً، أي بموتها الخصوصي، المغطى عليه، الذي كان الشيء الوحيد الذي تشتهيه في حياتها.

ولأن مدام غايار تترك القصة في هذا المكان ولن نصادفها في

المستقبل أيضاً، فلا ضير أن نصف موتها ببضع جمل. بلغت المدام لتعاستها، ورغم موتها منذ الطفولة، سناً عتياً. تخلت عن مهنتها عام ١٧٨٢ وقد بلغت السبعين، أمنت، كما خططت، راتباً تقاعدياً. اقتعدت بيتها وانتظرت الموت. بيد أن الموت لم يأتِ. وعوضاً عنه حدث شيء لم يحسب له إنسان في هذه الدنيا حساباً، شيء لم يسبق له مثيل في البلاد. قامت ثورة، أي انقلاب سريع في كل العلاقات الاجتماعية، الأخلاقية والروحية. في البدء لم تظهر الثورة الكريهة أثراً على مصير مدام غايار الشخصي. من ثم، كانت قد بلغت الثمانين، أعلن فجأة أن مانح الراتب التقاعدي هاجر البلاد، أن أملاكه صودرت وبيعت في المزاد إلى مصنع للبناطيل. بدا لوهلة أنه لن يكون لهذا التغير أيضاً عواقب وخيمة على مدام غايار، فقد استمر صانع البناطيل في دفع راتب التقاعد في مواعيده المحددة. لكن جاء اليوم الذي لم تستلم فيه نقودها بشكل عملة معدنية صلبة، إنما بهيئة وريقات مطبوعة، وبذلك لاحت بداية نهايتها المالية. بعد مرور سنتين لم يعد الراتب يكفي لدفع ثمن الحطب، فوجدت المدام نفسها مضطرة إلى بيع منزلها بثمن بخس، فقد تواجد فجأة مئات من الناس يريدون أيضاً أن يبيعوا منازلهم. ومرة أخرى حصلت تعويضاً عن منزلها على تلك الوريقات التافهة، ومرة أخرى لم يعد لها قيمة تذكر بعد عامين. وفي العام ١٧٩٧، عندما دنت من التسعين، فقدت كل ثروتها التي لملمتها في العمل الدنيوي الشاق وقطنت حجرة صغيرة مؤثثة في شارع دي كوكيه. وهنا، وبعدما تأخر عشر سنين، عشرين سنة، أتاها الموت وجاء في هيئة سرطان مزمن أخذ بخناق المدام وسلبها الشهية أولاً ومن ثم الصوت، بحيث لم تستطع الاعتراض بكلمة واحدة، عندما نقلت إلى «أوتيل ديو». وهناك وضعت في الصالة ذاتها، التي سبق لزوجها أن مات فيها، المسكونة بمئات

المرضى مرضاً مميتاً، دست في سرير مشترك مع خمس إناث غريبات كل الغرابة، متلاصقات، وتركت هناك ثلاثة أسابيع طوال لتموت موتاً بادياً لكل العيان. ثم خيط عليها كيس ورميت في نقالة مع خمسين جثة أخرى في الساعة الخامسة فجراً وأخذت في الطنين الخافت لجرس أبله إلى مقبرة كلامارت المؤسسة حديثاً، على مبعدة ميل عن بوابات المدينة. ورقدت رقدتها الأخيرة في قبر جماعي تحت طبقة ثخينة من الكلس الصلب.

حدث هذا عام ١٧٩٩، والحمد لله أن المدام لم تكن تدري شيئاً عن المصير المحدق بها عندما مضت في ذلك اليوم من عام ١٧٤٧ إلى البيت تاركة الغلام غرينوي وقصّتنا، وإلا لفقدت إيمانها بالعدالة، وتالياً بالقيمة الوحيدة التي أدركتها من الحياة.

٦

منذ النظرة الأولى التي ألقاها على غريمال، بل من النفس الأول الذي اشتمه من هالة الروائح التي يرسلها، عرف غرينوي فيه رجلا قد يضربه حتى الموت لأصغر خطأ يرتكبه. وأدرك أن قيمة حياته لا تتجاوز قيمة العمل الذي يؤديه، وأن كل معنى حياته يكمن في الفائدة التي يجنيها منه غريمال. وهكذا انكمش غرينوي دون أن يبدي أي محاولة للتمرد، انطوى على نفسه يوما إثر الآخر معلباً فيها كل عناده وجموحه ولم يستغلهما إلا ليتجاوز بجلد القراد العصر الجليدي القادم عليه، جلفاً، قنوعاً، لا يكاد يحس به أحد، يحفظ بصيص الأمل على شعلة ضعيفة، غير أنها مصونة. كان مثالاً للين، للاكتفاء والتوق إلى العمل، يطيع الأوامر حرفياً ويتناول مع الطعام الولع ويسلم قياده مساء ليحجز في حجرة خشبية بنيت بجوار الورشة، يحتفظ فيها بعدة العمل والجلود النيئة المملحة، حيث ينام على الأرض الصلبة. كان يعمل طوال اليوم، ما دام منيراً، ثماني ساعات شتاءً، وصيفاً أربع عشرة، خمس عشرة، ست عشرة ساعة يزيل اللحم عن الجلود العطنة برائحة لا تطاق، ينقعها، ينتف منها الشعر، يبيضها بالجير، يرققها بالقلويات، يدكها، يدبغها بالمواد الحارقة، يفلق الحطب، يقشر اللحاء عن خشب البتولا والطقسوس، ينزل إلى حفر العطان التي تبعث رائحة حازرة، يراكم الجلود واللحاء فوق بعضها البعض، كما يأمره الصناع، ينثر عليها المرارات المسحوقة، يغطي أكوام الحطب المفزعة بأغصان الكستناء البري ويهل عليها التراب، حيث عليه أن ينزل بعد سنوات ليزيحه ويرفع

الجيف المحنطة من قبورها لتصبح جلودا مدبوغة. وإذا لم يطمر جلوداً أو يرفعها، كان ينقل الماء. شهوراً وشهوراً ينقل الماء من النهر حاملاً سطلين، مئات من السطول يومياً، فالمهنة تتطلب كميات هائلة من الماء للغسيل، للتنعيم، للسمط، للصبغ. طوال شهور لا تبقى في جسده خلية جافة من حمل الماء. كانت ثيابه تقطر مساء وجلده متغضنا ومترهلاً كمساحة جلدية.

أصيب بعد سنة من ذلك الوجود الحيواني، أكثر مما هو إنساني، بالجمرة الخبيثة، المرض الذي يودي عادة بالحياة إلى التهلكة، فأهمله غريمال وبدأ، ببعض من الحسرة، يبحث عن بديل له، فلم يسبق له أن وجد عاملاً قنوعاً ومنتجاً مثله. لكن وخلافاً لكل التوقعات تعافى غرينوي من مرضه، الذي لم يخلف فيه إلا ندوب الخراجات السود الضخمة خلف الأذنين وعلى الرقبة والخدين، والتي شوهته وجعلته أقبح بكثير مما كان. كما تبقى له، وهذه ميزة لا تدانى، حصانة ضد الجمرة الخبيثة، بحيث صار في وسعه تقشير الجلود بيدين مشققتين وداميتين، دون خطر الإصابة بالمرض من جديد، وبهذا لم يتميز عن الصناع والمساعدين فحسب، بل وعن خلفاء محتملين له. ولأنه لم يعد في الإمكان الاستعاضة عنه بسهولة، صعدت قيمة عمله، وبذلك قيمة حياته. فجأة لم يعد عليه أن ينام على الأرض الصلبة، بل سمح له ببناء سرير خشبي في مخزن الخشب، حصل على قش ينثره عليه وغطاء خاص. لم يعد الباب يسد عليه أثناء النوم وصار غذاؤه أكثر وأفضل، كما لم يعد غريمال يحتفظ به كأي حيوان، بل كحيوان أليف مفيد.

وعندما بلغ الثانية عشرة منحه غريمال نصف يوم الأحد عطلة وفي الثالثة عشرة سمح له أن يقضي ساعة كاملة في الخارج طوال أيام الأسبوع بعد العمل، ليفعل ما يشاء. لقد انتصر، فقد عاش. وغنم

ذريرة من الحرية تكفيه للاستمرار في الحياة. ولى زمن السبات الشتوي. بدا القراد غرينوي بالحراك من جديد. تنسم نسيم الصباح واستولت عليه الرغبة في الاصطياد وشرعت له أوسع مجالات الرائحة في العالم أبوابها، شرعت له باريس أبوابها.

٧

باريس جنّة التنابل، والأحياء القريبة من «سان جاك دو لا بوشري» و«سان أوتاش» سدرة منتهاها. في الأزقة المجاورة لشارع سانت دنيس وشارع سان مارتان كان الناس يعيشون متزاحمين، البيوت تتلاصق ببعضها، مرتفعة خمسة، ستة طوابق، بحيث لا ترى الشمس، والهواء في القاع كالهواء في القنوات الرطبة والروائح متصلبة. روائح البشر تمتزج بروائح الحيوان، نتن الطعام بنتن الأمراض، رائحة الماء بروائح الحجر والرماد والجلود، رائحة الصابون برائحة الخبز الطازج والبيض المسلوق في الخل، رائحة المعكرونة برائحة النحاس المبيض، روائح المراهم والبيرة والدموع، روائح الدهون والقش الرطب والجاف. الآلاف والآلاف من الروائح تشكل عصيدة خفية تملأ شعاب الأزقة ولا تتطير فوق السطوح إلا نادراً، وأما على الأرض فهي لا تتطير قط. لم يعد البشر يشمون في تلك العصيدة رائحة استثنائية، فقد استخلصت منهم وتشربوا بها تشرّباً. كانت الهواء الذي يتنفسونه وبه يحيون. كانت مثل ثياب دافئة طال لباسها ولم يعودوا يشمونها أو يشعرون بها على جلده. بيد أن غرينوي شم كل شيء وكأنه يشمه للمرة الأولى ولم يشم خليط الروائح في مجموعه، إنما حلله في ذاته إلى أصغر وأعمق أجزائه وجزيئاته. حلت أنفه القوية كبة العطن والنتن إلى خيوط منفردة من الروائح الأساسية، التي لا يمكن تفكيكها بعد وكانت سعادته غامرة في غزل تلك الخيوط ونسجها.

غالباً ما توقف مستنداً إلى حائط منزل، أو منحشراً في زاوية معتمة

بعينين مغلقتين وفم فاغر ومنخرين منتفخين، ساكناً كسمك الكركي في ماء عميق، واسع، متريث. وإذا لوح نسيم بطرف خيط رقيق من رائحة ما، شم هذه الرائحة المنفردة، تمسك بها، شدها إليه واحتفظ بها في ذاته إلى الأبد. قد تكون رائحة معروفة أو ضرباً من ضروبها، قد تكون رائحة جديدة كل الجدة على حاسة شمه، بصرف النظر عن الرؤية، كرائحةِ الحرير المكوي مثلاً، رائحة شاي خاص من الصعتر البري، رائحة ديباج مطرز بالفضة، رائحة فلين زجاجة نبيذ نادر، رائحة مشط من درع السلحفاة. كان غرينوي يلاحق الروائح المجهولة منه، يتصيدها بتوق وصبر صياد سمك ويجمعها في ذاته.

فإذا تشبع من العصيدة السميكة في الأزقة، مضى إلى مجال أرحب، حيث الروائح أرق، تختلط بالريح وتتناثر شبيهة بالعطور، مثلاً في ساحة الأروقة، حيث يتابع النهار حياته مساء في الروائح، غير الجلية، لكن البادية وكأن الباعة ما زالوا يدبون في الزحام، كأن سلال الخضار والبيض ما زالت معبأة على آخرها، البراميل ما زالت مليئة بالنبيذ والخل، الأكياس بالتوابل والبطاطا والطحين والسحارات بالبراغي والمسامير، طاولات السمك، الطاولات مليئة بالأقمشة والصحاف والنعال، ومئات الأشياء الأخرى التي بيعت أثناء النهار. . كأن كل الغدو والمجيء ما زال حاضراً بكل ذريراته في الهواء الذي خلفه وراءه. وغرينوي يرى كل السوق، إذا أمكن القول، شمياً، ويشمّه بقوة أكثر مما يراه البعض بالعين، فقد احتفظ به في حواسه واستشعره لهذا بطريقة أسمى، استشعره جوهراً، روح شيء كان ولم تشوش عليه النعوت المعتادة للحاضر. كأن الضجيج، كأن الوهج، كأن اكتظاظ لبشر ما زالوا قائمين. أو مضى إلى المكان الذي دقّت فيه عنق أمه، إلى ساحة دو غريف، التي تلعق النهر كلسان طويل. هناك كانت الزوارق ملقاة

على الضفة أو مشدودة إلى القوائم وتفوح بروائح الفحم والحبوب والقش والحبال البليلة.

ومن الغرب كان يهبّ تيار هوائي عريض من الدرب الوحيدة، التي يشقها النهر عبر المدينة، حاملاً روائح البرد من مروج نويي، من الغابات الممتدة بين سان جرمان وفرساي، من المدن القصية على غرار روين وكاين، بل وأحياناً من البحر. وللبحر رائحة شراع نفخته الريح، وقعت في شبكته روائح الماء والملح وشمس باردة. كانت رائحة البحر بسيطة، إلا انها في الآن ذاته شاملة وفريدة، بحيث تردد غرينوي في تفكيكها إلى السمكية، الملحية، المائية، الطحلبية، الزاهية والخ، وفضل أن يترك رائحة البحر في تركيب واحد واحتفظ بها كوحدة في ذاكرته واستمتع بها غير مفككة. أعجبته رائحة البحر أيما إعجاب، فتمنى أن يحصل عليها نقية وصرفة بكميات كبيرة بحيث يغرق فيها. وعندما علم لاحقاً أن البحر واسع جداً، يمكن الابحار فيه بسفينة أياما وأياما دون أن يرى البر، صارت أقصى أحلامه أن يكون على هكذا سفينة، عاليا في السلة على السارية الأمامية وينطلق عبر رائحة البحر اللانهائية، التي لم تكن رائحة، إنما نفساً، زفيراً، منتهى كل الروائح ويذوب فرحة في ذلك النفس. إلا إنه لن يبلغ هذا المدى في حياته، فغرينوي الذي وقف في ساحة دو غريف على الضفة، وشهق مزقة من هواء البحر وزفرها عدة مرات، تناولها بأنفه، لن يرى في حياته البحر، البحر الحقيقي، الاوقيانوس الشاسع في الغرب ولن ينصهر قط في تلك الرائحة.

للحال انتهى من تشمم الحي بين سان أوتاش ونزل «دو لا في» تشمماً لن يخطئ بعده في تلمس طريقه في الحي في الظلام الدامس، وبذلك راح يبحث عن مجال أرحب للصيد وبدأ بالغرب، نحو فوبورغ

سان هونوريه ثم شارع سان أنطوان حتى الباستيل، إلى أن امتد مجاله إلى الناحية الأخرى من النهر، إلى حي السوربون وفوبورغ سان جرمان، حيث يقطن الأغنياء. من خلف قضبان البوابات كانت تفوح روائح جلود العربات والمسحوق في الشعر المستعار للخدم الرفيعين، ومن فوق الأسوار كان يأتي من الحدائق شذا زهيرات الرتم، الورود وشجيرات الزيتون المشذبة تواً. وهنا شم غرينوي العطر بمعناه الحقيقي لأول مرة، كماء الورد أو ماء الخزامى، اللذين يخلطان بمياه نوافير الحدائق في المناسبات الرسمية. لكنه شم أيضاً روائح أكثر تعقيداً وأثمن مثل خضاب المسك ممزوجاً بزيت النارنج والناردين، النرجس الأسلي، الياسمين أو القرفة، التي يخلفها الحوذيون وراءهم كوشاح سميك. قيد هذه العطور كما يقيد روائح دنيوية، بفضول لكن دون أي إكبار خاص. ورغم أنه لاحظ أن الغاية من العطر هي أثره الجذاب والمثير وتعرف طيب الأرواح المنفردة التي يستخلص منها، إلا أنها بدت له في كليتها فظة ومضمخة، مخلوطة خلطاً أكثر مما هي مركبة تركيباً متجانساً وأدرك أن بوسعه إنتاج روائح أكثر طيباً، إذا توافرت له المواد الأولية ذاتها.

كان يعرف الكثير من تلك المواد الأولية من دكاكين السوق التي تبيع الورود والتوابل، وبعضها كان جديداً عليه، وهذه استخلصها من خلائط الروائح واحتفظ بها في ذاكرته دون أسماء، كالعنبر، والزباد، وزهر السمكة، خشب الصندل، البرغموت، نجيل الهند، المر، الراتنج، حشيشة الدينار، ذهب القندس... ولم يكن ينتقي الروائح، لم يميز بين ما يصفه الناس برائحة زكية ورائحة كريهة. كان طماعاً. كانت غاية رحلات الاصطياد لديه أن يملك جميع ما في العالم من روائح وشرطه الوحيد أن تكون الرائحة جديدة. كانت رائحة جواد متعرق تعادل عنده

رائحة براعم الورد المتفتقة، نتن الدمل الواخز لا يقل قيمة عنده من رائحة لحم العجل المشوي المنبعثة من مطابخ النبلاء. كما لم يكن لمطبخ الروائح التوفيقي في خياله، الذي يركب فيه تراكيب عطرية جديدة، مبدأ جمالي. فهذه كانت كائنات غريبة يبتدعها ويعود ليحطمها، كطفل يلعب بقطع البناء، الطفل المخترع والمدمّر، دون مبدأ إبداعي واضح.

٨

في الأول من أيلول ١٧٥٣، في عيد التاج، قامت بلدية باريس بعرض للألعاب النارية على جسر رويال ورغم أن الحفل لم يكن فخماً مثل عرض الألعاب النارية بمناسبة زواج الملك أو الحفل الرائع بمناسبة ذكرى ميلاد ولي العهد، إلا أنه على كل حال كان يثير الدهشة. ركبت دواليب شمس ذهبية على سواري السفن وبعثت ما يسمى ثيران النار مطراً من النجوم الحارقة في النهر، وبينما المفرقعات تفرقع في كل مكان على الأرض مصدرة ضجيجا مدويا، صعدت الصواريخ في السماء ورسمت زنابق بيضاً في قبته السوداء. تجمعت الآلاف المؤلفة على الجسور والمراسي على ضفتي النهر ورافقت الضوضاء بصرخات الإعجاب وحتى هتافات عاش الملك رغم أنه صعد عرشه قبل ٣٨ عاماً وتخطى النهاية الحدية العظمى لشعبيته منذ زمن بعيد. فللألعاب النارية قدرة قادر.

وقف غرينوي صامتاً في ظل «بافيون دو لا فلور» على الضفة اليمنى قبالة جسر رويال. لم يصفق، لم ينظر عندما كانت الصواريخ تنطلق، فقد جاء لأنه حسب الحساب لالتقاط روائح جديدة، إلا أنه تيقن في الحال أن الألعاب النارية لا تقدم روائح، فكل ما يومض ويشع ويفرقع ويصفر بتبذير مبالغ فيه، لا يترك في أفضل الأحوال إلا خلطة مملة من الكبريت والزيت وملح البارود.

كان على وشك أن يترك الحفل المملّ ليمضي إلى البيت مارّاً باللوفر، عندما حملت له الريح شيئاً ضئيلاً، لا يكاد يستشعر، شذرة،

ذريرة عبير، لا بل أقل، طيف عبير، شعوراً بالطيب أكثر مما هو طيب حقيقي وفي الآن ذاته الشعور الداخلي الواثق بشيء لم يشم من قبل. عاد إلى الجدار، أغمض عينيه ونفخ المنخرين. كانت النفحة على درجة من الرقة والظرف، بحيث لم يقدر على الإمساك بطرفها. كانت تنفلت كلما حاول ذلك، يغطي عليها دخان البارود، تحاصرها أبخرة الناس، تمزقها وتهرسها آلاف الروائح الأخرى، التي تطلقها المدينة. إلا أنها عادت بغتة، مجرد جذاذة، عادت لثانية واحدة، تنويهاً عن رائحة... ثم اختفت كما جاءت. تعذب غرينوي أيما عذاب. للمرة الأولى في حياته لم تهن نفسه الطماعة، بل إن قلبه كان يقاسي. وسوس له أن هذا الطيب هو المدخل إلى نظام كل العطور الأخرى، لن يفهم المرء شيئاً من العطور إذا لم يفهم هذا وهو، غرينوي، ستضيع حياته هباء منثوراً إن لم يتمكن من امتلاك هذا العطر. أراد أن يملكه لا لمجرد الجشع إلى الملك، إنما ليسكن روحه.

كاد أن يغمى عليه من الهيجان، فهو لم يستدل ولا حتى الجهة التي يأتي منها الطيّب. كانت فواصل موسيقاه تدوم بضع دقائق أحياناً قبل أن تهب عليه مزقة منه، وفي هذه البرهات كان قلبه يقف هلعاً، خشية أن يكون قد خسر أثر الطيب إلى الأبد. وأخيراً تمكن من الخلاص في إيمانه اليائس بأن العبير يأتي من الضفة الأخرى، من مكان ما في الجنوب الشرقي.

حل وثاقه من سور «بافيون دو لا فلور» واندفع في الزحام وشق دربه عبر الجسر. كان يتوقف كل عدة خطوات، يمط رأسه منتصباً على أصابع قدميه كي يتشمم عبر رؤوس الناس. لم تصله الرائحة، بسبب الانفعال والتوتر، ثم شمّ أخيراً شبحاً من الطيب، امتصه، وجد رائحته أشد من قبل، فتهلل عالماً أنه يسلك السبيل القويم، غرق في الجمع

البشري، تسلل بين المحملقين الفضوليين وعارضي الألعاب النارية، الذين يمسكون بمشاعلهم قريبة من فتائل الصواريخ وفقد عطره في الدخان الحارق للبارود، فشعر بالفزع ودفع الناس وركلهم وتابع مسلكه، وبعد دقائق لا نهائية من العذاب وصل الضفة الأخرى، وصل نزل دوميه، مرسى مالاكه، مصب شارع دو سين وتوقف. جمع قواه وتشمم. لقد وجدها، لقد وجدها. تشبث بها. كشريطة الشعر كانت الرائحة تمتد عبر شارع دو سين، جلية بينة، إلا أنها ما زالت رقيقة جداً وناعمة جداً. شعر غرينوي بوجيب قلبه وكان يعلم أنه ليس المشي والإجهاد ما يجعله يخفق، بل العجز المضطرب في حضور الرائحة. حاول أن يتذكر شبيهاً لها واضطر لأن يلقي كل التشابيه في قمامة ذاكرته. للرائحة طراوة، بيد أنها ليست طراوة الأترج أو الكباد، ليست طراوة المر أو العود أو النعناع البري أو البتولا أو الكافور أو إبر الصنوبر، وليست طراوة مطر أيار أو رائحة الصقيع أو مياه الينابيع... لا، ولها في الآن عينه دفء، بيد أنه ليس دفء البرغموت، السرو، أو المسك، ليست كالياسمين والنرجس، ليست كخشب الورد ولا كالسوسن الأسلي... كانت الرائحة مزيجاً من الاثنين، من الطيار والثقيل، لا لم تكن مزيجاً، بل وحدة، علاوة عليه وحدة خفيفة وعاجزة وبالآن ذاته راسخة وخصبة، مثل قطعة من الحرير الهفهاف البراق... وفي الآن ذاته ليست كالحرير، إنما كالحليب المحلى بالعسل يغطس فيه البسكويت، ما لا يمكن تصوره إطلاقاً. مزيج من الحليب والحرير! الطيب غير معقول، لا يوصف، لا يمكن وضعه في خانة معينة، لا يمكن وجوده أصلاً، إلا أنه موجود ببداهة فاخرة. لاحقه غرينوي بقلب مضطرب منقبض، فقد كان يعلم أنه ليس هو من يتتبع الطيب، إنما الطيب أسره ويشده إليه طاغياً.

صعد في شارع دو سين. لا أحد في الشارع، البيوت خالية وساكنة، فقد كان الناس في الأسفل يراقبون الألعاب النارية. لم تعد الروائح البشرية العجول تزعج ولا نتن البارود اللاذع. كان للشارع عبق الروائح العادية مثل الماء، البراز، الجرذان وفضلات الخضار، بيد أن الشريطة تتموج فوق الروائح ناعمة وواضحة، وتقود غرينوي. بعد بضع خطوات ابتلعت البنايات العالية ضوء سماء الليل الخافت وتابع غرينوي مسيره في الظلام. لم يكن بحاجة للنظر، فالرائحة تأخذ بيده في سبيل ممهد.

انعطف بعد خمسين متراً في شارع دو ماريه، الزقاق الأحلك والذي لا يزيد عرضه على ذراعين. العجيب أن الطيب لم يقوَ، إنما غدا أزكى. وبذلك، عبر زكاه الذي يزداد، كانت جاذبيته تشتد أكثر فأكثر. سار غرينوي سيراً لا إرادياً وفي ذلك المكان شده الطيب النقي بقوة نحو اليمين، نحو وسط جدار أحد المنازل. انفتح معبر واطئ يقود إلى فناء خلفي. وكأنه يسير في الحلم عبر غرينوي الردهة، عبر الفناء الخلفي، انعطف على زاوية، دخل فناء خلفياً أصغر، وهنا رأى بصيصاً من النور. لم يكن المكان يتعدى أكثر من عدة خطوات على الأربع. سطح خشبي مائل ينبثق من الجدار وعلى طاولة تحته تقف شمعة. وإلى الطاولة تجلس صبية وتنظف البرقوق الأصفر. كانت تتناول الثمار من سطل على يسارها، تشقها وتزيل منها النوى بسكين وتتركها لتسقط في سطل. ربما كانت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. ظل غرينوي واقفاً وعرف للحال ما هو منبع الطيب الذي شمه من مسافة نصف ميل على الضفة الأخرى للنهر. لم يكن المنبع الفناء الخلفي القذر، لم يكن البرقوق الأصفر، إنما الصبية.

اختلطت عليه الأمور لحظة حتى ظن فعلاً أنه لم ير في حياته أجمل

من الصبية، مع أنه لم ير إلا طيفها من الخلف في ضوء الشمعة. كان قصده طبعاً أنه لم يشم في حياته شيئاً على جمالها. لكن ولأنه يعرف روائح البشر، آلافاً من الروائح البشرية، روائح الرجال والنساء والأطفال، لم يصدق أن ريحا رائعة كهذا قد تنبعث من إنسان، فعادة ما يكون للبشر روائح باهتة أو بائسة. للأطفال رائحة موحشة، للرجال رائحة البول، رائحة العرق النفاذة والجبن وللنساء رائحة الشحم الزنخ والسمك الفاسد. البشر لا يفوحون إلا بروائح تافهة، مقززة... هكذا حدث أن غرينوي، وللمرة الأولى في حياته، لم يثق بأنفه واضطر لاستخدام العينين معونة على الإيمان بما يشم. طبعاً لم يدم اضطراب الحواس طويلاً، لم تكن إلا لحظة واحدة احتاج فيها للوثوق البصري ليغرق بعدها أعمق فأعمق في مدارك حاسة الشم. وشم أنها إنسان، شم عرق إبطيها، دهن شعرها، رائحة السمك النابعة من فرجها وشم بمتعة رفيعة. كان لعرقها عبق هواء البحر، لدهن شعرها عبق زيت الجوز، لفرجها عبق باقة من زنبق الماء، لجلدها رائحة زهر المشمش... والربط بين كل المركبات يعطي عطراً غنياً، متوازناً، ساحراً. هباء منثوراً ذهب كل ما شمه غرينوي من الطيوب حتى وقوفه هناك، هباء كل ما خلقه في باطنه من مركبات الروائح. فقدت آلاف العطور قيمتها أمام طيب الصبية، فهذا كان الأس الأسمى، الذي يجب على العطور أن تتخذه مثالاً. كان الجمال بكل نقائه ورونقه.

تأكد غرينوي أن لا معنى لحياته دون امتلاك هذا الطيب. عليه أن يعرف دقائقه تفصيلاً تفصيلاً حتى في أرق الفروع، فلن يكفيه مجرد تذكره مجتمعاً. أراد أن يعصر العطر الإلهي في فوضى روحه السوداء بختم مسكوك، أن يدرسه دراسة عميقة وأن لا يفكر، لا يحيا، لا يشم إلا بناء على البنية الداخلية لهذه التعويذة السحرية. تقدم متريّثاً نحو

الصبية، أقرب فأقرب، دخل تحت السقف الخشبي ووقف خلفها بخطوة واحدة. أما هي فلم تسمعه.

كان شعرها أحمر وفستانها رماديا، لا أكمام له. كانت ذراعاها بالغتا البياض ويداها مصفرتان من عصارة البرقوق الأصفر. انحنى غرينوي فوقها وامتص عبقها الصافي كما يتصاعد من رقبتها، من شعرها، من فتحة صدرها وتركه ليتغلغل فيه كأنما يحمله نسيم عليل. لم يشعر قبلها بمثل ذلك الانتعاش قط، إلا أن الصبية شعرت بالبرد.

لم ترَ غرينوي، لكنها ذعرت، اقشعرت، كما يلم بأحدهم خوف منسي مباغت. شعرت هواء بارداً يهب على ظهرها، كأن أحدهم فتح باباً يؤدي إلى قبو بارد هائل. تركت السكين جانباً، عقدت يديها على صدرها والتفتت.

تجمدت هلعاً عندما شاهدته، فبقي له الكثير من الوقت ليضع يديه في خناقها. لم تحاول الصياح، لم تتحرك، لم تقم بأي حركة دفاع عن النفس. وهو من ناحيته لم ينظر إليها، لم ير وجهها البض الذي يغطيه النمش، لم ير فمها الأحمر، عينيها الخضراوين المتلألئتين، فقد شد عينيه وهو يخنقها وكان كل همه ألا يخسر ذريرة واحدة من عطرها.

عندما ماتت، وضعها على الأرض وسط النوى. مزق فستانها، فتدفق سيل الطيب طوفاناً أغرقه بأريجها. ألقى وجهه على جلدها ومرره بمنخرين منتفختين على جسدها صاعداً من البطن إلى الصدر، إلى العنق، إلى الوجه ومرّره بين شعرها، ثم رجع إلى البطن لينزل منه إلى الفرج، إلى الفخذين، إلى الساقين الأبيضين. امتص رحيقها من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين وجمع آخر آثار العبير من الذقن ومن ثنايا الذراعين. وإذ أذبلها شماً، جلس القرفصاء بجانبها ليستجمع قواه، فقد

تعبأ بها ولما لم يشأ أن يضيع شيئاً من رائحتها، كان عليه أن يسد منافذه الباطنية، ثم نهض وأطفأ الشمعة.

في هذه الأثناء عاد أوائل العائدين مغنين ومعيشين الملك إلى شارع دو سين. تشمم غرينوي طريقه في الظلام إلى الزقاق وشارع دو بوتيت أوغستين، الذي يقود بموازاة شارع دو سين إلى النهر. بعد قليل اكتشفت الجثة، ارتفعت الصيحات، اشعلت المشاعل، جاء العسس. بيد أن غرينوي كان قد صار على الضفة الأخرى منذ زمن بعيد.

في تلك الليلة بدا له الكوخ الخشبي قصراً وتخته الخشبي عرشاً ملكياً. لم يدرك قط ما هي السعادة، كل ما عرفه هي بعض الحالات من الرضا العميق، بيد أنه ارتجف فرحاً في ليلته تلك ولم يتمكن من النوم بسبب الغبطة الغامرة. شعر كأنه يولد للمرة الثانية. لا، ليس للمرة الثانية، للمرة الأولى، فقد وُجِد حتذاك وجوداً حيوانياً في عرفان غامض عن ذاته. بذلك اليوم بدا له وكأنه عرف أخيراً من يكون، عرف أنه نابغة وأن لحياته معنى وغاية وهدف وقدر سام، هو أن يغير عالم العطور وأنه هو الوحيد الذي يملك وسائل هذا التغيير، أنفه المصطفى، ذاكرته الخيالية والأهم من كل هذا، عطر الصبية من شارع دي ماريه الدامغ، والذي يحوي في صيغته كل ما يصنع عبيراً جيداً، عطراً له من الرقة والقوة والمداومة والتنوع والجمال القاتل، ما لا يمكن مقاومته. وجد بوصلة حياته المقبلة، ومثله مثل جميع النوابغ السفلة، الذين يضع لهم حدث موضوعي سبيلاً ممهداً في الفوضى اللولبية لأرواحهم، لن يخرج غرينوي عن ذلك المنهج الذي تعرف فيه جهة لمصيره. اتضح له لماذا تعلق بأذناب الحياة بكل القوة والجموح، فهو سيكون خالقاً للعطور. وليس أي خالق، إنما أعظم صانع للعطور في كل زمان وكل مكان.

يقظاً ومن ثم حالماً، قلب في الليلة ذاتها خرائب ذاكرته الهائلة، تفحص الملايين من قطع بناء الروائح ونظمها ونسقها: الجيد مع الجيد، السيئ مع السيئ، الناعم مع الناعم والخشن مع الخشن، النتن مع النتن والعنبري مع العنبري. وخلال الأسبوع التالي صار النسق أدق فأدق وجدول الطيوب أغنى وأكثر تبايناً والهرمية أكثر وضوحاً. وللحال تمكّن من تشييد أولى بنايات الروائح على المخطط: منازل، أسوار، أدراج، أبراج، قباء، غرف، مخادع سرّية.... حصن داخلي للتراكيب العطرية الرائعة يتوسع يومياً، يتحسن وينحو نحو الكمال. وسواء عليه إن بدأت هذه الروعة بجريمة قتل، هذا إن كان يعي جريمته. فلم يتذكر صورة الصبية من شارع دي ماريه، وجهها، جسدها، فقد حفظ أفضل ما فيها واستولى عليه، ألا وهو أسّ عطرها.

٩

في ذلك الأوان كان في باريس أكثر من دزينة من العطارين. ستة منهم يعيشون على الضفة اليمنى وستة على الضفة اليسرى. وواحد في الوسط تماماً، على جسر «أو شانج» الذي يربط الضفة اليمنى مع جزيرة «دو لا سيته». على جانبي الجسر شيدت المباني متراصة بحيث لا يمكن للمرء رؤية النهر أثناء السير عليه، بل يتصور أنه يمشي في شارع عادي، مبني على أساسات قوية، وعلاوة عليه شارع فخم. والحق أن جسر «أو شانج» كان أبهى أسواق المدينة، ففيه أشهر المحلات، فيه الصاغة وصانعو المفروشات، فيه أفضل صناع الشعر المستعار والحقائب، صانعو الكلسات الرقيقة والملابس الداخلية للسيدات، صانعو أطر الصور، تجار أحذية الفرسان، مطرزو الكتّافيات، سباكو الأزرار الذهبية والصيارفة، وفيه أيضاً ورشة ومنزل العطار وصانع القفازات «جوزيبي بالديني». على واجهة محله تمتد مظلة فخمة ملونة بالأخضر بجانبها شعار «بالديني» الذهبي، وهو قارورة ذهبية يخرج منها طاووس من ورود ذهبية وأمام الباب بساط أحمر يحمل بدوره شعار «بالديني» مطرزاً بخيوط من ذهب. فإذا فتح الباب يقرع ناقوس فارسي أنغامه ويبدأ مالكان حزينان فضيان بصب ماء البنفسج من منقاريهما في صحفة مذهبة، وللمالكين الحزينين أيضاً شكل شعار «بالديني».

خلف المنضدة الضخمة من خشب الزان الزاهي يقف «بالديني» ذاته، عجوزا ومتصلباً كعمود حجري، يحمل على رأسه شعراً مستعاراً نثر عليه مسحوق الفضة، في معطف موشى بالذهب، تحيط به سحابة

مرئية من ماء «فرانغيباني»، الذي يتضمخ به كل صباح وتخفي شخصه في القصي المضبب. كان يبدو في جموده شبحاً لذاته، ستبعث فيه الحياة حين يسكب المالكان الحزينان ماء البنفسج ويعزف الناقوس أنغامه، الأمر الذي لم يعد يحدث كثيراً، سيتراخى جسده، يصغر ويتلخبط يهرول من خلف المكتب بانحناءات مبالغة، سريعاً بحيث لا يمكن متابعة سحابة ماء «فرانغيباني» ويرجو الزبون الجلوس لعرض صفوة العطور ومواد التجميل.

كان في دكان «بالديني» الآلاف منها. تمتدّ من الروح الخالص، زيت الأزهار، الخضاب، المستخلصات، الإفرازات، البلاسم، الأصماغ، وسائر العقاقير الأخرى في مختلف الأشكال سائلة، شمعية أو مجففة، حتى مختلف دهون الشعر، المعاجين، المساحيق، الصوابين، المراهم، الصرر العطرية، شحوم الشعر، ملمعات اللحى، نقطة الخال ولصقات التجميل، حتى مياه الحمام، اللوسيون، الغسول، أملاح الاستنشاق، خل المراحيض وعدداً لا يحصى من العطور الحقيقية. بيد أن «بالديني» لم يكتف بمنتجات صناعة التجميل وحدها، فقد كان يطمح إلى أن يجمع في دكانه كل ما يفوح برائحة أو يمكن استغلاله في تصنيع العطور. وهكذا تواجد بجانب كرات التبخير، شموع التبخير وشرائط التبخير، مختلف التوابل من بذار اليانسون حتى خشب الأرز، الشربات، العرق الحلو، وعصير الفواكه، نبيذ من قبرص وملقا وزبيب وعسل. أنواع القهوة والشاي، فواكه مجففة ومربيات، تين، سكاكر، شوكولاتة، أبو الفرو، الأصف المخلل، الخيار والبصل وسمك التون المملح. ومن ثم شمع الأختام المعطر، ورق الرسائل المعطر، حبر الحب الفواح برائحة زيت الورد، محافظ من الجلد الإسباني، حافظات الريش من خشب الصندل، صناديق وسحارات من

خشب الأرز، طاسات وصحون لأوراق الأزهار، آنية البخور من النحاس الأصفر، قوارير وبوتقات كريستالية مع سدادات صقيلة من الكهرمان، قفازات فواحة، مناديل، علاقات الإبر المحشوة بوريقات جوز الطيب وورق جدران مبخر بالمسك، يكفي لتعطير غرفة مئة عام.

طبعاً لم يكن لكل هذه البضاعة مكان في الدكان الفاخر على الشارع، بالأحرى على الجسر. ولعدم توافر قبو، وجب تحويل مخازن المنزل، بل والطابقين الأول والثاني وتقريباً غرف الطابق الأرضي المطلة على النهر، إلى مستودعات. وكانت نتيجة ذلك أن يفوح منزل آل بالديني بفوضى لا توصف من الروائح. ومهما كانت نوعية المنتجات راقية، فبالديني لم يشتر إلا النخب الأول، إلا أن رنينها العطري في جوقة، كان مثل أوركسترا فيها آلاف العازفين وكل منهم يعزف ما حلا له من الألحان. كانت أنوف بالديني وعمّاله منيعة على كل هذه الفوضى، مثلهم مثل قواد الاوركسترا الهرمين، ضعيفي السمع عموماً، وكذلك زوجه التي تعيش في الطابق الثالث وتناضل بمرارة في سبيله ضد اقتحام المستودعات، لم تعد تشعر بالروائح الكثيرة كرائحة مزعجة، بخلاف الزبون الذي يدخل دكان بالديني للمرة الأولى. فهذا تلطمه خلطة الروائح لطماً وتدوخه أو تهيجه بحسب بنيته الجسدية، إلا إنها في جميع الأحوال تربكه. ينسى السعاة ما جاؤوا لأجله، يفقد السادة المدججون أعصابهم ويتلعثمون، وتعاني بعض السيدات الهستيريا أو رهبة المكان، يفقدن الوعي ولا يستعدنه إلا بأقوى الأملاح المبخرة من زيت القرنفل والأمونياك وروح الكافور.

ولهذا فلم يكن من المستغرب أن يقل عدد المرات التي يقرع فيها الناقوس الفارسي على باب بالديني وعدد الدفقات التي يرسلها مالكا الحزين.

١٠

«شينييه»، صاح بالديني من خلف مكتبه، حيث ظل ساكناً سكون العمود الحجري ساعات طوال محدقاً في الباب: ضعوا الشعر المستعار على رأسكم، فظهر «شينييه»، معاون بالديني، الذي يصغره سناً إلا إنه بدوره عجوز هرم، من بين براميل زيت الزيتون وأفخر أنواع أفخاذ الخنزير المقددة من منطقة «بايون» المعلقة في السقف. وتقدم إلى القسم الأفخم من الدكان. سر شعره المستعار من جيب قفطانه ورماه على رأسه: ستخرجون، سيد بالديني؟ قال بالديني: لا سأخلو بنفسي عدة ساعات في مكتبي فوق وأرجو ألا يزعجني أحد. آه، أفهم، تخططون لتركيب عطر جديد؟. نعم نعم. لتعطير جلد اسباني لأجل الكونت فيرهامون. إنه يطالب بشيء جديد كلياً. يطالب بشيء مثل... مثل... أعتقد أن اسمه الحب والنفس ما يطالب به ويقال إن صانعه هو هذا ال... هذا الوغد من شارع آندريه ديزارت... هذا... هذا

شينييه: بيليسييه.

بالديني: نعم. بيليسييه. صحيح، هكذا هو اسم الوغد. الحب والنفس صنع بيليسييه. هل تعرفونه؟

شينييه: نعم، نعم. لا، لا. يشمه الناس في كل مكان. يشمّه الناس في كل زاوية. ولكن إذا أردتم رأيي، فهو غير جيد جداً. لا يمكن قياسه أبداً بما ستركبونه سيد بالديني.

بالديني: طبعاً لا.

شينييه: ورائحته عادية جداً، هذا العطر المسمى الحب والنفس.

بالديني: خسيسة.

شينييه: خسيسة ككل عطور بيليسييه. أعتقد أن فيه زيت الأترج.

بالديني: فعلاً؟! وماذا أيضاً؟

شينييه: ربما روح زهر البرتقال! وربما خضاب حصى اللبان، لكني غير واثق.

بالديني: أنا لا أبالي به أبداً.

شينييه: أكيد، أكيد.

بالديني: أنا لا يهمني ما غش به هذا الوغد بيليسييه عطره. لن أستلهم منه.

شينييه: معكم حق، مسيو بالديني.

بالديني: كما تعرفون، لا أسمح لأحد أن يلهمني. وكما تعرفون أخترع عطوري اختراعاً.

شينييه: أعرف مسيو.

بالديني: أستولدها من ذاتي.

شينييه: أعرف.

بالديني: كما أفكر أن أركب للكونت فيرهامون عطراً يصنع العجائب.

شينييه: أنا واثق من هذا، سيد بالديني.

بالديني: ستأخذون مكاني في الدكان. أحتاج الهدوء. خل كل شيء بعيداً عني، شينييه. . .

ثم جر ساقيه، متخلياً عن طبيعة التمثال، كما يمشي رجل في سنه،

منحنياً، بل كمن عانى عذاباً طويلاً. وصعد الدرج متريثاً إلى الطابق الأول حيث مكتبه.

اتخذ شينييه مكانه خلف الطاولة ووقفة معلمه وحملق في الباب. كان يعلم ما الذي سيجري خلال الساعات المقبلة: لا شيء في الدكان والكارثة المعتادة فوق، في مكتب بالديني. سيخلع بالديني قفطانه الأزرق المتشرب بماء فرانغيباني، سيجلس إلى طاولته وينتظر الوحي. لن يتنزل الوحي. سينهض متعجلاً إلى الخزانة، التي تحتوي مئات من زجاجات الاختبار ويخلط بعضها على التخمين. سيفشل المزيج. سيلعن بالديني. يفتح النافذة ويرمي محتوى الزجاجة في النهر ويجرب مزيجاً آخر. وهذا سيفشل بدوره. سيصرخ، يثور، ويبدأ بالنواح في الغرفة الفواحة بروائح مخدرة. سينزل إلى الأسفل بائساً حوالى الساعة السابعة مساء عَطِراً، يرتجف ويعول ويقول: شينييه، ما عندي أنف بعد، لا أستطيع استيلاد عطر، لن أستطيع تسليم الجلد الاسباني إلى الكونت فيرهامون، لقد ضعت، لقد مت في الداخل، أريد أن أموت، رجاء شينييه، ساعدوني لكي أموت. وسيقترح شينييه أن يرسل إلى بيليسييه من يشتري زجاجة من عطر الحب والنفس، سيوافق بالديني شرط ألا يسمع أحد بالفضيحة. سيقسم شينييه على ذلك وسيقومان ليلاً بتعطير الجلد الاسباني لأجل الكونت فيرهامون سراً. هكذا ستسير الأمور ولن تأخذ مساراً آخر. وكل ما يتمناه شينييه أن تصل المسرحية إلى نهايتها سريعاً. لم يعد بالديني عطاراً عظيماً. في ما مضى، في شبابه، قبل ثلاثين، أربعين سنة، ابتكر عطر زهرة الجنوب وعطر نبيذ بالديني الأنيقة، عطران فاخران فعلاً، يدين بكل ثروته لهما. بيد أنه هرم وأنهك ولم يعد يعرف موديلات العصر وأذواق الناس الجديدة. وحتى لو وفق ذات مرة في تركيبة ما، فإن عطره يكون خارج الموضة،

يكون بضاعة لا تباع، يزيدونها بعد عام عشرة أضعاف ويضيفونها إلى مياه البرك المتدفقة. تحسر عليه شينييه وتفحص وضع شعره المستعار على رأسه في المرآة. حسافة على بالديني السابق، حسافة على محله الجميل، فإنه سيودي به إلى التهلكة. وحسافة عليَّ، فحتى يودي به إلى التهلكة، أكون أنا صرت عجوزاً على استلامه.

١١

خلع جوزيبي بالديني قفطانه المعطّر، إلا أنه لم يخلعه استعداداً للعمل، بل لعادة قديمة فيه. لم يعد عبق ماء فراغيباني يزعجه خلال عملية التشمم، فقد صار رفيقاً له منذ عقود ولم يعد يشعر به. كما أنه أحكم إغلاق أبواب مكتبه لينعم بالهدوء، إلا انه لم يجلس إلى الطاولة ليغرق في لجة العمل وينتظر الوحي، فقد كان يعلم أفضل من شينييه بكثير أن الوحي لن يتنزل عليه، فلم يأته وحي أبداً. لقد هرم وأنهك، هذا صحيح، كما أنه لم يعد عطاراً عظيماً، لكنه لم يكن قط عطاراً عظيماً. لقد ورث عطر زهرة الجنوب من والده واشترى وصفة عطر بالدينيي الأنيقة من تاجر توابل جوال قادم من جنوا، وأما بقية عطوره فكانت خلائط معروفة. لم يخترع طوال عمره عطراً. كان يتقن تركيب العطور بعناية فائقة مثل طباخ قادر على تقديم أعظم الطبخات بالممارسة والوصفات الجيدة، دون أن يبتكر قط وجبة تحمل اسمه. لم يتظاهر بالديني بكل مظاهر الشعوذة من مختبر وتجارب وإلهام وتكتم، إلا لأنها من مواصفات معلم العطارة وصانع القفازات الجيد. العطار الحقيقي سيميائي يجترح المعجزات في أعين الناس. لم يعلم أحد غيره أن فنه مهنة مثل مئات المهن الأخرى وهذا العرفان كان محل اعتزازه وفخاره. لم يشأ قط أن يكون مبدعاً، فالإبداع عمل مشبوه لديه. إنه يعني خرق قاعدة ما. كما لم يفكر في أن يبتدع للكونت فيرهامون عطراً جديداً، كما أنه لن يجعل شينييه يتحايل عليه ليقنعه باقتناء زجاجة من عطر الحب والنفس، فقد سبقه وأمن لنفسه شيئاً منه. ها هو على الطاولة

أمام النافذة في قارورة بسدادة صقيلة. لقد اشتراه منذ عدة أيام. طبعاً لم يشتره بنفسه، فمن العسير عليه الذهاب شخصياً إلى بيليسييه وشراء علبة من عطره، لكنه اشتراه عبر وسيط، وهذا اشتراه بدوره من وسيط وهكذا. . . فالحذر مطلوب في هكذا أحوال. لم يكن بالديني يرغب في استخدام العطر في تعطير الجلد الاسباني، فهذه الكمية لن تكفيه. كان يضمر أمراً أخطر، كان ينوي نسخه.

النسخ ليس ممنوعاً وهو في أسوأ الأحوال أمر غير لائق. إن تقليد عطر من عطور المنافسين وتسويقه كمنتج ذاتي أمر على درجة عالية من عدم اللياقة، لكن الأنكى أن يضبط ويفتضح ولهذا يجب ألا يعرف شينييه، فشينييه ثرثار.

يا للحرج الذي يشعر به الرجل القويم وهو يجد نفسه مضطراً لاتخاذ سبيل متعرج. يا للحرج الذي يشعر به الرجل وهو يلطخ أنفس ما لديه، شرفه، بهذه الطريقة الوضيعة. لكن ما العمل؟ فالكونت فيرهامون زبون يجب ألا يخسره في أي حال من الأحوال، فقد ندر زبائنه. صار عليه أن يلاحق الزبائن كما كان يفعل في العشرينات، عندما بدأ نجمه يلمع ويتجول في الشوارع حاملاً صندوقه. يعلم الله أنه، جوزيبي بالديني، مالك أكبر محلات العطارة في باريس وفي أفضل الأسواق، سيدبر رأسه مالياً إذا ما تنقل من منزل لمنزل حاملاً حقيبته. غير أن هذه الصورة لم تعجبه قط، فقد تجاوز الستين ويكره الانتظار في الردهات الباردة ليعرض ماء الألف زهرة وخل الحرامية الأربعة على عجائز الماركيزات، أو يبالغ أمامهن في وصف مرهم ضد مرض الشقيقة. هذا بصرف النظر عن المنافسين المقرفين، الذين يطنون في تلك الردهات، ففيها تجد المتملق «برويه» من شارع دوفين، الذي يدعي أنه يملك أوسع لوائح الفازلين، أو «كالتو» من شارع «موكونساي»، الذي توصل لأن يكون

مورد بلاط الكونتيسه فون آرتوا، أو صاحب النزوات الفاحشة انطوان بيليسييه من شارع سان اندريه ديزارت، الذي يبتدع لكل فصل عطراً جديداً، يسلب ألباب الناس.

كان لهكذا عطر ينتجه بيليسييه أن يقلب الدنيا رأساً على عقب. فإذا كان الماء الهنغاري موضة العام وتهيأ بالديني ليغطي حاجة السوق من الخزامى والبرغموت وحصى اللبان، يطلع بيليسييه بعطر نسيم المسك، العطر الفواح برائحة المسك الثقيلة، وفجأة يرغب كل الناس أن يفوحوا برائحة الحيوان، وليس بوسع بالديني إلا أن يحول عطر الـ «حصلبان» إلى سائل لغسيل الشعر ويحشو الخزامى في كييسات عطرية. وإذا حجز في العام التالي كميات وافية من المسك، الزباد وذهب القندس، يطرأ على بال بيليسييه أن يبتكر عطراً اسمه زهر الغاب، يلقى فجأة نجاحاً لا مثيل له. وإذا تمكن بالديني بعد سهر الليالي أو بالرشوة من معرفة تركيب زهيرات الغابة، يأكل بيليسييه الورقة الرابحة بعطر الليالي التركية أو شذا «ليسابون» أو باقة البستان، إلى ما هنالك من العطور التي لا يعرفها غير الشيطان. وعلى كل حال، فقد كان هذا الشخص يشكل بابتكاراته المنفلتة خطراً على جميع أصحاب المهنة وصار الرجل منهم يتمنى عودة صرامة رابطة المهنة السابقة. صار الرجل يتمنى أن يضرب بيد من حديد بوجه هذا المتفرد، هذا التضخم العطري. يجب أن تسحب منه الإجازة، يجب أن يمنع من ممارسة المهنة منعاً باتاً... ثم إن على الوقح أن يتعلم الصنعة أولاً. فهذا المدعو بيليسييه ليس معلماً في تصنيع العطور والقفازات. لم يكن والده أكثر من صانع للخل، وكذلك هو بيليسييه، ليس أكثر من صانع للخل. ولمجرد أن له الحق، كصانع للخل، في التعامل مع الكحوليات السائلة، تمكن من التسلل إلى عرين العطارين الحقيقيين والنبش فيه مثل الظربان. من يحتاج عطراً

جديداً في كل فصل؟ هل هذا ضروري؟ كانت الناس راضية جداً بماء البنفسج وباقات الزهور العادية، التي قد يغيّرها العطارون كل عشر سنوات إذا دعا الأمر. اكتفى الناس آلاف السنين بالبخور والمر، ببعض البلاسم والزيوت والأعشاب المجففة. وحتى لما تعلموا التقطير في الدوارق والأنابيق، انتزاع روح العطر من الأعشاب والأزهار والأخشاب بصيغة زيوت أثيرية بوساطة بخار الماء، هرسه من البذور والنوى وقشور الثمار في معاصر من خشب البلوط، أو استخلاصه من وريقات تويجات الأزهار بدهون منقاة بفائق العناية، كان عدد العطور متواضعاً. لما أمكن آنذاك وجود شخص مثل بيليسييه، ففي ذلك الوقت كان المرء يحتاج لأجل انتاج أبسط الدهون إلى قدرات لا يستطيع غشاش الخل هذا حتى أن يحلم بها. لم يكن على المرء أن يقطر فحسب، بل وأن يكون صانعاً للمراهم وصيدلياً، سيميائياً وحرفياً، تاجراً، عالماً إنسانياً وبستانياً في الوقت ذاته. كان على المرء أن يكون في وضع يسمح له بالتمييز بين شحم كلية الحمل وشحم البقر الأبيض، بين بنفسج فيكتوريا وبين بنفسج من بارما. كان على المرء أن يمتلك ناصية اللغة اللاتينية. كان عليه أن يعرف موعد حصاد عباد الشمس وموعد تفتح براعم الجيرانيوم، أن يعرف أن زهرة الياسمين تفقد أريجها مع اشتداد حرارة الشمس. من البديهي أن التافه بيليسييه لا يعلم شيئاً من كل هذا. ربما لم يغادر باريس أبداً، ربما لم يشاهد في حياته ياسميناً متفتحاً، فما بالك بأنه يملك ذرة من الكدح والجد اللذين يتطلبهما عصر علقة، أو بضعة قطرات من الروح الخالص، من آلاف زهيرات الياسمين. غالب الظن أنه لا يعرف سواها، لا يعرف الياسمين إلا كسائل غامق مركّز في زجاجة بجوار زجاجات كثيرة يحتفظ بها في خزانته ويخلط منها أنواع عطوره. لا، لما تمكن مغترّ مثل بيليسييه من الوقوف على قدميه في

تلك الأزمان الميمونة، فلكي يستطيع الوقوف على قدميه كان سيلزمه الكثير من المواصفات الشخصية، التعليم، الرضا، والشعور العظيم بالطاعة. إنه يدين بنجاحاته في عالم العطور إلى اكتشاف قام به قبل مائتي عام العبقري ماوروثيوس فرانغيباني، وهو أيضاً إيطالي بالمناسبة، ومفاده أن المواد العطرية قابلة للذوبان في روح النبيذ. حرر فرانغيباني العظيم العبير من المادة بأن أذاب مسحوق الشم مع الكحول وحمل عطره بذلك على سائل طيار. بذلك نفح في الطيب روحاً، اكتشف الطيب كطيب نقي، اكتشف العطر. يا للمفخرة، يا للانجاز العظيم، الذي لا يمكن مقارنته إلا بالإنجازات العظيمة للنوع البشري مثل اكتشاف الآشوريين للكتابة، مثل الهندسة الاقليدية، آراء أفلاطون وتحويل الإغريق عصير العنب إلى النبيذ. يا له من صنيع أسداه إلى البشرية على غرار بروميثيوس. وللأسف ومثله مثل كل إنجازات العقل البشري العظيمة، التي لا تلقي بالنور فقط بل ولها أيضاً ظلالها وتجرّ على الإنسانية علاوة على الخير الضغينة والبؤس، فإن لإنجاز فرانغيباني أيضاً عواقب وخيمة. فحيث تعلم الجميع أسر روح الأزهار والأعشاب والأخشاب والأصماغ والإفرازات الحيوانية في الخضاب وصبها في قوارير، أفلت فن صناعة العطور شيئاً فشيئاً من بين أيدي القليل من الصناع المهرة الحقيقيين وفتحت أبوابه أمام الدجالين والمشعوذين، طالما كانت لهم في وجوههم أنوف حادة، مثل الظربان بيليسييه. ودون أن تهمه الكيفية التي صنعت بها محتويات قنانيه، له أن يتتبع مزاج حاسة الشم لديه ويختلط لنفسه ما يخطر بباله أو ما يرغب فيه العامة.

لا بدّ أن الزنديق بيليسييه يملك في الخامسة والثلاثين أكثر بكثير من ثروته هو، بالديني، التي تمكن أخيراً من جمعها في الجيل الثالث بالعمل الشاق والجهد الجهيد. وبينما تتفاقم ثروة بيليسييه يوماً بعد يوم،

تتقلص ثروته هو، بالديني. كان مثل هذا الشيء مستحيلاً في السابق. فإن اضطرار حرفي مرموق وتاجر مشهور إلى الكفاح من أجل وجوده ظاهرة جديدة كل الجدة، لم تظهر إلا في العقود الأخيرة، وذلك منذ اندلاع حمى التجديد المنفلتة من عقالها في كل المجالات، هذه الرغبة الملحاحة في الجريمة، هذه الصرخة العميقة إلى التجريب، هذا التعاظم في التجارة وفي النقل وفي العلم، أو ذلك الجنون بالسرعة! ما هي الحاجة إلى كل تلك الشوارع الجديدة السريعة التي تتفجر في كل مكان؟ والجسور الجديدة؟ لماذا؟ ما هي أفضلية الوصول إلى ليون في أسبوع واحد؟ من يعبأ بهذا؟ من يستفيد منه؟ أو السفر إلى أمريكا في المحيط الأطلسي خلال شهر واحد، وكأن البشرية لم تكن بألف خير طوال آلاف السنين من دون هذه القارة؟ ما الذي فقده الإنسان المتحضر في الغابات المجهولة للهنود الحمر والزنوج؟ بل إنهم مضوا أبعد، إلى لابلاند، في الشمال حيث الصقيع الأبدي، وحيث يعيش المتوحشون ويأكلون السمك النيء. ثم إنهم يريدون اكتشاف قارة جديدة ويزعمون أنها تقع في المحيط الجنوبي، أينما كان هذا المحيط!

ولماذا كل هذا الجنون؟ فقط لأن الآخرين أيضاً يقومون به! الاسبان، الانكليز الملاعين والهولنديون الحقيرون، هؤلاء الذي نتشاجر معهم من ثم، الأمر الذي لا نستطيع تحمل تكاليفه. يبلغ ثمن سفينة حربية ٣٠٠ ألف ليرة وتغرق في خمس دقائق إثر قذيفة مدفع وحيدة، ونحن من يدفع ثمنها من ضرائبنا. يطالب السيد وزير المالية بالعشر على كل المداخيل وهذا يقضي على ثروتنا. وحتى لو لم ندفع العشر، فإن الحياة الروحية فسدت تماماً.

سبب تعاسة الإنسان يكمن في أنه لا يريد الركون إلى حجرته حيث يجب عليه أن يكون، هذا ما قاله باسكال. لكن باسكال كان رجلاً عظيماً، فرانغيباني في مجال الذهن، حرفياً متقناً ولا أحد يسأل اليوم

عن أمثاله. اليوم يقرأون كتباً لا تثير إلا الاضطرابات، يكتبها البروتستانت والانكليز. يكتبون نبذا أو ما يطلقون عليها اسم الأبحاث العلمية العظيمة، يضعون فيها كل شيء وكل شخص موضع الشك. لم يعد أي شيء صحيحاً وصار على كل شيء أن يتغير فجأة. فجأة يسبح في كأس الماء آلاف الحيوانات الدقيقة التي لم نكن نراها من قبل! فجأة صار الزهري مرضاً عادياً جداً وليس عقاباً إلهياً. فجأة تبين أن الله لم يخلق العالم في سبعة أيام إنما في ملايين الأعوام، هذا إن كان هو خالقه! فجأة صار المتوحشون بشراً مثلنا، فجأة صرنا نربي أطفالنا تربية خاطئة ولم تعد الأرض دائرية كما كانت، بل مسطحة في أعلاها وأسفلها مثل بطيخة. وكأن الحياة تتوقف على مثل هذه الأشياء! يتساءلون ويبحثون وينقبون في كل المجالات، يدسون أنوفهم في كل شيء ويجربون كل شيء. لم يعد يكفي القول إن هذا موجود وتلك كيفيته، لا، الآن يجب تقديم البراهين، ويفضل طبعاً تقديم شهود عيان وإحصاءات وتجارب تدعو للسخرية. كل هؤلاء: ديدرو، دالامبيرت، فولتير وروسو وأمثالهم من الوراقين، بل وبينهم سادة من الكنيسة والنبلاء، تمكنوا فعلاً من أن ينشروا قلقهم الغدار، رغبتهم المحضة في عدم الرضا وعدم الاكتفاء بكل ما في العالم، باختصار الفوضى اللانهائية التي تنخر في رؤوسهم، على جميع ساحات المجتمع.

صار الناس عجولين في كل مكان، صاروا يقرأون الكتب، وحتى النساء تقرأن. يقرفص القساوسة في المقاهي وإذا تدخلت الشرطة مرة ما وألقت واحداً من هؤلاء الأوغاد في السجن، حرص الناشرون، وقدموا الالتماس وراء الالتماس، وتدخل رفيعو الرجال والنساء حتى يستعيد حريته بعيد بضعة أسابيع أو يسمح له بالانتقال إلى خارج البلاد، حيث يتفلسف أكثر. تعقد في الصالونات اجتماعات عقيمة، لا يتحدثون فيها إلا عن مسارات المذنبات وحملات الاستكشاف، عن القوة الرافعة ونيوتن، عن شق القنوات، عن الدورة الدموية وقياس قطر الكرة

الأرضية. وحتى جلالة الملك سمح بتقديم عرض عن إحدى الأشياء الجديدة الفارغة في حضرته، نوع من البرق الصناعي، اسمه الكهرباء. على مرأى ومسمع البلاط مسح أحدهم على زجاجة وشعت، وجلالته أبدى، كما يقال، إعجابه. مستحيل، ما كان المغفور له جده الأكبر، لودفيغ العظيم عظمة حقيقية، الذي تشرف بالديني بالعيش في ظل سلطانه المبارك عدة سنوات، سيسمح بمثل هذه التظاهرات السخيفة. لكنها روح الزمن الجديد، ولن تكون نهايته إلا عصيبة.

فإذا تجرأ أحدهم ووضع سلطة كنيسة الرب موضع الشك بغير كلفة، إذا تحدث أحدهم على الحكم الفردي الملكي، التي لا تقل شأناً عن الكنيسة، وعن شخص الملك المقدس، كأنهما مجرد سلطات متغيرة مثل آلاف أشكال الحكم، التي يستطيع أحدهم انتقاءها بحسب الذوق، وأخيراً إذا مضى المرء أبعد، كما حدث، وتحدّث على الرب ذاته، القادر العزيز، وادعى امكانية الاستغناء عنه وزعم جاداً إمكانية حدوث النظام والأخلاق والسعادة على الأرض دونه وقيامها على الأخلاق والعقل اللذين فطر عليهما الإنسان... العياذ بالله، العياذ بالله، إذاً فلا غرو، إن انقلبت الحياة رأساً على عقب وانهارت الأخلاق وأنزلت البشرية حساب ما كفرت به على رأسها. لن تكون العاقبة إلا وخيمة. فالمذنب الكبير من عام ١٧٨١، الذي تندروا عليه وقالوا إنه كومة من النجوم، كان علامة إلهية ونذيراً، لقد دلنا على قرن التحلل الإنساني، وهذا ما نراه اليوم، قرن التفسخ، قرن المستنقع الروحي والسياسي والديني، الذي حفرته البشرية لذاتها وستغرق فيه يوماً ما، ولن تتفتح فيه سوى زهيرات المستنقعات الفجة والنتنة مثل بيليسييه.

وقف إلى النافذة، العجوز بالديني وقف إلى النافذة، ونظر نظرة خبيثة إلى الشمس الغاربة في النهر. ظهرت تحته قوارب الشحن وسبحت ببطء نحو الغرب إلى جسر «نوف» وميناء المعارض في

اللوفر. لم يسبح أي منها باتجاهه متخذاً فرع النهر على الجهة الاخرى للجزيرة. هنا يغادر كل شيء، السفن الفارغة والسفن المحملة، قوارب التجذيف وعبارات الصيادين، الماء الرمادي القذر والدائر في دوائر ذهبية، كل شيء يغادر. متريثاً، واسعاً ودون أي عائق. وإذ نظر بالديني إلى الأسفل بدقة أكثر ماراً ببصره على جدار منزله، بدا له وكأن السيل يقتلع أساسات الجسر وداخ. لقد أخطأ في شراء هذا المنزل وأخطأ مرتين عندما اتخذ بيتاً على الجهة الغربية، فهو يبصر النهر الجارف دائماً. وبدا له أنه هو ذاته ينجرف في التيار، أن المنزل ينجرف وثروته التي جمعها في عشرات السنين تنجرف مثل النهر. ولاح لنفسه عجوزاً وضعيفاً على أن يقف في وجه التيار الجارف. أحياناً، إذا كان له ما يقوم به على الضفة اليسرى، في الحي حول السوربون أو عند بسانت سولبيس، لم يكن يسير عبر الجزيرة وفوق جسر سان ميشيل، بل يتخذ الطريق الأطول فوق جسر «نوف»، فهذا لم تكن حوله بنايات. كان يقف إلى الحاجز الشرقي ويمدّ بصره مع النهر كي يرى الأشياء تقبل عليه مرة على الأقل. ولعدة لحظات كان يسبح في نهر الخيال متصوراً اتجاه حياته وقد تغير، العمل وقد ازدهر، العائلة وقد كبرت، النساء يتطايرن عليه ووجوده يكبر ويكبر بدل أن يتبدد. لكن، وعندما يرفع أنظاره قليلاً، كان يرى على مسافة عدة مئات من الأمتار منزله المتضعضع، الهزيل والعالي فوق جسر «أو شانج» ويرى نافذة مكتبه في الطابق الأول، يرى نفسه واقفاً في النافذة، يرى نفسه ناظراً إلى النهر ومراقباً الماء الجارف، كما هو الآن. وبهذا يتبخر الحلم الجميل وتتغير سحنة بالديني، واقفاً على جسر «نوف»، يكفهر وجهه، يتجهم كما هو الآن، حيث ابتعد عن النافذة وجلس إلى الطاولة.

١٢

أمامه قارورة عطر بيليسييه، يتلألأ السائل فيها في ضوء الشمس، ذهبياً، نقياً، دون أي شائبة. بريئة مثل شاي صاف، هذا رغم أنها تحتوي بالإضافة إلى أربعة أخماس من الكحول، خمساً من خليط سحري أثار مدينة بكاملها. وهذا الخليط قد يتألف بدوره من ثلاث مواد أو ثلاثين مادة مختلفة، تتآلف في حجوم معينة لها آلاف الاحتمالات. هو روح العطر الذي سيكشف بالديني الخمار عن بنيانه. هذا إذا أمكن الكلام عن الروح في عطر صنعه بيليسييه، رجل الأعمال البارد.

تمخّط بالديني حتى أفرغ أنفه وأنزل الروشان على النافذة قليلاً، فضوء الشمس المباشر يودي بالمواد الفواحة والمركزات العطرية الشفيفة. أخذ من درج الطاولة منديلاً أبيض نقيًا ونشره، ثم فتح القارورة بتدويرة خفيفة للسدادة، محاولاً أن يبعد رأسه ويشد على عضلات منخريه، محتاطاً لئلا يأخذ انطباعاً متسرعاً ومباشراً عن العطر في القارورة.

عليه ألا يشم العطر مركزاً، بل بعد أن ينتشر أريجه في الهواء. بقّع المنديل ببضع قطرات، نفضه في الهواء، ليطرد منه الكحول، ثم وضعه تحت أنفه وعلى ثلاث دفعات قصيرة وقوية تنشق العطر مثل السعوط، وزفره في الحال، استروح بعض الهواء وتشمم مرة أخرى على ثلاث دفعات، ثم عب أخيراً نفساً عميقاً، تركه ليخرج من ثم بتريث، وعلى دفقات عدّة، كأنما يدعه يتزحلق على درج طويل ومسطح. رمى المنديل على الطاولة وأسلم ظهره لمسند الكرسي الوثير.

كان العطر جيداً لدرجة القرف، للأسف كان بيليسييه متمكناً من صنعته، معلماً، والشكوى لله، حتى لو كان جاهلاً ألف مرة. تمنى بالديني لو أنه هو صانع عطر الحب والنفس. لم تكن فيه ذرة من الابتذال. كان كلاسيكياً ومتناسقاً كل التناسق ورغم هذا، حديثاً حداثة ساحرة. كان منعشاً اللعين، دون أن يكون متهافتاً. أنيقاً دون أن يكون هشا. عميقاً عمقاً ساحقاً، عمقاً لصيقاً، منعماً، داكناً، ولم يكن قط مثقلاً أو مبهرجاً.

نهض بالديني كأنه يتهيب العطر ووضع المنديل مرة أخرى تحت أنفه. رائع، رائع، دمدم وتنشق بجشع: إنه مبهج، سبحان الله، إنه مثل لحن جميل، يطيب المزاج على الفور... هراء، مزاج طيب! ورمى المنديل على الطاولة محتداً. التفت ومضى إلى أقصى ركن في الغرفة، كأنه يخجل من استحسانه العطر.

من السخافة الانجرار وراء مثل هذه المدائح السخيفة. مثل لحن جميل، مبهج، رائع، مزاج طيب، كلام فارغ. رغي. انطباع اللحظة الأولى. خطأ قديم. مسألة حرارة الدم، ربما بسبب الموروثات الإيطالية! لا تطلق حكماً ما دمت تشم. هذه أولى القواعد بالديني، أيها العجوز المخرف، شم إذا كنت تشم واحكم بعد أن تكون قد شممت. الحب والنفس عطر لا يخلو من الصعوبة. بضاعة موفقة فعلاً. صنعة صنعت برشاقة، كي لا نقول عمل يعمي الأبصار. ولا يمكن توقع شيء من أمثال بيليسييه عدا أعمال تعمي الأبصار... من البديهي ألا يتمكن وغد مثل بيليسييه من صناعة عطر دقيق بكل المقاييس، إنه يعمي الأبصار بإمكاناته الفائقة، يشوش على حاسة الشم بالتناسق الكامل. ذئب في ثياب حمل من حملان فن العطور الكلاسيكي، هو هذا الإنسان، وبكلمة إنه سافل موهوب. وهذا أسوأ بكثير من رجل يتلاعب على الإيمان الحق.

لكن أنت بالديني، لن تدعه يغرر بك. لقد فوجئت للحظة بالانطباع الأول عن الصنيعة. لكن من يعرف كيف ستكون رائحته بعد ساعة، بعد أن تطير أروحه (نتانته) الطيارة وتظهر حقيقة باطنه؟ أو كيف ستكون رائحته مساء، إذا ترسبت مركباته الثقيلة والقاتمة، التي تتخفى، من الناحية العطرية، في الغسق تحت حجاب الزهور؟ فلننتظر بالديني، لننتظر.

تقول القاعدة الثانية: العطر يحيا حياته، له شبابه، رشده وهرمه، وفقط إذا بعث في المراحل الثلاثة الرائحة الطيبة نفسها، يمكن عندها وصفه بالموفق. ألم نجد مراراً ومراراً مزيجاً عملناه، يفوح في بدايته برائحة عظيمة وبهية، ويفوح بعد وقت قصير برائحة الفاكهة الفاسدة ولا يفوح أخيراً سوى برائحة الزباد الصرف، الذي زدنا جرعته؟ الحذار الحذار من الزباد، فقطرة زائدة منه تؤدي إلى الكوارث. أقدم مصادر الخطأ. من يعلم؟ ربما صادف ووضع بيليسييه الكثير من الزباد الصرف! ربما لن يبقى من عطره الطموح، الحب والنفس، حتى مساء اليوم سوى نفحة من بول القطط! سنرى.

سنشمّ. ومثلما تقطع الفأس الحادّة قرمة الخشب إلى فلجات رقيقة، سيشطر أنفنا عطره إلى أدق تفاصيله. ثم سنشهد أن العطر السحري نتج بطريقة عادية جداً ومعروفة منا، نحن، بالديني، العطار، سنكشف أسرار مزّاج الخل بيليسييه. سننزع القناع عن وجهه القبيح ونبرهن للمبدع على طاقات الحرفي المعتق، سنقوم بتقليده أحسن تقليد، عطره الحديث. سينشأ بين أيدينا نشأة جديدة. نسخة طبق الأصل، لن يستطيع حتى الكلب السلوقي تمييزها عن الأصل. لا، لن يكفينا هذا. سنحسنه، سنكشف أخطاءه ونقضي عليها ونضعه بعد التصحيح تحت خطمه لنقول له، أنت غشاش، بيليسييه. أنت منتن صغير. متسلق في صناعة العطور ولا شيء آخر.

إلى العمل إذاً بالديني إلى العمل. اشحذ أنفك وشم دون عواطف. اشطر العطر بحسب قواعد الفن. يجب أن تستخلص الصيغة حتى مساء اليوم.

واستند على الطاولة، أخرج ورقاً، حبراً، منديلاً جديداً ورتب عدته على أتم وجه وبدأ بالتحليل. وكان عمله يكمن في تمرير المنديل المضمخ بالعطر تحت أنفه بسرعة ليحاول أن يلتقط من سحابة العطر هذا المحتوى أو ذاك، دون أن يشغل باله بأجزاء الخلطة المعقودة، ليكتب اسم المحتوى الذي يكشفه، بينما يحافظ على المنديل المضمخ بعيداً عنه بذراع ممدودة، ثم يعيد الكرة ليمرر المنديل تحت أنفه ويظفر بالمحتوى التالي، وهكذا دواليك.

١٣

عمل ساعتين متواصلتين. كانت حركاته تزداد مع الوقت ارتباكاً، خربشته على الورق تزداد تخبطاً وجرعات العطر التي يسكبها من الزجاجة على منديله ويقربها لأنفه تزداد عدداً. لم يعد قادراً على الشم، فقد بنّجته الأرواح الأثيرية التي استنشقها، كما لم يعد له التقاط الروائح، التي ظن أن أنفه تلقفها ولا شك في بداية تجريبه وأدرك أنه سيتابع عبثاً، لن يفلح في استكشاف محتويات العطر المستحدث، لا اليوم ولا غداً، إذا شفيت أنفه، إن شاء الله. فلم يتعلم قط أسلوب الشم التشريحي. إنه يمقت الانشغال على تفتيت عطر ما مقتاً. يبغض تقسيم الكلّي، المركب تركيباً جيداً أو سيئاً، إلى شذراته الأولية. لم يعد يهمه. لقد اكتفى. إلا أن يده تابعت تشريب المنديل الرقيق، تابعت نفضه وتمريره سريعاً أمام الوجه آلياً، بحركة ناعمة تدرب عليها آلاف المرات، وتنشق آلياً وجبة جديدة من الهواء المشرب بالعطر، كلما مر المنديل أمام وجهه. وأخيراً حررته أنفه من العذاب الأليم، إذ انتفخت من الداخل وانسدت، كأنما وضع فيها أحدهم سدادة شمعية. لم يعد له أن يشم على الإطلاق، كما لم يعد له أن يتنفس إلا بصعوبة. كأنما أصيبت أنفه بزكام حاد وتجمعت دميعات في زوايا عينيه. الحمد لله رب العالمين. الآن له أن يتوقف مرتاح الضمير. لقد أدى ما عليه بحسب كل قواعد الفن، وكما يحدث له غالباً، فشل. انتهى الموضوع. سيبعث غداً صباحاً من يشتري له قارورة كبيرة من عطر الحب والنفس ليعطر الجلد الاسباني لأجل الكونت فيرهامون كما اتفق. وسيتناول

بعدها حقيبته الصغيرة واضعاً فيها الصوابين القديمة، المراهم، دهون الشعر والصرر المعطرة ويتجول بين صالونات الدوقات العجائز. وذات يوم ستموت آخر دوقة عجوز وبموتها يموت آخر زبائن بالديني، وسيكون آنئذ شيخاً هرماً، سيبيع منزله إلى بيليسييه أو تاجر آخر من التجار المتسلقين وربما حصل على بضعة آلاف ليرة ثمناً له. لسوف يحزم حقيبة أو اثنتين ويهاجر مع زوجه، إذا ظلت هذه على قيد الحياة، إلى إيطاليا. وإذا ما نجا من وعثاء السفر، سيشتري داراً في القرى المحيطة بمسِّينا، حيث الدور رخيصة. وهناك سيموت جوزيبي بالديني، من أكبر عطّاري باريس، فقيراً، مدقعاً متى ما شاء الله. وهكذا لا يحق إلا الحق.

سد القارورة، رمى الريش من يده ومسح جبينه للمرة الأخيرة بالمنديل المعطر. لم يشعر بشيء سوى برودة الكحول المتبخر. ثم غابت الشمس. نهض بالديني، رفع الروشان وغطس في الشمس من الرأس إلى الركبتين. واحمر في نور المساء مثل جمرة تنطفئ. شاهد حاشية الشمس المحمرة خلف اللوفر والنار الشفيفة على سقوف المدينة الاردوازية. شعّ النهر تحته مثل الذهب واختفت القوارب. ثم هب الهواء عليلاً فقد كانت الجيوب الهوائية تتساقط على سطح الماء مثل القشور، وتلألأ النهر هنا وهناك، كأن يداً عملاقة تنثر عليه دنانير فضة. وبدا النهر كأنما غيَّر وجهته ويتدفق كطوفان ساطع من الذهب الخالص نحو بالديني.

اغرورقت عيناه بالدمع وشعر بمرارة في الحلق، فظل ساكنًا يتأمل اللوحة الجميلة. ثم فتح النافذة فجأة، شرع مصراعيها ورمى القارورة بما فيها من العطر في قوسٍ عالٍ. ورآها ترتطم بالنهر وتمزق بساط الماء الذهبي هنيهة. وعلى إثرها هب نسيم عليل إلى الغرفة، فتنفس الصعداء

ولاحظ أن ورم أنفه يتقلص. ثم أغلق النافذة وفي اللحظة ذاتها أسدل الليل ستاره فجأة، وتصلبت المدينة المشعة ذهباً متحولة إلى شبح داكن. فاكفهرت سماء الغرفة دفعة واحدة. انتصب بالديني في الوقفة ذاتها كما من قبل وحدق عبر النافذة في الفضاء. لن أبعث غداً إلى بيليسيبيه، أفشى في سره وشد بكلتا يديه على مسند الكرسي. لن أفعلها. كما لن أقوم بجولتي على الصالونات. بل سأذهب غداً إلى الكاتب بالعدل، أبيع منزلي ومحلي. هذا ما سأفعله. نقطة انتهى. اكتسب وجهه بغتة سحنات غلام حرون وشعر بالسعادة تغمره. لقد استعاد نفسه، استعاد بالديني الشاب، مقتحماً خضم الحياة بجسارة وتصميم، كما في سابق عهده، حتى لو كان الاقتحام يعني هذه المرة التراجع. لا ضير. لم يبق له ما يفعله. لم يترك له الزمن التافه خياراً آخر. العسر واليسر من الله. لكنه لا يريدنا أن ننوح ونعول في العسر، بل أن نحتفظ برجولتنا. ثم أنه أعطاني علامة. كانت صورة المدينة الذهبية والحمراء بلون الدم نذيراً، انهض بالديني، انهض قبل أن يفوت الأوان. انهض ما دام منزلك قائماً، ما دامت مستودعاتك مليئة، ما دام بامكانك الحصول على ثمن جيد لدكانك الزائل. ما دمت سيد الموقف. ورغم أن غاية حياتك لم تكن قضاء شيخوخة متواضعة في مسينا، لكنها أشرف وأكثر مرضاة لله من الحضيض في باريس. وليحتفل أمثال: بروبه وكالتو وبيليسيبه بالنصر، سيترك جوزيبي بالديني ساحة الوغى، لكنه يتركها منتصب القامة وبمطلق إرادته.

كان فخوراً بنفسه وانشرح صدره. للمرة الأولى منذ عهد بعيد تختفي تشنجات ظهره، التي تؤلم رقبته وتحني كتفيه بذل وصغار. وانتصب دون جهود بالغة، خلياً وحراً وفرحاً. تنفس الصعداء وشم رائحة عطر الحب والنفس التي تسود الغرفة، إلا أنها لم تعكر عليه

صفوه. لقد غير بالديني حياته إلى الأبد ويشعر بالغبطة والراحة. سيصعد إلى زوجته ليعلمها بما اتخذه من قرارات، ويحج من ثم إلى نوتردام ليشعل شمعة، حمداً لله على إشارته الرحيمة وعلى القوة البالغة التي منحها لجوزيبي بالديني. وبحمية الفتيان رمى الشعر المستعار على رأسه الصلعاء، اندس في القفطان الأزرق، تناول الشمعدان الذي كان على الطاولة وغادر المكتب.

ما كاد يشعل الشمعة في الدهليز لينير دربه إلى مسكنه، إلا وسمع قرعاً على الباب في الطابق الأرضي. لم يكن ذاك الرنين الفارسي العذب لباب الدكان، بل صليل مدخل الخدم، ذلك الصوت المقزز، الذي كان يزعجه دائماً وأبداً. غالباً ما أراد انتزاعه، ذلك الشيء اللعين وتبديله بجرس حسن الصوت، بيد أنه كان يتحسر على النقود التي سيصرفها عليه، وها هو، تذكر فجأة وحبس ضحكة ماكرة، ليذهب إلى الجحيم، سيبيع البيت بالجرس المزعج ولينزعج به المشتري.

للمرة الثانية صل الجرس. أصاخ بالديني السمع وأدرك أن شينييه غادر المحل، كما أن الخادمة لم تعبأ بالطارق. وهكذا اضطر بالديني للنزول شخصياً ليفتح الباب. رفع المزلاج ودفع الباب الثقيل ولم ير شيئاً. ابتلع الظلام ضياء الشمعة كله. ثم تمكن تدريجاً من رؤية هيئة ضئيلة، هيئة طفل أو فتى قصير، يحمل شيئاً على ذراعه. ماذا تريد؟ أنا من قبل المعلم غريمال. جئت بجلود الماعز قال الشخص وتقدم ورفع ذراعه المطوية، التي تحمل جلوداً مكدّسة، إلى وجه بالديني. في الضوء رأى بالديني وجه شاب فيه عينان خائفتان متربصتان، كان الفتى يترقب ويبدو كمن يختفي وراء ذراعه المرفوعة ليتقي الضرب. كان غرينوي.

١٤

تذكر بالديني جلود الماعز التي طلبها من غريمال منذ عدة أيام، ليصنع منها الجلد الاسباني للكونت فيرهامون. أرق الجلود وأنعمها، بخمسة عشر فرنكاً للقطعة الواحدة. إلا أنه لم يعد يحتاجها وله أن يوفر ثمنها. لكن، ومن ناحية أخرى، ماذا سيحدث لو أرجع الفتى بالجلود؟ من يعلم، ربما أثار هذا انطباعاً سيئاً، ربما بدأ الناس الكلام وربما انتشرت شائعات على غرار أن بالديني لم يعد موثوقاً فيه، بالديني لا يتلقى المزيد من الطلبات، بالديني غير قادر على الدفع.... وهذا ليس جيداً، ليس جيداً أبداً، لا، فهذه الشائعات قد تقلل من ثمن المحل، الأفضل استلام الجلود التي لا فائدة منها. يجب ألا يعلم أحد في هذا الوقت غير الملائم أن جوزيبي بالديني غيّر حياته كلها.

ادخل، سمح للصبي بالدخول وذهب إلى الدكان، كان بالديني متقدماً بالشمعدان وغرينوي حاملاً الجلود. لأول مرة يدخل غرينوي محل عطارة، أول مرة يدخل مكاناً لا تكون الروائح فيه مجرد أمور ثانوية، بل تقف في مركز الاهتمام. طبعاً كان يعرف متاجر العطور ومواد التجميل في المدينة واحداً واحداً، فلطالما توقف في الليل أمام شبابيكها ودس أنفه في شقوق أبوابها. كان يعرف جميع الروائح المتوافرة فيها وكثيراً ما خلطها مستنبطاً منها أزهى العطور. إذاً لم يكن ينتظر جديداً، لكن وكما يتحرق طفل موهوب موسيقياً لرؤية أوركسترا عن قرب أو ليصعد في الكنيسة إلى السقيفة، إلى صفوف أزرار الأرغن الخفية، كذلك كان غرينوي يتحرق لرؤية محل عطارة من الداخل وتكبد

كل المتاعب، ليحمل على عاتقه هذه المهمة، عندما سمع أن جلوداً يجب أن تؤخذ إلى دكان بالديني.

وها هو في دكان بالديني، في ذلك المحل من باريس حيث يجتمع أكبر عدد من العطور في أضيق مكان. لم ير الكثير في ضوء الشمعة المتذبذب، بل مجرد ظلال المكتب الخشبي وعليه الميزان، مالكي الحزين فوق الحوض، مقعد الزبائن، الرفوف المعتمة على الجدران، انعكاس الضوء على الأوعية النحاسية واللصقات البيض على الزجاجات والبوتقات، كما لم يشم أكثر مما شمه من قبل على الشارع. إلا أنه استشعر فوراً ذلك الجد المسيطر في الحجرات، لقلت الجد المقدس، إذا كان لكلمة المقدس أي معنى لدى غرينوي، استشعر الجد البارد، الحصافة الحرفية، الحس المهني الجامد، الذي يلتصق بكل قطعة أثاث، بكل آلة من الآلات، بالبراميل والزجاجات والأوعية. وبينما يتعقب بالديني في ظله، فلم يكلف نفسه عناء إنارة الطريق له، طرأ في باله أن هذا تماماً هو مكانه وليس أي مكان آخر، أنه سيبقى هنا، أنه هنا سيقلب العالم رأساً على عقب.

طبعاً كانت هذه الفكرة على قدرٍ عالٍ من المغالاة. فلا سبب، فعلاً لا داعي إطلاقاً، ليأمل مستخدم وضيع لدى دباغ، ذي أصول مشبوهة، لا علاقات له ولا محسوبيات، لا يتمتع بأدنى ما قد يدعم موقفه، في اتخاذ موقع له في أشهر متاجر العطارة في باريس وخاصة، كما نعلم، أن قرار إغلاق المحل قد حسم. لكن ما طرأ على بال غرينوي المغتر لم يكن أملاً فحسب، بل يقيناً. كان يعلم حق العلم أنه لن يترك هذا الدكان إلا ليأتي بثيابه من عند غريمال وليس لأي داع آخر. تنسم القراد دماً. لقد سكن سنين طوال، انكمش على ذاته وانتظر. وها هو يترك نفسه للسقوط في السراء والضراء، دون أدنى أمل. ولهذا كانت ثقته عالية.

عبرا الدكان، فتح بالديني باب الغرفة الخلفية المطلة على النهر، التي يستخدمها مستودعاً أحياناً، وأحياناً أخرى ورشة أو مختبراً، حيث تطبخ أنواع الصوابين وتحرك الدهون وتمزج السوائل في زجاجات منتفخة البطون. هنا. ضعها هنا قال بالديني وأشار إلى طاولة كبيرة أمام النافذة. خرج غرينوي من ظل بالديني، وضع الجلود على الطاولة وقفز سراعا ليقف بين بالديني والباب. بيد أن الأخير ظل واقفاً لبرهة. نحى الشمعة قليلاً كي لا تسقط قطرات الشمع على الطاولة ومسح بظاهر إصبعه على سطح الجلد الأملس، ثم قلب الجلد الأعلى ومرر إصبعه على الناحية المخملية، الخشنة والطرية في آن. كان الجلد جيداً جداً، كأنما صنع خصيصاً للجلد الاسباني. لن يتقلص إلا بالكاد إذا جف، سيستعيد إذا ما دك بالمسحاج بشكل جيد مرونته، شعر بالديني بهذا فوراً، حالما ضغط عليه بين الابهام والشاهدة. له أن يتشرب العطر لخمسة أو ستة أعوام. كان جلداً جيداً، جيداً جداً وربما صنع منه قفازات، ثلاثة أزواج له وثلاثة لزوجه لأجل السفر إلى مسينا.

سحب يده. ورأى الطاولة تقطع نياط القلب، كل المعدات مرتبة عليها، حوض التنقيع الزجاجي لحمام العطر، لوح التجفيف الزجاجي، الجفنات لخلط الخضاب، المدق، والملوق والمرقاش والمسحاج والمقص. يا الله، كأنها نامت لأن الليل حل وستستيقظ صباح الغد. هل يأخذ الطاولة إلى مسينا؟ وبعض العدة، أهم القطع منها؟ كان الجلوس إلى الطاولة والعمل عليها متعة حقيقية. صنعت من عوارض من خشب البلوط وكذلك الرف وثبتت بالعرض بعوارض خشبية، فلا يهتز ولا يرتعش شيء عليها، إنها تتحمل كافة الأوزار، مثل الأحماض والزيوت وضربات المقصات. غير أن تكاليف نقلها إلى مسينا باهظة، حتى بالسفينة سيكلف نقلها كثيراً من المال، ولهذا ستباع الطاولة،

ستباع في الصباح بكل ما عليها وما تحتها كذلك. فهو، بالديني، ورغم أنه مرهف القلب، إلا أنه قوي الشكيمة، ولهذا سينفذ قراره، رغم كل ما يعانيه من الألم، سيذرف الدموع على أغراضه، إلا أنه سيبيعها، هذا هو الحق، فقد جاءته العلامة. التفت ليخرج، فوجد ذلك الإنسان الصغير المشوه واقفاً في الباب وكان قد نسيه. فقال له: إنه جيد، قل للمعلم إن الجلود جيدة جداً. سأمر في الأيام المقبلة لأدفع الثمن. نعم قال غرينوي وظل ساكناً يسد الطريق على بالديني، الذي يتهيأ لمغادرة ورشته. استغرب بالديني قليلاً، بيد أنه لم يعتبر سلوك الفتى تبجحاً إنما حياء وسأله: ماذا هناك؟ هل ترغب في شيء؟ إذن قل ظل غرينوي جامداً يتطلع في بالديني نظرة تدعي الخشية، إلا أنها في الحقيقة تتأتى من التوتر المتربص. أريد العمل عندكم. معلم بالديني. عندكم، في محلكم أريد العمل لم يقل مقولته راجياً، بل مطالباً، كما أنه لم يقلها، بل عصر الكلمات عصراً، فح مثل الأفعى. ومرة أخرى أخطأ بالديني في تقدير استعلاء الفتى، ظاناً إياه ارتباكاً صبيانياً، فابتسم له بمودة وقال: أنت صانع دباغة يا بني. لا مكان عندي لصانع دباغة. عندي مساعد ولا أحتاج صانعاً. تريدون أن تجعلوا جلود الماعز تفوح بالرائحة معلم بالديني؟ هذه الجلود التي حملتها إليكم، تريدون أن تجعلوها معطرة؟ هسهس غرينوي وكأنه لم يسمع جواب بالديني على طلبته. قال بالديني: فعلاً. بعطر الحب والنفس؟ تساءل غرينوي وتصاغر منكمشاً على نفسه أكثر. ارتعش جسد بالديني كله من خوف خفي، ليس لأنه تساءل في نفسه عن مصدر معلومات الغلام، إنما لسماعه اسم العطر المكروه، والذي فشل اليوم في اكتناز كنهه: كيف لك أن تفكر مجرد التفكير في هذه الفكرة التافهة. كيف أستعمل عطراً غريباً في. . . لكنكم تفوحون برائحته، فح غرينوي من جديد: تحملونه

على جبينكم وفي جيب قفطانكم الأيمن وضعتم منديلاً مشرباً به. عطر الحب والنفس ليس جيداً، إنه شيء، فيه الكثير من برغموت وكثير من حصى اللبان وقليل من زيت الورد. صاح بالديني، الذي فوجئ بتحول مجرى الكلام إلى التفاصيل الدقيقة: آه، وماذا أيضاً؟ زهر البرتقال، الأترج، القرنفل، المسك، الياسمين، روح النبيذ وشيء لا أعرف اسمه، هنا، شوفوا، هنا، في هذه القارورة وأشار بإصبعه في الظلام. وضع بالديني الشمعدان في الاتجاه المحدد وتابع بنظراته شاهدة الفتى حتى وصل إلى زجاجة على الرف مملوءة ببلسم أصفر داكن وقال: العبهر؟. أومأ غرينوي: نعم، فيه هذا. العبهر. ثم تلوى وكأن تشنجاً قوياً ألم به ودمدم عشرات المرات العبهر، العبهر، العبهر، العبهر.

وجه بالديني الشمعة إلى الركام البشري الذي ينعق بكلمة العبهر وفكر، إما انه ممسوس أو أنه دجال محتال وقد يكون موهبة ربانية. فمن الجائز جداً أن تنتج المواد المسماة، إذا ركبت تركيباً صحيحاً عطر الحب والنفس، بل ومن المحتمل أن تنتجه. زيت الورد، القرنفل، والعبهر، لقد بحث عن هذه المركبات الثلاثة مساء اليوم يائساً، ومعاً تتضافر الأجزاء الأخرى من المركب، هذه التي ظن أنه أيضاً اكتشفها، مثل قطع متناسقة في كعكة طيبة المذاق. لم تبق إلا مسألة الحجوم المضبوطة لإضافتها إلى بعضها البعض. وللوصول إلى الجواب الشافي سيكون عليه، هو بالديني، أن يقوم بمئات الاختبارات، العمل الأصعب من مجرد تحديد الجزيئات المنفردة، سيكون عليه أن يقيس، أن يزن ويدون وأن يركز انتباهه، فأصغر خطأ، كارتعاش القطارة، كالخطأ في عدد القطرات، قد يفسد كل العمل. ولكل محاولة فاشلة ثمن مريع، كل مزيج فاسد يكلف ثروة.

أراد أن يختبر الرجل الصغير ويسأله عن الصيغة الدقيقة لعطر الحب

والنفس، فإذا عرفها بدقة، بالغرام والقطرة، فمن الواضح أنه محتال سرق الوصفة من بيليسييه بطريقة ما، ليتشرف بالعمل لدى بالديني، لكن إذا قدرها تقديراً، فإنه نابغة من نوابغ الشم وسيتطلب عناية بالديني الحرفية. هذا لا يعني أن بالديني قد يتراجع عن قراره الحاسم بإغلاق الدكان، لا، لا، إن قراره لا يتوقف على عطر بيليسييه. وحتى لو تمكن الصبي من انتاج عشرات الليترات منه، لن يفكر بالديني قط بتعطير الجلد الاسباني للكونت فيرهامون به، لكن. . . لكن أحدنا لم يقض عمره في تركيب العطور ليكف بين ليلة وضحاها عن ولعه الشديد بالحرفة. ما يهمه هو الحصول على صيغة العطر الملعون، بل وأكثر يهمه دراسة موهبة الفتى الغريب، الذي تمكن من شم عطر على جبينه. تشوق ليعرف المستخبي. بكل بساطة استيقظ فضوله.

وبعدما رجع إلى الورشة ليضع الشمعدان بحذر على الطاولة، وبعد أن توقف غرينوي عن الهسيس، قال له بالديني: يبدو لي أن أنفك دقيقة جداً أيها الشاب. أنف لا يمكن الشك بحدتها، لكن. . . عندي أفضل أنف في باريس، معلم بالديني، صر غرينوي مقاطعاً: أعرف كل روائح العالم. كل ما في باريس، كلها، كلها، لكني لا أعرف أسماء بعضها، لكني أقدر أن أتعلم الأسماء أيضاً، كل الروائح، التي لها أسماء، هي ليست كثيرة، ليست أكثر من عدة آلاف، سأتعلمها، لن أنسى اسم البلسم أبداً، العبهر، اسم البلسم العبهر، اسمه العبهر، العبهر. هتف به بالديني: اخرس. عليك ألا تقاطعني أبداً. أنت متطاول وطويل اللسان. لا أحد يعرف أسماء ألف رائحة. حتى أنا لا أعرف أسماء ألف رائحة، إنما عدة مئات فحسب، فليس في مهنتنا أكثر من عدة مئات، وكل ما عداها ليس رائحة، إنما نتنٌ. انطبق غرينوي، الذي انطلق جسدياً أثناء تدفقه في الكلام، بل ولوح بذراعيه متأثراً ليعبر عن كل، كل ما يعرفه،

على نفسه من جديد فجأة لدى اعتراض بالديني عليه مثل ضفدع أسود صغير ونشب أظفاره في عتبة الباب متربصاً ساكناً.

تابع بالديني: طبعاً، اتضح لي أنا أيضاً أن عطر الحب والنفس يتألف من العبهر، زيت الورد والقرنفل وكذلك برغموت وخلاصة حصى اللبان الخ، الخ. ولاكتشاف هذا نحتاج إلى أنف موهوبة حادة، كما قلت، وقد يكون الرب أنعم عليك بأنف موهوبة مرهفة، مثل الكثير والكثير من الناس، وكلهم من عمرك، لكن العطار... وهنا رفع بالديني الشاهدة ونفخ صدره لكن العطار يحتاج إلى أكثر من مجرد أنف موهوبة مرهفة. يحتاج العطار إلى عضو شم متمرس لعشرات السنين، عضو شم يعمل ويجد بدأب، يضعه في موضع يكشف فيه ألغاز الروائح المعقدة بحسب النوعية والكمية، وكذلك أيضاً ليبتكر أخلاط عطور جديدة، غير معروفة. إن هكذا أنف ونقر باصبعه على أنفه لا توهب، إنما تؤخذ بالجد والمثابرة. أم أنك تستطيع أن تقول لي من الوهلة الأولى ما هي الصيغة السيميائية الدقيقة لعطر الحب والنفس؟ ها؟ هل تستطيع؟ لم يرد غرينوي. هل تستطيع أن تفشيها لي تقريباً قال بالديني وانحنى قليلاً نحو الأمام، ليرى الضفدع بالباب على وجه التقريب، على التخمين؟ ها؟ تكلم، أنت، أفضل أنف في باريس. إلا أن غرينوي ظل على سكوته. أترى؟ قال بالديني راضياً وخائباً في آن واحد وانتصب من جديد ليقول: لا تقدر. طبعاً لا تقدر. وكيف ستقدر؟ أنت مثل واحد يتذوق أثناء تناول الطعام أن الحساء فيه كزبرة خضراء أو بقدونس. لكنك بهذا لا تصبح طبّاخاً. في كل فن، وفي كل حرفة، ضع هذا مثل الحلق في أذنك قبل أن تذهب، الموهبة ليست كل شيء، الأهم هو الخبرة التي يكسبها أحدنا بالرضا والجدّ.

تناول الشمعدان من على الطاولة، عندما طلع فحيح غرينوي من

الباب: لا أعرف ما معنى صيغة سيميائية، معلم، لا أعرف معناها، وعدا ذلك أعرف كل شيء. . . الصيغة، الصيغة هي أدق التعليمات عن الكيفية التي يجب أن تمزج بها الأخلاط حتى ينتج العطر المنشود، الذي لا يخطئه أنف. هذه هي الصيغة. هي الوصفة، إذا كان لك أن تفهم هذه الكلمة أفضل. نعق غرينوي: صيغة، صيغة وتضخم قليلاً في الباب: أنا لا أحتاج صيغة. الصيغة موجودة هنا، في أنفي. هل أمزجها لكم، معلم، هل أمزجها؟ هتف بالديني بصوت عالي النبرة واضعاً الشمعة في وجه العفريت: كيف؟ كيف تمزجها؟. وللمرة الأولى لا يشعر غرينوي بالخوف وقال مشيراً في الظلام من جديد: لكن كلها موجودة هنا، التي نحتاجها، الروائح، كلها هنا، في هذه الغرفة. زيت الورد هنا، زهر البرتقال هنا، قرنفل هنا، حصى اللبان هنا. . . بالطبع كلها متوافرة صرخ فيه بالديني: كلها موجودة، لكني أعيد وأكرر، أيها الغبي، هذا لا ينفع، إذا لم تكن الصيغة معك. ياسمين هنا، روح النبيذ هنا، البرغموت هنا، العبهر هنا تابع غرينوي نعيقه وأشار مع كل اسم ذكره إلى نقطة مختلفة في ظلام الحجرة، حيث لا يمكن لأحد أن يرى في أفضل الأحوال إلا ظلال الرفوف المحملة بالزجاجات. وترى أيضاً في الليل؟ ها؟ صرخ بالديني: ليس لديك أفضل الأنوف فحسب، بل وأقوى العيون في باريس أيضاً، ها؟ وإذا كان لك آذان موهوبة حادة أيضاً، فافتحها على آخرها، فأنا أقول لك، أنت محتال صغير. ربما سرقت شيئاً من بيليسييه، ربما تجسست عليه، ها؟ وتظن أنك تستطيع الضحك على ذقني، ها؟ وقف غرينوي في الباب منشوراً، أي يمكن القول إنه وقف بكامل قوامه، بساقين متباعدتين قليلاً وذراعين منفرجتين، بحيث بدا مثل عنكبوت أسود ينشب براثنه في العتبة وإطار الباب، وقال متدفقاً في الكلام: أعطوني عشر دقائق وسأصنع لكم عطر

الحب والنفس، الآن وهنا في هذه الغرفة، معلم، أعطوني خمس دقائق. وهل تظن أني سأسمح لك بالعبث في ورشتي؟ أن تتلاعب بالجواهر الغالية؟ أنت؟ نعم قال غرينوي. هه، هتف بالديني وأطلق زفيره كله دفعة واحدة. ثم أخذ نفساً عميقاً ونظر طويلاً إلى غرينوي العنكبوت وتأمل. كله صابون، غدا ينتهي كل شيء. أعرف طبعاً أنه لن يتمكن مما يدعيه، بل ومن غير الممكن أن يتمكن منه، إلا لكان أعظم من فرانغيباني العظيم ذاته. لكن لماذا لا أسمح له بما أعرفه، ليظهر لعيني؟ فربما تذكرت ذات يوم في مسّينا، فالرجل منا يصبح غريب الأطوار في شيخوخته ويتشبث ببعض البلاهات، ربما تذكرت في مسينا أني لم أكتشف نابغة شمية، كائناً أنعم الله عليه نعيماً وإحساناً، طفلاً معجزة... مستحيل، مستحيل بحسب كل خبرتي وعلمي، مستحيل. لكن المعجزات موجودة ومذكورة في الكتب. إذا احتضرت غداً في مسينا وتذكرت في سرير الموت، آنذاك، في باريس، في ذلك المساء أغلقت عينيك أمام معجزة؟ لن يكون إحساساً جميلاً، بالديني. ليضع هذا المجنون بضعة قطرات من زيت الورد وخضاب المسك، فأنت نفسك كنت ستضيعها لو أنك ما زلت تبدي اهتماماً بعطر بيليسييه، وما قيمة بضعة قطرات ـ إلهي إنها غالية، غالية جداً ـ مقارنة بطمأنينة المعرفة وخريف العمر الهادئ؟ قال محاولاً أن يتصنع الشدة: انتبه. انتبه، أنا... ما هو اسمك؟ قال غرينوي: غرينوي، جان بابتيست غرينوي. قال بالديني: آهاً، طيب، جان بابتيست غرينوي. انتبه، لقد فكرت في الأمر ملياً وسأمنحك الفرصة الآن، فوراً، لتبرهن على مزاعمك. وهذه في الوقت ذاته فرصة لك، لتتعلم فضيلة الرضا عبر الفشل الذريع، والرضا، ربما لم يكتمل في عمرك الغض، الأمر الذي يمكن مغفرته، شرط لا بد منه لتقدمك التالي في الحياة كعضو في رابطة

مهنتك وشريحتك، كزوج، كخادم، كإنسان وكمسيحي طيب. أنا مستعد لألقنك هذا الدرس على حسابي، فأنا اليوم كريم معطاء لأسباب خاصة، ومن يعلم، فربما ستمنحني ذكرى هذا المشهد قليلاً من المرح في يوم من الأيام. لكن لا تتصور أنك ستغرر بي. أنف جوزيبي بالديني عجوز، إلا أنها مرهفة، رهيفة بما فيه الكفاية لتكتشف على الفور أبسط الفوارق بين خلطتك وهذا المنتج وسحب منديله المضمخ بعطر الحب والنفس من جيبه ونفضه أمام أنف غرينوي: اقترب، يا أفضل أنف في باريس، اقترب من هذه الطاولة وأرنا ما تستطيعه. لكن الحذار الحذار، لا تكسر أو تبعثر أغراضي. لا تلمس شيئاً. أريد في البداية مزيداً من النور. نريد ضوءاً أكثر لهذه التجرية الصغيرة، أليس كذلك؟ وتناول شمعدانين آخرين، منتصبين على حافة الطاولة وأوقدهما. وضع الشمعدانات بجانب بعضها البعض على الناحية الأخرى من الطاولة ودفع الجلود جانباً وفرغ وسط الطاولة. ثم، بحركات سريعة وهادئة، تناول المعدات المطلوبة للعمل من رف صغير. زجاجة المزج ذات البطن الكبيرة، القمع الزجاجي، القطارة، المقاييس الزجاجية، صغيرة وكبيرة، ووضعها بترتيب جميل على الطاولة البلوطية.

تحرر غرينوي في هذه الأثناء من إطار الباب، وبينما بالديني يطنب في الخطاب، تساقطت عن غرينوي قشوره المتصلبه. لم يسمع إلا موافقة بالديني، إلا نعم، بابتهاج طفل انتزع إقراراً ويبصق على الحدود، الشروط والوصايا الاخلاقية المتعلقة به. رخياً وشبيهاً لأول مرة في حياته بالإنسان، أكثر مما بالحيوان، ترك بالديني يفضفض في موعظته، عالماً أنه تغلّب على الرجل، بمجرد أنه تراخى له.

وبينما يتفنن بالديني بشمعداناته على الطاولة، تسلل غرينوي إلى الجهة المعتمة في الورشة، حيث الرفوف والجواهر النفيسة، الزيوت

والخضاب، وتناول معتمداً على أنفه، القوارير اللازمة له. تسعة قوارير بالتمام والكمال، روح زهر البرتقال، زيت الأترج، زيت القرنفل والورد، خلاصة الياسمين وبرغموت وحصى اللبان، خضاب المسك، وبلسم العبهر، قطفها سراعاً ووضعها على حافة الطاولة الطولانية. وجر أخيراً دمجانة فيها روح النبيذ عالي التركيز. ثم وقف خلف بالديني، الذي ينسق أوعيته بحذلقة وتفكر. يبعد هذه الزجاجة قليلاً، وتلك أكثر، حتى تأخذ ترتيبها المعتاد وتتألق في ضوء الشموع. انتظر غرينوي مرتعشاً من نفاد الصبر، إلى أن يبتعد العجوز ويفسح له المجال. وأخيراً تنحى بالديني قائلاً: هكذا! رتبت كل ما يلزم لإجراء، ما سنسميه مجازاً، تجربتك. لا تكسر شيئاً، لا تلوث شيئاً. احذر فهذه السوائل التي أسمح لك باستخدامها خمس دقائق، نفيسة ونادرة، لن تمسها يداك بهذه الصيغة العالية من التركيز مرة أخرى طوال عمرك. كم أعمل لكم معلم؟ سأل غرينوي. ماذا تعمل؟ سأل بالديني الذي لم ينه كلامه. كم أعمل لكم من هذا العطر؟ نعق غرينوي: كم تريدون منه؟ هل أملأ هذه الزجاجة الكبيرة على آخرها؟ مشيراً إلى زجاجة مزج تستوعب ثلاثة ليترات. لا، لا تفعلها صرخ بالديني مستغرباً ومن فمه صرخ الخوف الأبدي المتجذر من إتلاف أملاكه. ثم كأنما استحيا من الصرخة المتهتكة زعق: وعليك ألا تقاطعني، ليقول بنبرة أكثر هدوءاً، تحمل في طياتها بعض السخرية: ما حاجتنا إلى ثلاثة لترات من عطر لا نقدره نحن الاثنان؟ يكفينا نصف مكيال. ولأن هكذا كميات لا يمكن مزجها بدقة، سأتكرم عليك وأسمح لك بملء ثلث زجاجة المزج. قال غرينوي: طيب. سأملأ هذه الزجاجة حتى الثلث بعطر الحب والنفس. لكني، معلم بالديني، سأعمله بطريقتي. لا أعرف إن كانت هذه هي الطريقة المهنية الصحيحة، فأنا لا أعرفها، لكني سأعمله بطريقتي.

تفضل، قال بالديني الذي يعلم أنه ليس في هذه المهنة طريقتي وطريقتك، إنما فقط طريقة واحدة وحيدة وصحيحة، وهي إنتاج محلول مركز محسوب بدقة عالية من مختلف الأرواح وذلك بمعرفة الصيغة والحسابات الملائمة لها على الكمية المطلوبة، يمزج مع الكحول بنسبة عالية الدقة بدورها، تتراوح بين الواحد في العشرة إلى الواحد في العشرين، حتى تنفخ فيه الروح. وكان واثقاً من عدم وجود طريقة أخرى. ولهذا سيبدو له ما سيقع تحت أنظاره وما تملى فيه هازئاً في البداية، متحيراً من ثم، ومندهشاً في النهاية، معجزة لا مثيل لها. وسيحفر المشهد مكاناً له في ذاكرته، لن يمحى حتى آخر يوم في عمره.

١٥

نزع غرينوي القميء السدادة أولاً عن دمجانة روح النبيذ. وبذل جهداً شاقاً ليرفع الإناء الثقيل عالياً. كان عليه أن يرفعه إلى مستوى رأسه، فعلى ذاك المستوى كانت زجاجة المزج وفيها القمع الزجاجي، الذي صب فيه الكحول دون الاستعانة بالمعيار الزجاجي. اقشعر جسد بالديني من كل الجهل الذي أبداه الولد، فهو لم يكتف بقلب نظام صناعة العطور رأساً على عقب، بأن بدأ بالمذيب قبل المحلول المركز، بل ولم يكن جسدياً في وضع يسمح له بممارسة المهنة. ارتجف غرينوي من الجهد الجهيد وتوقع بالديني أن تسقط الدمجانة الثقيلة وتحطم كل ما على الطاولة، وتذكر الشموع، الشموع! لا قدر الله، سيحدث انفجار، سيحرق منزلي... وإذ أراد الانقضاض على الولد المجنون لينزع الدمجانة من بين يديه، أنزلها غرينوي ذاته وأعادها سليمة على الأرض وسد فتحتها. كان السائل الخفيف النقي يتأرجح في زجاجة المزج دون أن تسيل قطرة واحدة على أطرافها. استرد غرينوي أنفاسه للحظة وبدت على وجهه علامات الارتياح والرضا، كأنه أنجز أكثر مراحل العمل مشقة. وبالفعل، تلاحقت حركاته التالية بسرعة، لم تسمح لبالديني أن يستدركها بأنظاره إلا بالكاد، بصرف النظر عن أن يتمكن من تتبع تعاقب للأحداث أو مجرى نظامياً لها.

بدا له وكأن غرينوي يتتناول القوارير دون تمييز بينها، ينزع سداداتها الزجاجية، يضع محتوياتها تحت أنفه لثانية، ثم يصب من هذا، ينقط من الثانية، يسكب دفقة من الثالثة في القمع وهكذا دواليك. لم يلمس

أياً من الأدوات التي تساعد العطار على تجاوز مخاض عملية المزج المعقدة، مثل القطارة، أنبوبة الاختبار، المعيار الزجاجي، الملاعق وقضيب التحريك، لمسة واحدة. كان كمن يرشق الماء ويرشه، كطفل يطبخ من الماء والعشب والوحل خبيصاً ويزعم من ثم أنه حساء. نعم، كطفل، فكر بالديني، إنه يبدو فجأة كطفل رغم يديه المتخشبتين، رغم الندوب والتقرحات في وجهه ورغم أنفه الغليظة، كأنف العجائز. خلته أكبر سناً مما هو عليه، وها هو يبدو لي أصغر، يبدو كأنه في الثالثة أو الرابعة، مثل تلك الكائنات الإنسانية البدائية، المنغلقة على نفسها، غير المعقولة، العنيدة، التي لا تفكر إلا بذاتها، وهي التي يزعم أنها بريئة، والتي تريد الاستبداد بكل ما في الكون، وستستبد به إذا ما تركناها وجنون عظمتها ولم ننشئها على أشد الإجراءات التربوية وعلى الوجود الإنساني الكامل، القادر على التحكم في النفس. ومثل هذا الطفل العصابي يكمن أيضاً في هذا الشاب الواقف إلى الطاولة بعينين مجتمرتين، ناسياً محيطه كلياً، وغالب الظن أنه لم يعد يعلم بوجود شيء آخر في الورشة عداه وعدا هذه الزجاجات التي يأخذها بدبيبه النشيط إلى القمع ليمزج خبيصه المعتوهة والتي سيقسم الإيمان بعد ذلك أنها عطر الحب والنفس النقي، طبعاً وسيؤمن بهذا. ارتعش كيان بالديني عندما راقب ذاك الإنسان، الذي يتصرف بشناعة وثقة بالنفس بالغتين في ضوء الشموع الخفاق. ففكر، ما كان له مثيل في ما مضى من الزمان، هذا نموذج جديد للنوع البشري، لا ينشأ إلا في هذا الزمن المنحط والقذر. وإذ جاءته هذه الخاطرة، حل عليه الحزن والبؤس والغضب، كما حدث له مساء وهو يتطلع إلى المدينة المتوهجة في الغسق الأرجوان. لكن ليدعه، ليدع هذا الغلام المغتر والمتوحش يعتبر. سيمسح به الأرض بنهاية هذه المسرحية المسخرة، حتى ينسحب

متسللاً كذلك الحطام المتراكم من العدم، كما جاء. قمامة! علينا ألا نتورط في هذا الزمن الرديء مع أحد، فهو يكتظ بالقمامة، ليس إلا.

كان بالديني مغموماً باستيائه الداخلي وقرفه من الزمن، لدرجة أنه لم يدرك لماذا يعيد غرينوي فجأة سدادات كل القوارير، يسحب القمع من زجاجة المزج، يقبض على عنقها بإحدى يديه، يحكم إغلاقها بيسراه ويخضها خضاً قوياً. أما عندما لمح الزجاجة تتأرجح في الغرفة ومحتواها النفيس يرتج من البطن إلى العنق مثل عصير الأترج ثم يعود، أطلق بالديني صرخة غضب ودهشة: قف. زعق فيه: كفاية. توقف للفور. انتهى. ضع الزجاجة للحال على الطاولة ولا تلمس شيئاً، هل تفهم، لا شيء بعد. لا بد أنني جننت لأستمع مجرد الاستماع إلى ثرثرتك الفارغة. تدلني الطريقة التي تتعامل بها مع الأشياء، يدلني جلفك وغباؤك البدائي، على أنك محتال، محتال بربري وعليه ولد مقمل ووقح. أنت لا تنفع حتى لمزج عصير الليمون، لا تنفع لتكون أسفه بائع عرقسوس، فما بالك لتكون عطاراً. احمد ربك وارضى، إذا شغلك معلمك في مزج خلائط الدباغة. لا تتجرأ مرة أخرى، هل تسمعني؟ لا تتجرأ مرة أخرى على وضع قدمك على عتبة عطار. هكذا تكلم بالديني. وبينما هو يتكلم، تشرب الفضاء من حوله برائحة عطر الحب والنفس. للعطر قوة إقناع أقوى بكثير من الكلمات، أقوى من الظاهر والإحساس والإرادة. لا يمكن مقاومة قوة إقناع العطر، إنها تتغلغل فينا، كما يدخل الهواء الرئتين، إنها تعمر صدورنا، تملأنا بالتمام والكمال، لا توجد وسائل لمقاومتها.

وضع غرينوي الزجاجة، أبعد يده المبللة بالعطر عن عنقها ومسحها بحاشية قفطانه. تراجع خطوة، خطوتين وكانت تموجات الانطباق المتلبك لجسده على بعضه البعض بتأثير تقريع بالديني، كافية لتثير هواء الغرفة ناشرة في جميع أنحائها الرائحة المبتدعة للتو. لا حاجة للمزيد.

ورغم أن بالديني ما زال على هديره وضجيجه بالشكوى وشتمه، إلا أن غذاء غضبه الظاهري الاستعراضي كان يخبو داخلياً مع كل نفس يشمه. وسوس له أنه غلب، ما أدى لأن يصبح خطابه بنهايته مجرد منبرية طنانة. وعندما صمت، صمت طوال برهة، لم يكن اليقين بحاجة ليدلي غرينوي بملاحظته: إنه جاهز. كان بالديني يعلم أنه جاهز.

ورغم ذلك، رغم أن رياح عطر الحب والنفس العاصفة تهب من كل الجنبات، تقدم إلى الطاولة العتيقة ليختبره. سحب منديلاً أبيض جديداً من جيب قفطانه، من الجيب الأيسر، فتحه ونقط عليه بضع قطرات، سحبها بالقطارة من زجاجة المزج. لوح بالمنديل بيده الممدودة على آخرها ليهويه، ثم جره بالحركة الرشيقة المعهودة تحت أنفه متنشقاً العطر، وبينما هو يتركه ليخرج في طريق العودة، جلس على كرسي بلا مسند. وبغتة شحب وجهه، بعد احمراره إثر موجة الغضب التي حلت به. غير معقول، دمدم: والله غير معقول. دس أنفه في المنديل المرة تلو الأخرى وتنشق وهز رأسه مدمدماً: غير معقول. كان هذا العبير عطر الحب والنفس، كان عطر الحب والنفس دون أدنى شك، ذلك المزيج الرائحي المدهش، لدرجة يجدر فيها بالبغض، منسوخاً بدقة بالغة، لن يتمكن حتى بيليسييه من التفريق بينه وبين منتوجه.

كان بالديني العظيم صغيراً وشاحباً في جلسته ويبدو مضحكاً، بيده المنديل الذي يضغطه على أنفه كعانس مصابة بالزكام. لم يعد قادراً على الكلام نهائياً. لم يعد قادراً على قول غير معقول، إنما أصدى م، م، م... م، م، م رتيبة، بينما هو يومئ ويحدّق في محتوى زجاجة المزج. بعد برهة دنا غرينوي من الطاولة غير مسموع مثل الظل. وقال: إنه ليس عطراً جيداً، إنه ممزوج بشكل سيئ جداً، هذا العطر.

م، م، م قال بالديني وغرينوي يتابع: إذا سمحتم لي، معلّم، أريد تحسينه، أعطوني دقيقة واحدة وسأعمل لكم منه عطراً جيداً. م، م، م

دمدم بالديني مومئاً برأسه، ليس لأنه وافقه، إنما لأنه كان في وضع من الخمول والعجز، يكتفي فيه بالإيماء ونطق م، م، م. كما لم يظهر أنه سيتدخل عندما بدأ غرينوي بالمزج للمرة الثانية. للمرة الثانية صب روح النبيذ من الدمجانة في زجاجة المزج، أضافه إلى العطر الموجود فيها، للمرة الثانية سكب محتويات القوارير في القمع دون تمييز أو تعاقب بيِّن. وقبيل الانتهاء من السيرورة، لم يخض غرينوي الزجاجة هذه المرة، بل جعلها تتمرجح على مهل مثل كأس الكونياك، ربما آخذا أحاسيس بالديني المرهفة في الاعتبار، وربما لأن المحتوى كان أغلى عنده هذا المرة، إذن وقبل نهاية السيرورة، عندما كان السائل الجاهز يدور في الزجاجة، أفاق بالديني من غيبوبته وانتفض من مكانه، طبعاً ضاغطاً المنديل على أنفه، كأنه يريد الاحتماء من عدوان جديد على داخله. إنه جاهز، معلم قال غرينوي: إنه الآن عطر جيد فعلاً. نعم، نعم، طيب، طيب رد عليه بالديني ولوح له ممتعضاً بظاهر يده الحرة. ما تريدون أن تأخذوا منه عينة، قرقر غرينوي: ما تريدون معلم، ما تريدون؟ لاحقاً، أنا الآن غير مستعد لأخذ عينة... رأسي مشغولة بأشياء أخرى. رح. تعال. وتناول أحد الشمعدانات وخرج من الباب إلى الدكان. تبعه غرينوي. دخلا الدهليز الضيق، الذي يؤدي إلى مدخل الخدم. جرجر العجوز قدميه إلى المخرج، رفع المزلاج وفتح الباب. تنحى جانباً ليدع الشاب يخرج. تسمحون لي أن أعمل عندكم الآن، معلم، تسمحون لي؟ تساءل غرينوي كسيراً في وقوفه على العتبة في الخارج، مرتعشاً من جديد، متربصاً من جديد.

لا أعرف. سأفكر في الأمر. رح، قال بالديني. ثم اختفى غرينوي، ضاع دفعة واحدة، ابتلعه الظلام. ظل بالديني واقفاً يحدق في الليل، الشمعدان في يمناه وفي يسراه المنديل، كمصاب بالرعاف، واستدركه خوف مجهول. أغلق الباب سراعاً. أبعد المنديل عن وجهه، دسه في جيبه وعاد عبر الدكان إلى الورشة.

كان العطر رائعا روعة أسالت الأمواه في عينيه. لم يكن بحاجة لأخذ عينة، اكتفى بالوقوف في الورشة إلى زجاجة المزج. كان العطر عظيماً. كان مقارنة بعطر الحب والنفس مثل سيمفونية بالمقارنة مع طرطقة كمان منفرد. كان أعظم. أغلق بالديني عينيه واستيقظت فيه ذكريات جليلة. رأى نفسه شاباً يتمشى في حدائق نابولي، رأى نفسه بين ذراعي امرأة سوداء الشعر ورأى طيف شجيرة ورد على حافة نافذة يهب عليها نسيم الليل. سمع طيوراً تزقزق فرحة وسمع من البعيد موسيقى حانة ساحلية، سمع همساً دانياً، سمع كلمة أحبك وأحس بشعره يقف من اللذة، الآن، الآن في هذه اللحظة. لم يكن عبيراً يجعل الرائحة أفضل، لم يكن المراهم، لم يكن مستحضر تجميل. كان شيئاً جديداً له أن يخلق من نفسه عالماً كاملاً، عالماً غنياً ساحراً، وبه ينسى المرء كل المقززات المحيطة ويشعر بالغنى، يشعر باليسر، بالحرية والنعمى...

نزل شعر بالديني الواقف وحل على روحه سلام فاتن. أخذ الجلود، جلود الماعز من حافة الطاولة، وأخذ مشرطاً وقص الجلود. ثم وضع القطع في الحوض الزجاجي وصب عليها العطر الجديد. وضع لوحاً زجاجياً على الحوض وصب بقية العطر في زجاجتين، ألصق عليهما لصاقة بيضاء كتب عليه اسم ليل نابولي. ثم أطفأ الأنوار وذهب.

لم يبح لزوجته بشيء أثناء تناول الطعام في الأعلى. واحترز أن يذكر لها وعده المقدس، الذي قطعه على نفسه عصراً. كما لم تقل زوجته شيئاً، فقد لاحظت أنه طلق المحيا واكتفت بذلك. كما انه لم يمض إلى نوتردام ليحمد الله على قوة الشخصية. بل نسي هذا اليوم، ولأول مرة في حياته، أن يصلّي الليل.

١٦

دون أن يحيد عن دربه، أخذ في صباح اليوم التالي وجهة مدبغة غريمال وأول ما فعله، هو دفع ثمن جلود الماعز، كامل الثمن، دون تذمر أو مساومة، ثم دعا غريمال إلى زجاجة نبيذ في حانة «تور دارجان» وابتاع منه صانعه غرينوي. من البديهي أنه لم يفش له العلة أو سر حاجته إليه، بل زعم حصوله على طلبية كبيرة لصنع الجلود المعطرة، يحتاج مستخدماً يساعده عليها، ولذا قنوعاً يؤدي له أبسط الخدمات، مثل تقطيع الجلود المعطرة والخ والخ. طلب زجاجة نبيذ أخرى وعرض عشرين فرنكاً تعويضاً عمّا يسببه له من مضايقات لفقدان غرينوي. كان مبلغ عشرين فرنكاً مبلغاً هائلاً فصافحه غريمال على الفور. ذهبا إلى المدبغة، حيث كان غرينوي بانتظارهما حاملاً صرته، دفع بالديني العشرين فرنكاً وأخذه للتو واثقاً أنه عقد أفضل صفقة في حياته.

عاد غريمال، الذي كان يعتقد من ناحيته أنه عقد أفضل صفقة في حياته، إلى حانة «تور دارجان». شرب زجاجتي نبيذ أخريين وانتقل حوالى الظهر إلى حانة «ليون دورانج» على الضفة الأخرى وشرب شرباً لم يتبين بعده طريق العودة إلى حانة «تور دارجان» في منتصف الليل، وأخذ شارع دي نونينديه بدل شارع جيفروا لانييه، وبدل أن يصل إلى جسر ماري كما توقع، وصل إلى مرسى ديزورم، حيث سقط على وجهه في الماء، كما يسقط في سرير وثير، ومات على الفور. بيد أن النهر احتاج زمناً طويلاً ليجره من الضفة الضحلة، مروراً بزوارق النقل

المربوطة إلى الحبال، إلى التيار القوي وفي الصباح الباكر كان الدباغ غريمال يسبح، بالأحرى جثته البليلة تسبح، سباحة رشيقة مع التيار نحو الغرب. وعندما عبر تحت جسر اوشانج، دون أن يصدر صوتاً ودون أن يتوقف على أعمدة الجسر، كان جان بابتيست غرينوي، الذي يعلوه بعشرين متراً، يمضي إلى سريره.

حصل غرينوي على مضجع خشبي في أقصى زوايا ورشة بالديني، لاذ إليه بالفرار بينما ولي نعمته السابق يسبح في نهر السين البارد ممدد الأطراف. غطس غرينوي في ذاته أكثر فأكثر وقد غلبه النعاس وقام بحملة مجيدة على حصنه الداخلي، رأى نفسه يقيم فيه احتفال نصر رائحي عظيماً، حفلة ماجنة تغطيها أبخرة البخور والمر، على شرفه ذاته.

١٧

باقتناء غرينوي حلّقت سمعة مصانع بالديني للعطور في جميع أنحاء البلاد، بل تجاوزت الحدود إلى أوروبا. لم يعد الناقوس الفارسي يكف عن الرنين والمالكان الحزينان عن صب الماء المعطر في دكان بالديني على جسر اوشانج.

في مسائه الأول كان على غرينوي أن يصنع دمجانة ضخمة من عطر ليل نابولي، الذي بيع منه في اليوم التالي أكثر من ثمانين قارورة. انتشر اسم العطر الجديد بسرعة الريح. تجمدت عينا شينييه في محجريهما من رؤية النقود الكثيرة وآلمه ظهره أشد الإيلام من الانحناءات العميقة، التي كان عليه أن يقوم بها، فقد ظهر في الدكان سادة كبار وسادة السادة، أو على الأقل خدم السادة الكبار وسادات السادة الكبار. بل وفتح الباب ذات مرة فتحاً فظاً، ليدخل منه تابع الكونت دارجنسون صارخاً، كما يمكن للتابع الذليل أن يصرخ، أنه يريد خمس زجاجات من العطر الجديد وظل جسد شينييه يقشعر على إثرها خشية ورهبة لمدة ربع ساعة، فقد كان الكونت دارجنسون مدير مكتب ووزير حربية جلالته، وبذلك أقوى رجال باريس.

بينما كان على شينييه أن يجذف وحيداً في وجه سيل الزبائن الجارف، استحكم بالديني وصانعه الجديد في الورشة. وبرر لشينييه الوضع الجديد بنظرية باهرة سماها تقسيم العمل وترشيده، شارحاً له أنه صبر سنيناً وسنيناً على بيليسييه وأمثاله من الذين يمرغون سمعة المهنة ويختطفون منه الزبائن ويدمرون محله، لكن صبره نفد وسيقبل التحدي

ليرد للوصوليين الصاع صاعين، ويرد عليهم بوسائلهم ذاتها، فهو سيصفعهم بعطور جديدة كل فصل، كل شهر وكل يوم، إذا دعت الحاجة وبأية عطور! قال إنه سيطوع كل قدراته الخلاقة، ولهذا فهو مضطر ليصب جل اهتمامه على إنتاج العطور، يساعده عليها مستخدم مبتدئ، بينما يحدد شينييه جهده في تسويقها. وبهذا المنهج الجديد سيتم تدشين فصل جديد في تاريخ صناعة العطور، سيكنس المنافسين من على وجه الأرض ويدر الثروة علينا، نعم، إنه يقول علينا عامداً متعمداً، فهو يفكر بأن يشرك مساعده القديم بحصة من الثروة الخيالية.

لاعتبر شينييه قبل عدة أيام خطاب معلمه علامة من علامات الخرف المبكر وتلمظ: الآن حان وقت المصح العقلي، الآن، لن يدوم الأمر طويلاً حتى يتخلى عن المحل، إلا أنه لم يعد يفكر أبداً. لم يعد لديه الوقت للتفكير، فالعمل لا يسمح بذلك. تفاقم العمل بحيث لم يعد قادراً على إفراغ الخزينة وأخذ نصيبه في المساء. لما داناه الشك في صدق معلمه لو خرج هذا من ورشته كل يوم بعطر جديد.

ويا لها من عطور. ليست عطوراً سامية، أسمى العطور فحسب، بل ودهوناً ومساحيق، صوابين، لوسيون الشعر، مياه عطرية، زيوت. . . وكل ما يعبق برائحة، صارت له رائحة مختلفة وجديدة وأطيب مما قبل. وكان الجمهور يتطاير على ما يصنعه بالديني، كل ما يصنعه، حتى على شرائط الشعر المعطرة، التي تفتق عنها خياله ذات مرة، مثل المسحورين، دون أن يلعب السعر دوراً. كل ما ينتجه بالديني يلقى النجاح، وكان النجاح مبيناً، بحيث أغمض شينييه عينيه ولم يعد يتحرى عن أسبابه، ولما صدق، حتى لو قال له أحدهم، إن المستخدم الجديد، إن العفريت ضعيف الحيلة، الذي يبيت في الورشة كالكلب ويشاهد بين الفينة والأخرى، إذا خرج المعلم، في الخلفية يغسل

الزجاجات وبنظف الهاونات، أن لهذا اللاشيء علاقة ما مع ازدهار المحل الأسطوري.

طبعاً كان العفريت خلاق كل شيء. لم يكن ما يخرج به بالديني من ورشته إلى الدكان ويتسلل من بين أيدي شينييه إلى الزبائن إلا شذرة مما يمزجه غرينوي خلف الأبواب المغلقة. لم يعد بالديني قادراً على استيفاء طيوب غرينوي حقها في الشم وصار يعاني أحياناً أليم العذاب في الاختيار بين العطور الرائعة، التي راح غرينوي يبتدعها. فقد كان للتلميذ في مدرسة السحر أن يمد جميع عطاري فرنسا بالوصفات دون أن يكرر طيباً واحداً من طيوبه، دون أن تتفتق عبقريته عن عطر تافه أو متوسط. أقصد لم يكن له أن يمدهم بالوصفات، أي الصيغ السيميائية، فقد كان يضع أنغام عطوره في البداية بنفس الفوضى السلوكية والأدبية، التي يمزج فيها مركباته بناء على هوى غير مرئي. ولكي يتمكن بالديني من فهم مسارات حركاته، فهو لن يتحكم فيها أبداً، طلب منه ذات يوم، متوسلاً ومناشداً، بأن يستخدم الميزان، المعيار الزجاجي والقطارة في عمله، بأن يكف عن اعتبار روح النبيذ مادة عطرية ويعتبرها مادة مذيبة، تضاف إلى المزيج ولا يضاف المزيج إليها وأخيراً بأن يتريث في لهوه، أن يقوم بالخطوة تلو الأخرى وئيداً، ويتباطأ كما يفعل الحرفي الحق.

سمع غرينوي وأطاع، فصار لبالديني أن يتقصى حركات يدي الساحر ويسجلها. كان يجلس جانب غرينوي بيده الريشة والورقة ويكتب، مذكرا إياه بالتريث، عدد الغرامات، عدد الدرجات على المعيار، عدد القطرات التي تسيل من كل مركب في زجاجة المزج. وبهذه الطريقة الخاصة، بتحليل عمليات المزج تالياً بتلك الوسائل التي لا يمكن المزج أصلاً بدونها، تمكن بالديني أخيراً من الحصول على

تعليمات توليف الروائح. ظلت الكيفية التي يمزج بها غرينوي عطوره مغلقة عليه، إن لم تكن معجزة، بيد أنه وضع المعجزة في وصفات على الورق وأرضى بذلك ذهنه المتعطش إلى القواعد شيئاً ما، حافظاً صورته العطرية عن العالم من الخراب.

شيئاً فشيئاً تمكن من استخراج وصفات مختلف العطور التي ابتكرها غرينوي من فمه ومنع عليه من ثم تركيب أي جديد منها دون حضوره، هو بالديني، بالورقة والريشة، دون أن يراقب السيرورة بعينيه الحارستين ويدوّنها خطوة بعد الأخرى. ثم نقل ملاحظاته، للحال العشرات من الصيغ السيميائية، بخط جميل إلى دفترين صغيرين، يخبئ أحدهما في خزانته المضادة للحريق ويحمل الآخر معه أينما ذهب، حتى في نومه، الأمر الذي ولّد فيه الأمن والاستقرار. فقد صار له، إن شاء، أن ينجز بذاته معجزات غرينوي، التي هزت كيانه عندما شمها لأول مرة. خيل إليه أنه يكبل الفوضى المبدعة والمدهشة، المنبثقة من أعماق تلميذه في مسارها الصحيح، كما هدأت واقعة أنه يشارك في عمليات الخلق مراقباً ومسجلاً لها، أنه لم يعد مجرد شاهد غبي عليها، بل قوّت من سريرته وشدت من عزمه وثقته بنفسه. بل وصار يعتقد مع الأيام أن مساهمته في نجاح الطيوب الظريفة ليست قليلة الشأن، وإذ حبسها في دفاتره وحفظها في خزانته وعلى صدره، لم يعد يدانيه أي شك أنها من بنات أفكاره.

بيد أن غرينوي استفاد أيضاً من الإجراءات الشديدة التي فرضها عليه معلمه، مع أنه في غنى عنها ولا يضطر إلى تقليب المعادلات والصيغ ليعيد تركيب عطر ما بعد أسابيع أو شهور، فهو لا ينسى الروائح أبداً، إلا أنه تعلم لغة العطارة بالاستخدام الإلزامي للميزان والمعيار الزجاجي وشعر غريزياً بأن معرفة اللغة هذه قد تفيده. وبعد عدة أسابيع حفظ غرينوي أسماء المواد العطرية في ورشة بالديني كلها، بل وصار في

وسعه تدوين الصيغ السيميائية لعطوره، كما تمكن أيضاً من تحويل الإرشادات والصيغ السيميائية الغريبة إلى مواد عطرية تفوح عبيراً. بل وأكثر، فبعد أن تعلم وللأبد التعبير عن أفكاره العطرية بالغرام والقطرة، لم يعد بحاجة إلى الخطوة التجريبية. فإذا كلفه بالديني بتركيب عطر جديد، أكان لأجل منديل معطر، لأجل صرة معطرة أو لأجل أصباغ الوجه، لا يلجأ إلى القوارير والمساحيق، بل يجلس إلى الطاولة ويكتب الصيغة مباشرة. لقد تعلم فتح فرع جديد في الطريق بين خيالاته والعطر الجاهز، ألا وهو منعطف انتاج الصيغة السيميائية. بالنسبة له كان هذا منعطفاً لا داعي له، بالنسبة للعالم، أي لبالديني، كان تقدماً هائلاً.

ظلّت معجزات غرينوي هي ذاتها، غير أن الوصفات التي عبر بها عنها، رفعت عنها الذعر، ما جاء لصالحه. فكلما أمسك غرينوي بتلابيب الحرفة وإجراءاتها وكلما تمكن من التعبير بلغة العطارة المعهودة، كلما قل خوف المعلم منه وارتيابه فيه. وللحال، ومع أن بالديني ما زال يعتبره شماماً موهوباً غير معتاد، غير أنه لم يعد يعتبره فرانغيباني الثاني، ولا حتى ساحراً عظيماً، ما در على غرينوي مزيداً من الراحة. كانت الزمالة المهنية تمويهاً يتوق إليه، بل إنه هدهد بالديني بسلوكه المثالي في وزن المحتويات، في غسيل زجاجة المزج، في التعامل الرقيق مع المنديل الأبيض، الذي تعلم هزه بنعومة وتمريره بدلال أمام أنفه مثل المعلم. بل وتعمد ارتكاب أخطاء، يلاحظها بالديني، كنسيان الترشيح، ضبط الميزان خطأ، تسجيل نسبة عالية من خضاب العنبر في صيغة سيميائية. . . ما يدعو بالديني للفت نظره إلى الخطأ، ليصححه غرينوي بمهارة عالية. وهكذا تمكن من هز بالديني في مهد خيال، حلم فيه بأن الأمور تأخذ أفضل مجرى لها، فهو لم يكن يبغي الاصطدام مع العجوز، بل التعلم منه حق العلم. ليس مزج

العطور، ليس التركيب السليم لطيب من الطيوب، طبعاً لا، فليس في العالم من يرشد غرينوي إلى جديد في هذا الحقل، ولن تكفي موفورات دكان بالديني جميعاً ليحقق العطر الذي يحلم به، فكل ما فيه من روائح ليس إلا عبثاً مقارنة بما يختزنه من روائح يسعى ليضعها قيد التنفيذ، بيد أنه يفتقر ليحقق أفكاره، وهذا ما أدركه، إلى شرطين لا محيد عنهما. أحدهما غطاء كينونة أهلية، كينونة صانع على الأقل، يستطيع بظلها الانغماس في هواه الحقيقي والوصول إلى غايته الحقيقية دون مكدرات. والشرط الآخر، امتلاك ناصية مناهج انتاج المواد العطرية، عزلها، تركيزها، حفظها، لاستغلالها من ثم استغلالاً أسمى.

الأكيد أن غرينوي كان يملك أفضل أنف في العالم، تحليلاً وابتكاراً، إلا انه لا يملك قدرة أسر الروائح واستعبادها.

١٨

لذلك استسلم طوعاً لارشادات بالديني في فنون طبخ الصابون من شحم الخنزير، خياطة القفازات من الجلود، خلط المساحيق من طحين البر ومصلحون اللوز وسحيق جذور البنفسج. فتل الشموع المعطرة من الفحم الخشبي وملح البارود ونشارة خشب الصندل. صبّر كريات التبخير الشرقية من المر، البنزول ومسحوق الكهرمان. عجن البخور، اللك المصفى، نجيل الهند والقرفة في كريات معطرة، نخل وفرز المسحوق الملوكي من أوراق الورد المطحونة، زهيرات الخزامى، لحاء شجيرة الكسكريللا. حرك الأصباغ، بيضاً وزرقاً، وصب الأقلام الدهنية، قرمزية للشفاه، غربل وشطف مساحيق الأظافر وحوار الأسنان بنكهة النعناع. مزج سوائل تجعيد الشعر المستعار وقطرات البثور للثآليل، مشحبات النمش للجلد، ومستخلص العذراء الجميلة للعيون، مرهم الذباب الاسباني للسادة وخل التعقيم للسيدات. . . مختلف المياه والمساحيق، مواد الزينة والتجميل، لكن وأيضاً خلائط التوابل والشاي، العرق، المربيات وإلى ما هنالك، باختصار ما كان لبالديني العلامة أن يعلمه، تعلمه غرينوي دون أن يبدي به اهتماماً خاصاً، لكن دون شكوى وبنجاح.

إلا أنه تابع بحمية ونشاط خاص، عندما كان بالديني يرشده في تحضير الخضاب، المستخلصات وروح النباتات. بلا كلل هرس نوى اللوز المر في المعصرة، سحق حبوب المسك، فرم بصيلات العنبر بالفرامة أو برش جذور البنفسج، ليضع الشذرات من ثم في أفضل أنواع

الكحول المركز. تعلم استخدام قمع الفرز وسيلة لفصل الزيت النقي المستخلص من قشور الأترج عن البقايا العكرة. تعلم تجفيف الأعشاب والأزهار على شبكات ساخنة في الظل وحفظ أوراق الشجر في أوعية وصناديق مغلقة بالشمع. تعلم فن إزالة دهون الشعر، صناعة النقيع، ترشيحه، تركيزه، تنقيته وتقطيره.

طبعاً لم تكن ورشة بالديني تتسع لتصنيع زيوت الأعشاب والأزهار بكميات كبيرة، كما لم تتوافر في باريس الكميات المطلوبة من النباتات الغضة. ولكن أحياناً، عندما كان حصى اللبان، القويصة، النعناع أو بذور اليانسون تتوافر في السوق بسعر زهيد، أو إذا وصلت كميات كبيرة من بصيلات السوسن الأسلي، من حشيشة الهر أو الكمون، جوز الطيب أو أزهار القرنفل المجففة، يثور عرق السيميائي في بالديني، يخرج دمجانة كبيرة، دورق التقطير النحاسي وعليه وعاء التكثيف، المسمى دمجانة رأس المسلم، كما أعلن فخوراً، التي قطر فيها الخزامى قبل أربعين عاماً في سفوح ليفوريان الجنوبية وعلى هضاب لوبيرون في الهواء الطلق. وبينما يفكك غرينوي معدات التقطير، كان بالديني يهيئ موقداً بحركات عجولة، فالتحضير السريع هو سر العمل الناجح، في حفرة، يضع عليها الإناء النحاسي وفيه بعض الماء، يضع فيه جزيئات النباتات، يسد دمجانة رأس المسلم مزدوجة الغلاف على الدعائم ويربط إليها أنبوبين، واحداً ليتدفق فيها الماء وآخر ليسيل منها. وادعى بالديني أنه أول من استخدم وسيلة التبريد هذه، قائلاً ان الناس في زمنه كانوا يبردون في الهواء الطلق، ثم نفخ في النار.

أخذ القدر يغلي تدريجاً، ثم بدأ القطير يسيل بعد لحظات من الخرطوم الثالث في دمجانة رأس المسلم إلى الأنبوب الفلورنسي، الذي وضعه بالديني تحتها، متردداً بداية في قطيرات خجولة، ومتدفقاً من ثم

في خيط هزيل. كان القطير في بدايته غير جدير بلفت الأنظار، كسائل رقيق وعكر، إلا أن الخبيص جعل ينفصل شيئاً فشيئاً، خاصة بعد تبديل الزجاجة المليئة بأخرى وتنحيتها جانباً، إلى سائلين متميزين، ماء الأزهار أو الأعشاب في الأسفل وفوقه تسبح طبقة سميكة من الزيت. وإذا طرح ماء الزهر ذي العطر الخفيف عبر صمام الأنبوب الفلورنسي، بقي الزيت النقي، الروح، أس النبات ذي الرائحة النفاذة. سُحر غرينوي بالعملية، وإذا استطاع شيء ما في الدنيا أن يثير إعجابه، فهو طريقة نزع روح الأشياء العطرية منها بالنار، بالماء والبخار ومعدّات عبقرية. بالطبع لم يكن إعجابه ظاهراً، بل كان خفياً، كإعجاب يحترق على نار هادئة. كانت الروح العطرة، الزيت الأثيري أفضل ما فيها، الشيء الوحيد الذي يهمه منها. أما البقية الباقية، الزهيرات، الأوراق، القشور، الثمرة، اللون، الجمال، النضارة وكل ما فيها من سخافات أخرى، لم تكن تهمه أبداً. كانت مجرد جراب وغلاف يرمى في الزبالة.

بين الحين والآخر، وعندما تغدو القطير نقية نقاء الماء، يرفعان الدورق عن النار، يفتحانه ويرميان منه المواد المطبوخة، التي تبدو وهنة وشاحبة، كقش مدقوق، كعظيمات الطيور الصغيرة، كخضار طبخت طويلاً، بادحة وليفية، طينية، لا تشبه الخضار التي كانتها، مقرفة كالجثث ومسلوبة الرائحة على آخرها. كانا يرميانها عبر النافذة في النهر، ثم يملآن الدورق بنباتات طازجة، يصبان عليها الماء ويعيدان الدورق إلى النار، فيبدأ القدر يغلي من جديد ويفور، وتبدأ عصارة حياة النبات تسيل من جديد في الأنبوب الفلورنسي، حتى مطلع الفجر. كان اهتمام بالديني منصباً على أوانيه وغرينوي يراقب الزجاجات، فلم يكن لهما عمل آخر حتى يبدلا النباتات.

كانا جالسين على مقاعد دوارة إلى النار، مفتونين بالبرميل الفظ، كلاهما مفتون، لكن كل منهما لدواع في نفسه. فبالديني يستمتع بجمر النار والحَمَارِ المرتعش للشعلة وللنحاس، فقد كان يعشق تقصف الخشب المحترق، قرقرة الدورق، فبهما يتذكر سالف العصر والأوان ويسبح في فضاء سعيد الذكريات. جلب من الدكان زجاجة نبيذ، فقد أعطشه اللظى، كما استعاد ذكريات النبيذ والشراب. ثم أخذ يروي حكايات عن أيام زمان، حكايات لا تنتهي، عن الحروب التي قامت على وراثة العرش الاسباني والتي خاضها مقاتلاً ضد النمسويين، على ذمته، عن الكاميزارد، الذين أقلق معهم مضجع سهوب سيفين، عن ابنة أحد البروتستانت في جبال الاستيرال، التي اشتهته مسحورة بعبير الخزامى وعن حريق الغابة، الذي كاد أن يشعله، والذي كان سيأتي على الريف كله، فقد كانت رياح الميسترال تهب آنذاك. كما تحدث عن التقطير، معيداً حكاياته، عن الحقول تحت سماء الليل، في ضوء القمر، أثناء احتساء النبيذ وصرير الجنادب، وعن قطير زيت الخزامى تلك الليلة، الزيت الناعم والقوي، الذي نال ثمناً له وزنه فضة. كما تحدث عن أوقات تعلمه المهنة في جنوا، عن سنين تجواله وعن غراس، المدينة التي يتوافر فيها العطارون كما يتوافر الإسكافيون في المدن الاخرى، وبينهم أثرياء يحيون حياة الأمراء، في بيوت فخمة بحدائق غناء، وشرفات وغرف طعام من الخشب، يتناولون فيها الطعام من صحون الخزف بملاعق ذهبية. وهكذا وهكذا.

هكذا حكايات رواها العجوز بالديني محتسياً النبيذ واحمرت وجنتاه بفعل النبيذ وفعل النار والانفعال بحكاياته. أما غرينوي الجالس في الظل، فلم يصغ إليه، لم تكن الحكايات العتيقة تهمه في شيء، فقد كان همه منصوباً على العملية الجديدة. كان يحدق دون حراك في

الأنبوب المربوط إلى الدورق والذي يسيل منه القطير في شعاعات رقيقة. وهو إذ يراقبه، تخيل نفسه دورقاً يفور وينبعث منه قطير مثل الدورق على النار، إلا أن قطيره سيكون أفضل، أحدث، أكثر مغالاة، ستكون قطيره من نباتات نادرة، زرعها في ذاته وفي ذاته تتفتح، ولا يشمها أحد غيره، لها أن تحول العالم إلى جنة عدن عطرة، قد يحتمل الحياة فيها شمياً. الحلم الذي استسلم إليه غرينوي، كان أن يصبح دورقاً عظيماً يغرق العالم بالقطير.

وبينما ينغمس بالديني، يهمزه النبيذ، في حكايات أكثر خلاعة عن الماضي السعيد ويغرق في خيالاته أعمق فأعمق، تخلى غرينوي سريعاً عن حلمه الغريب، أبعد الدورق عن مخيلته وفكر بدلاً عنه، كيف له أن يسخر معارفه المكتسبة في أهداف أقرب.

١٩

لم يدم الأمر طويلاً حتى صار خبيراً في فنون التقطير. واكتشف أن لحرارة النار التأثير الأقوى على جودة القطير وساعده في الاكتشاف أنفه أكثر مما ساعدته قواعد بالديني الصارمة. كل نبات، كل زهرة، كل نوع من الخشب، وكل ثمرة تتطلب صيرورة خاصة. فإذا كانت هذه تحتاج البخار القوي، كانت الأخرى تحتاج غلياناً متوسطاً وبعض الزهرات تمنح أفضل ما فيها، إذا تعرقت على نار هادئة. كما كان التحضير على نفس الدرجة العالية من الأهمية كالحرارة، فيمكن تقطير النعناع والخزامى حزمات حزمات، بخلاف نباتات أخرى يجب تنقيتها، تقطيعها، برشها، بردها، دقها، بل وحتى استخدام بعضها على شكل خلطة، قبل أن تصل الوعاء النحاسي. كما أن بعضها لم يستسلم للتقطير، ما بعث المرارة في قلبه.

ترك له بالديني، حالما وجد أنه متمكن من سيرورة العمل، مطلق اليد في التعامل مع الدورق واستغل غرينوي هذه الحرية أيما استغلال. فبينما يمزج طوال النهار عطوراً ومنتجات عطرية أخرى، اشتغل طوال الليل بفن التقطير الساحر في مسعاه لصناعة مواد رائحية جديدة كل الجدة، والتمكن من انتاج أقل القليل مما يعتمل في نفسه من طيوب، غير أنه لم يلق الكثير من النجاح. فلم يتمكن إلا من إنجاب زيت من زهيرات القراص وبذور الرشاد، ماء عطرياً من لحاء شجيرة بيلسان طازج وأغصان الطقسوس، ورغم أن القطير لم تعد تشبه المواد الأولية إلا بالكاد، إلا أنها جديرة بالحفظ لبذل المزيد من الجهود عليها. ثم

كانت هناك مواد فشلت عملية التقطير في استخراج عطورها ذريع الفشل. فقد حاول غرينوي تقطير عطر الزجاج، الذي لا يشعر به البشر العاديون، فجمع زجاج النوافذ والقوارير، كسره قطعاً كبيرة، شظايا ونثاراً كالغبار، دون أن ينجح أدنى نجاح. قطر النحاس، الخزف، الجلد، الحبوب وحجر الصوان. قطر التراب الخالص. قطر دماً وخشباً وسمكاً طازجاً. قطر شعره وقطر أخيراً الماء، ماء نهر السين، فقد خال أن رائحته الاستثنائية جديرة بالحفظ. ظن أنه سيقدر بوساطة الدورق على انتزاع الطيوب من كل المواد مثل الصعتر والخزامى وبذور الكمون. وجهل أن التقطير ليس إلا عملية لفصل الأرواح المختلطة إلى أجزائها الطيارة وقليلة الطيران، وأنه لا يفيد في صناعة العطور إلا لاستثناء الزيوت الأثيرية الطيارة لنباتات معينة من بقاياها عديمة الرائحة أو قليلتها. أما المواد التي يبهت زيتها الأثيري، فلا يعول على تقطيرها.

لنا، نحن أبناء هذا العصر الذين تعلمنا قواعد الفيزياء، يبدو الأمر بديهياً، أما لغرينوي فقد كان نتيجة توصل إليها بجهد جهيد وبعد سلسلة طويلة من المحاولات الفاشلة. جلس شهوراً طويلة إلى الدورق، ليلة إثر ليلة، وحاول بكل الوسائل المحتملة انتاج عطور جديدة بالتقطير، عطور لم تتواجد على الأرض قط بالتركيز الذي يبغيه ولم يتوصل علاوة على زيوت نباتية تافهة إلى أي شيء آخر. لم يستطع أن يستخرج من البئر الساحقة لتصوراته، البئر الغنية غنى فاحشاً، قطرة واحدة من روح عطر معين. ومن كل ما يتسلّح به رائحياً، لم يستطع تحقيق ذرة واحدة.

وعندما تبين له فشله، توقف عن المحاولة ومرض مرضاً قد يقضي على حياته.

٢٠

ألمّت به حمى مصحوبة بالتعرق الشديد في البداية، وبعد أيام طفحت البثور على جلده وكأن المسامات لم تعد تكفي للنضح. وتفتق جسد غرينوي عن فقاعات حمر، ينفجر الكثير منها ليفرغ محتواه ويمتلئ من جديد، ويتفاقم بعضها إلى خراجات حقيقية، تتورم حمراء وتتفتح مثل فوهات البراكين وتقذف صديدها الكثيف ودماً مخلوطاً بحمم صفراء. بدا غرينوي كشهيد يرجم من الداخل وعلى جسده مئات من التقيحات. وبالطبع قلق عليه بالديني وتضايق من خسران تلميذه القدير في لحظة يتهيأ فيها لتوسيع مشاريعه عبر حدود العاصمة، بل وعبر حدود البلاد. فالحق أن الطلبيات تكاثرت عليه ولم تأت من الأرياف فحسب، بل ومن البلاطات الأجنبية أيضاً، راجية منه إرسال بعض من الطيوب الجديدة، التي سلبت ألباب الباريسيين. وحمي بالديني، سعياً منه لتنفيذ الطلبات، لافتتاح فرع في فوبورغ سان أنطوان، مانيفاكتورة حقيقية صغيرة، حيث تصنع العطور العادية بالجملة وتعبأ في قوارير صغيرة أنيقة، تلفها فتيات صغيرات أنيقات، لترسل من ثم إلى هولندا، انكلترا والرايخ الألماني. لم تكن هكذا مخاطرة قانونية تماماً ليجرؤ عليها معلم يقطن في باريس، غير أن بالديني صار يتمتع بحماية شخصيات رفيعة، جلبتها له عطوره الفاتنة. ولم تتأتى له الحماية من مدير مكتب صاحب الجلالة وحده، بل ومن شخصيات سامية مثل السيد مدير جمارك باريس وعضو في وزارة المال الملكية ومشجعي المشاريع الاقتصادية المزدهرة على غرار السيد فيدو دو برو الذي أشار

إلى امكانية الحصول على امتياز ملكي. بيد أن أفضل ما يتوق إليه التاجر كان نوعاً من ورقة العبور، تتجاوز مختلف الوصايا الرسمية والطبقية وتعني في نهاية الأمر، الراحة الأبدية من مشاكل التجارة والضمان الأكيد للثراء الفاحش، الذي لا يمكن الطعن فيه.

ثم كان له مشروع آخر يملأ عليه حياته، أفضل المشاريع على الإطلاق، مشروع يقف على القطب الآخر من مشروع المانيفاكتورة في فوبورغ سان أنطوان، مشروع وإن لم ينتج البضاعة بالجملة، إلا أنه ينتج بضاعة يشتريها الجميع. كان ينوي ابتكار عطور شخصية لزبائن رفيعين ينتخبهم من بين زبائنه الأرفع، عطور تناسب شخصاً بذاته مثل الثياب المفصلة على المقاس، عطور لا يستخدمها إلا أولئك الأشخاص بعينهم وتحمل أسماءهم الشريفة. ففكر مثلاً في عطر ماركيزة سيرناي، عطر مارشال فيبار، عطر دوق إيغيون وهكذا. حلم بعطر المدام ماركيزة دو بومبادور، بل حتى بعطر جلالته في قارورة من اليشم الصقيل، منمقة بالذهب ويحفر على قاعدتها من الداخل جوزيبي بالديني ـ عطار. يا للروعة، سيتلازم اسمه واسم الملك على المادة عينها. إلى هذا الحد غالى بالديني في أحلامه وها هو غرينوي يصاب بالمرض، رغم أن غريمال، رحمه الله، أغلظ الأيمان، أن غرينوي خلي من الأمراض، أنه قادر على الصمود في وجه كل الأمراض، أنه سيتغلب حتى على الطاعون الأسود. ها هو يهبط عليه المرض بغتة من السماء. ماذا لو مات؟ يا للهول! إذن ستدفن معه الأحلام الزاهية عن المانيفاكتورة، عن الفتيات الصغيرات الأنيقات، عن الامتياز وعن عطر الملك.

هكذا عقد العزم على ألا يألو جهداً في إنقاذ حياة تلميذه، فأمر بنقله من المضجع الخشبي في الورشة إلى سرير نظيف في الطابق الأعلى من منزله. أمر بفرش السرير بالدمقس وساعد بيديه في حمل

المريض على السلم الضيق، رغم اشمئزازه العميق من الخرّاجات والتقيحات. أمر زوجه بطبخ حساء الدجاج بالنبيذ. أرسل في طلب أشهر الأطباء في المنطقة، طبيب اسمه بروكوب، يطالب بدفع عشرين فرنكاً مقدماً، لمجرد أن يعود المريض. جاء الطبيب، رفع الشرشف برؤوس أنامله، ألقى نظرة وحيدة على جسد غرينوي، الذي يبدو وكأن مئات الطلقات أصابته، ثم غادر الغرفة دون أن يفتح حقيبته، التي يحملها معاونه خلفه. وبدأ يقول لبالديني إن الحالة ميؤوس منها، إن المريض مصاب بضرب من ضروب الزهري، يختلط فيه الجدري الأسود بالحصبة المتقيحة، في المراحل الأخيرة. ولا داعي عنده للعلاج، لأنه لا يوجد في البدن المتفسخ، الشبيه بجثة أكثر مما بمتعض حي، مكان يمكن أن يوضع فيه حجام الفصد ورغم أن النتن الذي تأنف منه الأنوف والذي يرافق المرض عادة لا يلوح على المريض، الأمر الذي يثير الدهشة بدوره ويقدم ظاهرة غريبة من وجهة النظر العلمية البحتة، إلا أنه لا شك أبداً في وفاته خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة، وهذا ما يعرفه كما يعرف أن اسمه بروكوب. ثم طالب بعشرين فرنكاً إضافية، لمعايدته المريض والكشف عليه، منها خمسة فرنكات مستردة إذا ما استلم الجيفة بأعراضها لغرض الإطلاع عليها. ثم استأذن بالانصراف.

جنّ جنون بالديني. صرخ وندب يأساً. عضّ أصابعه بسبب الغضب من قَدَره. للمرة الثانية تفسد أحلامه بالنجاح الباهر قبل الوصول إلى الغاية بقليل. سابقاً أفسدها بيليسييه وخلانه المجرمون بابتكاراتهم والآن يفسدها عليه هذا الشاب خزينة الروائح التي لا تنضب، هذا الوضيع الذي لا يقدر بوزنه ذهباً، والذي لم يشأ أن يصاب إلا الآن، في مرحلة التوسع، بالجدري والزهري والحصبة المتقيحة في المراحل النهائية.

لماذا الآن؟ لماذا ليس بعد سنتين؟ بعد سنة؟ لاستنزفه بالديني حتذاك مثل منجم الفضة، مثل الحمار الذهبي. لكان له أن يموت آنذاك دون حرج. لكن لا، لا بد أن يموت الآن، اللعنة، خلال ثمان وأربعين ساعة.

تفكر هنيهة أن يحج من فوره إلى نوتردام ويشعل شمعة ويتضرع للعذراء القديسة لتشفي غرينوي، إلا أنه تراجع عن رأيه، فقد كان الوقت ضيقاً. ركض ليحضر حبراً وورقاً وريشة، ذب زوجه من الغرفة، متحججاً بأنه ينوي السهر على المريض شخصياً. ثم تساقط في كرسي بجانب السرير، واضعاً ورقه على ركبتيه وحاملاً الريشة المرطبة بالحبر بين أصابعه. وحاول أن ينزع من غرينوي اعترافاً عطرياً أخيراً، راجياً إياه ألا يأخذ معه بحق الله الكنوز التي يخفيها في باطنه دون آثار، أن يسلم وصيته في ساعته الأخيرة إلى أيد أمينة، حتى لا يحرم العالم من أحسن الطيوب على مدى الدهر. وهو، بالديني، سيستحضر من هذه الوصية، من معجم الصيغ، أنبل العطور على أفضل وجه ويجعلها تزدهر، سيصنع لاسم غرينوي مجداً لا يمحى أبد الدهر، بل إنه سيضع، وهنا يقسم بكل القديسين، أفضل هذه الطيوب بين قدمي الملك شخصياً في قارورة من اليشم منمقة بالذهب ويحفر عليها إهداء من جان بابتيست غرينوي ـ عطار من باريس. هكذا تكلم، بالأولى، وسوس بالديني في أذن غرينوي متضرعاً، مبتهلاً، متملقاً دون توقف. لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح. لم يلفظ غرينوي شيئاً سوى إفرازات سائلة ودماً صديداً. كان مستلقياً بصمت في الدمقس وينضح عصاراته المقرفة دون كنوزه، دون علومه، دون أدنى صيغة لعطر من العطور. لخنقه بالديني، ضربه، لعصر الدفائن النفيسة من جسده المحتضر عصراً، لو كان له بصيص من الأمل. . . ولو لم يتعارض هذا جلي التعارض مع رؤيته المسيحية عن حب الآخرين.

وهكذا هفهف بأعذب الأصوات ودلل المريض وجفف بمناديل باردة، وكم كلفه هذا، الجبين البليل والبراكين المتفجرة، ولقم بيده نبيذاً في فمه ليهمز لسانه على النطق، طوال الليل، دون جدوى. استسلم في السحر. انهار في كرسي وثير في النهاية الأخرى من الغرفة وبحلق دون غضب، إنما مستسلماً لقدره، في جسد غرينوي المحتضر هناك، في السرير، الجسد الذي لا يستطيع إنقاذه ولا نهبه، الذي لا يستطيع انتشال شيء منه وليس له إلا أن يتأمل في غرقه عاجزاً مثل قبطان يتأمل غرق سفينة تجر معها كل ثروته إلى الأعماق.

في اللحظة عينها، فتح المحتضر شفتيه وتكلم بصوت واضح وقوي، ليس فيه أي علامة من علامات الغرق القادم، سائلاً: قولوا لي معلم، هل توجد وسائل أخرى غير العصر والتقطير لاستخلاص الرائحة من الجسد؟ رد بالديني، الذي اعتقد بأن الصوت يصدر عن أوهامه أو عن العالم الآخر، آلياً: نعم توجد. فجاء صوت من السرير: ما هي؟ وفتح بالديني عينيه على وسعهما. كان غرينوي مستلقياً دون حراك، فهل تحدثت الجثة؟ ما هي؟ أعاد سؤاله، وشاهد بالديني هذه المرة حركة على شفتي غرينوي، ففكر: لقد جاءت النهاية، الآن سيسلم الروح. هذه أوهام الحمى أو سكرة الموت، فنهض ومضى إلى السرير وانحنى على المريض، الذي فتح عينيه ونظر في بالديني ذات النظرة الغريبة المتربصة، التي شمله بها عندما رآه للمرة الأولى وسأل: ما هي؟

دخلت الرحمة قلب بالديني، فلم يرغب أن يخيب الرجاء الأخير للميت وجاوب: هناك ثلاث وسائل يا بني، الأولى هي المرث الحار، الثانية هي المرث البارد والثالثة هي المرث بالتمريغ في الدهن. وهي أفضل بكثير من التقطير ويستخدمها العطارون لاستخلاص أرهف العطور، كالياسمين والورد وزهر البرتقال. وبذلك أغمض غرينوي

عينيه. انتصب بالديني بتريث، منقبض الصدر. جمع وريقاته التي لم يدون عليها حرفاً واحداً ونفخ الشمعة ليطفئها. بدأت الشمس بالشروق وشعر بالديني بالإعياء وفكر بواجب إحضار قسيس، ثم رسم علامة الصليب بيمناه سريعاً وخرج.

إلا أن غرينوي لم يمت. بل نام نوماً عميقاً وحلم أحلاماً وردية وامتص جسده عصاراته. وللحال بدأت فقاعات جلده بالنضوب، للحال بدأت ثورة براكين الصديد بالهدوء، وللحال بدأت جروحه تنغلق. واستعاد صحته خلال أسبوع.

٢١

تمنى غرينوي من أعماق قلبه أن يمضي على الفور إلى الجنوب، هنالك حيث له تعلم الوسائل الجديدة، التي تحدث عنها العجوز. لكن هذا كان مستحيلاً عليه، فلم يكن سوى صانع، أي لا شيء، وبدقة أكثر، كما روى له بالديني بعد أن تجاوز فرحته الأولى ببعث غرينوي، بدقة أكثر كان أقل من لا شيء. فالصناع الحقيقيون ذوو منبت شريف لا يعاب، ذوو قربى من الشريحة وذوو عقد لتعلم الصناعة، ما لم يكن لغرينوي شيء منه. لكن إذا شاء، قال له بالديني، مساعدته للحصول على إجازة حرفية، فسيساعده فقط لأجل موهبته غير المعتادة ولأجل سلوك مستقبلي قويم وبديع من طيبة قلبه اللانهائية، التي لا يستطيع التنكر لها، رغم أنها جلبت عليه الكثير من الكوارث.

ولتحقيق وعده احتاج بالديني، طيب القلب، زمناً وصل إلى حوالى الثلاث سنوات. وخلال هذه السنوات الثلاث حقق بالديني أحلامه بعيدة المنال. افتتح المانيفاكتورة في فوبورغ سان أنطوان، حصل عبر عطوره الخاصة على مكانة رفيعة في البلاط ونال امتيازاً ملكياً. بيعت منتجاته العطرية من بطرسبورغ إلى باليرمو وحتى كوبنهاغن. بل وتعلق الناس بإحدى مستحضرات المسك من أعمال بالديني في القسطنطينية، حيث تتوافر كفاية من الطيوب الخاصة بتلك البقاع. كانت المكاتب الفاخرة في لندن تفوح بعطور بالديني، مثلها مثل بلاط بارما، ولم يكن أمر قصر وارسو يختلف عن أمر قصر دوق ليبه ـ دوتمولد. صعد اسم بالديني، بعد أن قنع بقضاء شيخوخته في مسينا فقيراً مجدباً، في

السبعين إلى العطار الأعظم في أوروبا دون منازع وصار من أثرى أثرياء باريس.

في مطلع العام ١٧٥٦، حيث اشترى المنزل المجاور له على جسر اوشانج وخصصه للسكن، فقد امتلأ البيت القديم بالمواد العطرية والأفاويه حتى السقف. أعلم غرينوي أنه ينوي إطلاقه، لكن بثلاثة شروط. أولها، ألا يقوم هو بانتاج جميع العطور المستحضرة تحت سقف بالديني ولا يعطي صيغها لآخر. الثاني أن يترك باريس ولا يدخلها ما دام بالديني على قيد الحياة. والشرط الثالث أن يسكت على الشرطين أعلاه مطبق السكوت وعليه القسم لتنفيذ هذه الشروط بجميع القديسين، بروح أمه وبشرفه.

أقسم غرينوي، الذي لا يؤمن لا بالقديسين ولا بروح أمه ولا بشرفه، ولأقسم بكل شيء، ولوافق على المزيد من الشروط، فقد كان يريد الحصول الإجازة اللعينة، التي تمكنه من الحياة دون لفت الانتباه ومن السفر دون أن يأبه له أحد ومن العثور على عمل. وكل ما عداه سيان. وأية شروط هي، هذه التي فرضها بالديني؟ عدم دخول باريس! ما حاجته إلى باريس؟ فهو يعرفها حتى أنتن زاوية فيها، يصطحبها أينما رحل، إنه يملك باريس هذه منذ سنوات. عدم إنتاج عطر من عطور بالديني أو إعطاء صيغها لآخر؟ كأنه لا يستطيع اختراع آلاف أخرى من العطور الأجود والأفضل إن شاء! بيد أنه لا يريد، لا يريد الدخول في منافسة مع بالديني أو أي عطار آخر. طموحه ليس كسب النقود بفنه، كما لا يريد أن يعيش منه إذا وجد إمكانية أخرى. كل ما يبغيه هو التعبير عن داخله ولا شيء آخر، عن داخله الذي يعتبره أروع ما يقدمه للعالم الخارجي. ولهذا لم تكن شروط بالديني شروطاً بالنسبة لغرينوي.

انطلق في مطلع العام، في يوم من أيام أيار، في صبيحة اليوم. أعطاه بالديني كيس ظهر، قميصاً ثانياً، زوجي جوارب، مقانق كبيرة، غطاء حصان وعشرين فرنكاً وزعم أنه أعطاه أكثر مما يستحق، خاصة وأن غرينوي لم يدفع قرشاً واحداً ثمناً للعلم العميق الذي كسبه. وقال إن واجبه هو منحه ليرتين منطلقاً لحياته ولا شيء آخر، إلا أنه لا يستطيع التنكر لطيبة قلبه ولا لميوله العميقة نحو جان بابتيست غرينوي الطيب، التي تراكمت في قلبه أثناء الأعوام الماضية. أبلغه تمنياته الحارة بمستقبل سعيد خلال تجواله وذكره مرة أخرى بالوعد الذي قطعه على نفسه، وبهذا أخذه إلى مدخل الخدم، الذي استقبله عليه وأطلق سراحه. لم يصافحه، فالميول العميقة لم تبلغ هذه الدرجة، كما أنه لم يصافحه قط، ولطالما تجنب ملامسته لقرفه منه، خشية أن يصاب بعدواه، أن يتلطخ به. قال كلمة وداعاً بسرعة، طأطأ غرينوي رأسه وانكمش على نفسه وخرج. كان الشارع خالياً.

٢٢

نظر بالديني في إثره وهو يعبر الجسر إلى الجزيرة ضئيلاً، محدودباً، حاملاً الكيس على ظهره كالحدبة ويبدو من الخلف كالعجوز. وعندما انعطف على قصر البرلمان في الزقاق، فقده بالديني عن الأنظار، فشعر براحة لا مثيل لها. فهو لم يحب الولد الوقح أبداً، له بعد رحيله أن يقر بهذا. لم يشعر بشيء من الراحة طوال المدة التي قضاها غرينوي تحت سقفه وسلبه فيها بالديني أفكاره العطرية. كان يحس إحساس فاضل ينتهك حرمة لأول مرة في حياته، مقامر يلعب بوسائل غير شرعية. يقيناً كان خطر انكشاف أمره ضعيفاً والنجاح المؤمل هائلاً، لكن ضغط الأعصاب وعذاب الضمير، اللذين عاناهما، كانا أيضاً هائلين. حقاً لم يمض عليه يوم من أيام الأعوام السالفة، إلا وشعر بأنه ملاحق، أن عليه دفع جزاء تورطه مع ذلك الإنسان ولطالما ناجى ربه وجلا، يسر لي أمري، مكنني من النجاح في هذه المغامرة الخطيرة دون عقاب، يسّر لي أمري. ولطالما حدث نفسه، ليس حقاً ما أقوم به لكن الله كبير وسيغض الطرف عني، سيسامحني بكل تأكيد، فقد أسامني كثيراً من سوء العذاب في مسيرة حياتي دون مناسبة، ولن يسوءه أن يتسامح معي هذه المرة. وبما أذنبت، إن كنت مذنباً؟ هل ذنبي أني خرجت قليلا عن نظام الحرفة وادعيت لنفسي الموهبة الرائعة التي منَّ بها الله على جاهل؟ هل ذنبي أني انحرفت قليلاً عن السبيل القويم لفضائل المهنة؟ هل ذنبي أني أفعل اليوم ما لعنته بالأمس؟ هل هذه جريمة؟ يحتال الآخرون طوال حياتهم، فما يضير لو غششت بضع

سنوات من عمري، وهذا لأن الصدفة منحتني فرصة نادرة، لاتعد للغش؟ وربما لم تكن صدفة؟ عله الله أرسل الساحر إلى بيتي تعويضاً عن زمن المهانة على يد بيليسييه وشركائه المجرمين؟ عساه لم يكن قدراً علي، بل جزاء على أعمال بيليسييه؟ وهذا ما أظنه، فكيف يذل الله بيليسييه إلا إذا رفعني؟ وعليه فنعيمي وسيلة لتحقيق العدالة الإلهية ولهذا فليس لي أن أتقبله فحسب، بل وعلي ذلك، دون حياء ودون أدنى ندم. . . ولطالما جالت مثل هذه الفكر في مخيلة بالديني طوال الأعوام الماضية. صباحاً عندما ينزل الدرج الضيق إلى الدكان، مساء عندما يصعد بمحتوى صندوقه ويحصي قطع الذهب والفضة في خزانة نقوده، وليلاً عندما يرقد بجانب الهيكل العظمي المشخر لزوجته ولا يستطيع النوم خشية على سعده.

لكنه تحرر أخيراً من الأفكار السود، ولى الضيف المرعب ولن يعود إلى الأبد، لكن الغنى ظل وسيظل. وضع بالديني يده على صدره وتحسس عبر نسيج القفطان الدفتر الصغير فوق قلبه، الذي سجل فيه ستمائة صيغة، أكثر مما تستطيع أجيال من العطارين تحقيقها. وحتى لو فقد كل ثروته اليوم، سيغدو بهذا الدفتر الصغير رجلاً غنياً في بحر عام واحد. الحق، بماذا يطالب بعد؟

سقطت شعاعات شمس الصباح صفراء على جملونات المنازل قبالته وعلى وجهه دافئة. تابع بالديني النظر نحو الجنوب، إلى الطريق نحو قصر البرلمان، فقد شعر بمتعة غياب غرينوي وعزم أمراً استلهمه من العواطف الجياشة في صدره، ألا وهو أن يحج مساء يومه إلى نوتردام ويلقي بقطعة ذهبية في كيس الصدقات، يشعل ثلاث شموع ويسجد لربه حمداً على السعادة التي غمره بها والعفو من النقمة.

لسوء الحظ ثمة ما عرقله عن عزمه لمرة أخرى، فقد أشيع عصراً،

عندما كان ينوي الذهاب إلى الكنيسة، أن الانكليز أعلنوا الحرب على فرنسا. لم يكن الخبر بذاته ولذاته على مبلغ عظيم من الأهمية، لكن لأن بالديني كان بصدد تصدير شحنة من العطور إلى لندن هذه الأيام تحديداً، أجَّل زيارة نوتردام وذهب عوضاً عنها إلى المدينة ليتسقط الأنباء ويمضي بعدها إلى مانيفاكتورته في فوبورغ سان أنطوان ليلغي شحنة العطور إلى لندن موقّتا.

ولما لجأ ليلاً إلى فراشه، جاءته فكرة عبقرية، فقد نوى، نظراً إلى النزاعات المسلحة القادمة حول المستعمرات في العالم الجديد، أن يحضر عطراً جديداً يسميه شرف كيبيك، عطراً يفوح بالصمغ والنصر ويضمن له حال إلغاء صفقة انكلترا أكثر من مجرد تعويض، ما كان واثقاً منه كل الثقة.

بأثر الأفكار الناعمة في رأسه العجوز الغبي، الذي وضعه رخي البال على المخدة، التي شعر تحتها بضغط دفتر الصيغ، استغرق المعلم بالديني في النوم ولن يفيق في حياته بعدها. فقد حدثت تلك الليلة كارثة صغيرة، كان من عواقبها إزالة جميع المنازل على جميع جسور مدينة باريس بمقتضى أمر ملكي، ولو جاء متأخراً. انهار جسر اوشانج لسبب مجهول على الناحية الغربية بين القائمين الثالث والرابع. سقط منزلان بالتمام والكمال في النهر ولم ينجو من قاطنيهما أحد. ولحسن الحظ، لم يكن يقطن فيهما سوى شخصين، هما جوزيبي بالديني وزوجه تيريزا. كان الخدم يقضون أوقاتاً خارج المنزل، بإذن أو عدمه. عانى شينييه، الذي عاد إلى البيت في ساعات الصباح الباكر، بالأحرى أراد العودة إلى البيت فلم يعد البيت موجوداً، انهياراً عصبياً، فقد استسلم طوال ثلاثين عاما على أمل وحيد، هو أن يذكره بالديني، الذي ليس له من ولد أو قريب، في وصيته وريثاً له، وها الميراث يقضى عليه

دفعة واحدة، كل الميراث، المنزل، المحل، المواد الخام، الورشة وبالديني ذاته. بل وحتى الوصية، فربما أعطته بصيص أمل في ملكية المانيفاكتورة.

ضاع كل شيء، الجثث، خزانة النقود، الدفاتر التي تحوي ستمائة صيغة. وكل ما خلفه أعظم عطاري أوروبا، لم يتجاوز عطراً ممزوجاً من المسك والقرفة والخل والخزامى وآلاف المواد الأخرى، ظل يسبح طويلاً على مجرى السين من باريس حتى لو هافر.

الجزء الثاني

٢٣

بينما ينهار منزل جوزيبي بالديني، كان غرينوي يسير في الطريق إلى أورليان، تاركاً بخار المدينة الكبيرة وراء ظهره ومع كل خطوة يخطوها مبتعداً، يهبّ عليه الهواء أصفى، أنقى وأنعش، تخف كثافته ويرق. لم تعد مئات آلاف من الروائح تضطرم متراً فمتراً في تحوّلات سريعة، بل أصبح القليل منها، رائحة الشارع الرملي، رائحة المروج، رائحة التراب، النباتات، الماء، تتجول على الأرض في دروب طويلة، تهب متريثة، تروح متريثة، دون مفاجئات فظة.

ابتهج غرينوي بهذا الاسترسال ابتهاجه بالخلاص، فقد داعبت الطيوب المتهادية أنفه، وللمرة الأولى في حياته لم يعد عليه أن يتوقع استنشاق جديدٍ، غير منتظر، عدواني مع كل نفس من أنفاسه أو يخسر عزيزاً. للمرة الأولى في حياته يكاد يتنفس بحرية، دون أن يضطر للشم المترقب. نقول يكاد، فلا شيء يمر بأنف غرينوي تام الحرية. وظل فيه تحفظ غريزي ضد كل ما يأتي من الخارج ويمر عبر الأنف، وإن من غير داع. طوال حياته، حتى في تلك البرهات التي شعر فيها بمسحة من الرضا، القناعة، بل وربما السعادة، كان يفضل الزفير على الشهيق، مثلما لم يبدأ حياته بزفير مشبع بالأمل، بل بصرخة قاتلة. لكن، وبصرف النظر عن هذا القيد، وهو عنده حصار جسدي، شعر غرينوي كلما ابتعد عن باريس بالمزيد من الراحة، تنفس بخفة أكثر، تقدم بخطوات أمرح، بل وجاهد لينتصب بين الحين والآخر، فيبدو إذا شوهد من البعيد صانع حرفي عادياً، أي إنساناً طبيعياً تماماً. شعر

غرينوي بأعمق الرضا لابتعاده، ففي باريس كان يعيش كم هائل من الناس على أضيق مساحة، كما لا يحدث في مدينة أخرى من العالم. في باريس كان يعيش ستمائة، سبعمائة ألف إنسان. كانت الشوارع مكتظة بهم والمنازل معبأة من القباء إلى السقوف ولم يكن في باريس زاوية إلا ولطخها الناس، لم يبق حجر، بقعة من الأرض، إلا وتفوح منها رائحة الإنسان.

وفي البرية انكشف لغرينوي أن ما ضغط على صدره طوال ثمانية عشر عاماً كسديم رطب وحار، كان بخير الناس المقبض، الذي بدأ يفر منه. كان يتصور قبلها أن عليه تجنب العالم كله. لكن مصيبته لم تكن مع العالم، بل مع البشر. إذن يمكن الحياة مع العالم، مع عالم خال من البشر.

في اليوم الثالث لترحاله دخل حقل الجاذبية الشمية لمدينة اورليان. وقبل أن تلوح أي علامة على قرب المدينة تنشق غرينوي كثافة الإنساني في الهواء وقرر، خلافاً لمراده، تجنب مدينة اورليان، فلم يكن راغباً بإفساد ما غنمه للتو من حرية التنفس بالطقس البشري الخانق. تحاشى المدينة ووصل قرب شاتونوف إلى نهر لوار الذي عبره عند سيلي. في هذا النقطة نفذت مقانقه فاشترى جديداً، ثم انتقل إلى البرية تاركاً مجرى النهر. لم يعد يتحاشى المدن فحسب، بل والقرى والدساكر أيضاً. كان منتشياً بالهواء المترقرق والخالي من ريح الإنسان، فصار لا يدنو من مستوطنة أو مزرعة منعزلة، إلا ليتمون، يشتري خبزاً ويختفي من جديد في الغابات. وبعد عدة أسابيع لم يعد يطيق حتى مصادفة القليل من الجوالين على الطرقات النائية، لم يعد يطيق رائحة القرويين الذين يجمعون القش على البيادر. تمادى قطعان الغنم مرتعباً، ليس

خوفاً من الغنم، إنما من رائحة الرعاة. أطال طريقه عبر السهوب أميالاً إذا ما شم على بعد ساعات كتيبة خيالة مقبلة عليه، لا خشية إيقافه وسؤاله عن أوراقه أو تجنيده للحرب، على غرار صبيان الحرفيين والأفاقين، فلم يكن يعلم شيئاً عن قيام الحرب أصلا، بل لسبب وحيد أوحد، هو اشمئزازه من رائحة الخيالة الإنسانية. وهكذا حدث أن خبت خطته في الذهاب بأقصى سرعة إلى غراس، دون تصميم أو قصد. بل يمكن القول إن خطته ذابت في الحرية، مثل كل القرارات والمقاصد الأخرى. لم يعد غرينوي يرغب في الذهاب إلى مكان ما، بل أن يبتعد عن البشر أكثر فأكثر.

وفي النهاية لم يعد يتنقل إلا ليلاً. كان يتوارى نهاراً في الأدغال، ينام تحت أشجار الأجمات، في مكان ناء قدر الإمكان، متكوراً على نفسه كحيوان، مخفيا رأسه تحت غطاء الحصان الرمادي، مسمراً أنفه في ثنية مرفقه، داساً إياه في التراب، حتى لا تتمكن أي رائحة من التسلل إلى أحلامه. كان يستيقظ عند غروب الشمس، يتنسم هواء الجهات الأربع، ولا يزحف من مكمنه إلا إذا تأكد أنفه أن آخر قروي ترك الحقل وأن آخر جوال مغامر وجد نزلاً يبيت فيه قبل حلول الظلام، إلا إذا أزال الليل، بكل ما فيه من مخاطر مزعومة، الناس عن وجه الأرض، ثم يتابع رحلته. فهو لا يحتاج ما ينير له دربه. وحتى قبلاً، عندما كان يرتحل نهاراً، كان يغلق عينيه ساعات طوال ويتتبع أنفه، فالسهوب التي تعمي الأبصار، الوهج، الفجاءة وحدة الرؤية بالعين كانت تؤلمه ولم يسمح إلا لضياء القمر منارة له. فضياء القمر لا يعرف اللون ولا يدل بخفوته إلا على أطراف معالم المكان، يغطي الأرض بشيب قذر ويخنق الحياة طوال الليل. هذا العالم المسكوك كالرصاص،

الذي لا يتحرك فيه شيء إلا الريح، الذي يسقط أحياناً على الغابات الرمادية مثل الظل، العالم الذي لا يحيا فيه شيء إلا روائح الأرض الجرداء، كان العالم الأبهى في عيني غرينوي، لأنه يشبه عالم روحه.

وهكذا تابع المسير نحو الجنوب، نحو الجنوب تخميناً، فلم يتبع بوصلة مغناطيسية، بل بوصلة أنفه، التي مكنته من تفادي المدن، القرى، والمستوطنات. لم يلتق بإنسان واحد طوال أسابيع ولكان له النوم في مهد الإيمان بأنه الوحيد في العالم المظلم، أو العالم الذي ينيره ضياء القمر البارد، إن لم تلقنه البوصلة الدقيقة دروساً أخرى.

ففي الليل أيضاً بشر، في الأطراف القصية أيضاً بشر، إلا أنهم ينزوون في أوكارهم مثل الجرذان وينامون. الأرض غير طاهرة منهم، فهم ينفثون سديمهم حتى وهم نائمون، عبر نوافذهم المشرعة وشقوق مكامنهم ويلوثون الطبيعة العفيفة. كلما اعتاد غرينوي الهواء النقي، كلما ضايقته رائحة الإنسان التي ترفرف نحوه بغتة في الليل، من غير توقع، الرائحة المقيتة كنتن الروث، وأنبأته بحضور كوخ للرعاة أو الفحامين أو كهف لقطاع الطرق. ففر أبعد فأبعد متحسساً أكثر فأكثر برائحة الإنساني التي تقل فتقل. وقادته أنفه إلى مناطق أقصى فأقصى، نأته عن البشر وقربته من القطب المغناطيسي لأعمق العزلة.

٢٤

وهذا القطب، أقصى مواضع المملكة عن الإنسان، كان على جبال أوفيرني، على سفر خمسة أيام جنوب كليرمون، على فوهة بركان يقع على ارتفاع ألفي متر اسمه بلومب دي كانتال.

يتألف الجبل من صخور رصاصية عملاقة وتحيط به مرتفعات لا نهائية تحرسها أدغال كئيبة وطحلبيات كئيبة، تنبثق عن نتوءات صخرية كالأسنان المنخورة، وبعض الشجيرات المتفحمة. كانت هذه البقعة موحشة حتى في عز النهار، لا يقود إليها أفقر الرعاة، في الريف الفقير، حيواناته إليها، وفي الليل، في ضياء القمر الشاحب، يبدو الجدب الخلي كأنه من عالم آخر. وفضل سفاح اوفيرني الشهير ليبرون ذاته التسلل بين جرود سيفين حيث أمسك وقطع أربعاً على الاختباء في بلومب دي كانتال، ولما وجده أحد وما بحث عنه أحد فيها بكل تأكيد، لكنه كان سيموت أيضاً ميتة أكيدة في عزلة أبدية. في دائرة قطرها أميال حول الجبل لم يكن يعيش بشر أو حيوان حار الدم نوعاً ما، إنما فقط بعض الخفافيش والجعلان والأفاعي ولم يصعد آدمي واحد قمة الجبل منذ عشرات السنين.

وصل غرينوي الجبل في ليلة من ليالي أيار عام ١٧٥٦، وفي السحر كان واقفاً على القمة دون أن يعلم أن رحلته قد تنتهي هنا، ظاناً أنها مرحلة على الطريق نحو الهواء الأنقى، فاستدار حوله وجعل يبصر بأنفه مناظر القفر البركاني. شرقاً حيث المرتفعات الشاسعة لمنطقة سانت فلور ومستنقعات نهر ريو. شمالاً من حيث أتى وحيث تنقل أياماً بين

جبال الألب الجيرية. غرباً حيث لم يدفع له نسيم الصباح الخفيف إلا بروائح الحجارة والعشب الجاف. وجنوباً حيث تنحدر سفوح بلومب ممتدة أميالاً عديدة حتى شعاب تريير المعتمة. في كل الجهات كانت المسافة عن البشر متساوية وكل خطوة، سيان في أي جهة، تعني المزيد من القرب إليهم. دارت البوصلة على نفسها. لم تعد تؤشر. لقد وصل غرينوي هدفه. إلا أنه كان في الوقت ذاته سجيناً. ما زال واقفاً بشروق الشمس في البقعة ذاتها ويتشمم الهواء. حاول بكل جهده تشمم الجهة التي يهدده منها الإنساني والجهة المعاكسة، التي قد يفر إليها. ما دام يشك بوجود شذرة خبيئة من رائحة الإنسان. إلا أنه لم يجد شيئاً. لم يكن هناك سوى الهدوء، هدوء رائحي إذا أمكن القول. رائحة الحجارة الميتة، الشيبيات الرمادية والحشائش اليابسة، التي تهب متجانسة كنشوة خفيفة، تسود المكان ولا شيء آخر.

احتاج غرينوي زمناً طويلاً ليؤمن بما لا يشمه، فلم يكن مستعداً لسعادته وداوم شكه طويلاً، حتى اضطر لطلب العون من عينيه عندما ارتفعت الشمس، ونقب في الأفق عن أضعف إشارة على حضور الإنساني، عن سقف كوخ، عن دخان موقد، عن سياج، جسر، قطيع. وضع يديه حول أذنيه وأصاخ، عله يسمع صوت محشة أو نباح كلب أو زعيق طفل. لبث طوال اليوم في مكانه تحت اللظى على قمة بلومب دي كانتال، منقبا عن أي قرينة. وعندما غابت الشمس هدأت ثائرته وتصعد فيه شعور بالنشوة، أو صحوة الموت. لقد فك أسره من العدوان الكريه. لقد صار وحيداً فعلاً. لقد كان الإنسان الوحيد في العالم.

انطلقت منه صيحة ابتهاج عظيمة وكما يهلل تائه لمرأى أول جزيرة مأهولة بعد أسابيع طويلة من الضياع في لجة البحر، احتفى غرينوي

بوصوله إلى جبل العزلة. صرخ فرحاً. رمى عنه كيس الظهر، الغطاء، العصا ودبّ مغموراً بالسعادة، رفع يديه عالياً، رقص دائراً حول نفسه، صاح باسمه في الجهات الأربع، شد قبضتيه وهدد بهما الأرض القصية تحته والشمس الغاربة متهللاً، كأنه هو من طردها عن السماء وظل على جنونه حتى آخر الليل.

٢٥

أمضى الأيام التالية في تجهيز سكناه على الجبل، فقد تيقن أنه لن يترك الأرض المباركة سريعاً. بحث أول ما بحث عن الماء، بأنفه، ووجده في فالق تحت القمة، حيث يسيل رقيقاً على الصخور. لم يكن كثيراً، لكنه سيشبع حاجته إلى الرطوبة ليوم كامل إذا صبر على لعقه ساعة. كما وجد غذاء من السمندل والحيات، يبتلعها بالعظم والجلد بعد أن يقطع رؤوسها، علاوة على الطحلبيات. ولم يأنف من هذا الغذاء، الذي يشمئز منه الناس الطبيعيون، فهو لم يتغذ منذ أسابيع مما ينتجه الإنسان كالخبز والمقانق والجبن، بل كان يلتهم إذا شعر جوعاً كل ما يقع بين أيديه أثناء الطريق ويقدر على أكله. لم يكن ذواقة ولا يهمه طعم أو متعة، إذا كانت المتعة في شيء آخر خلاف الرائحة. كما لا تهمه الراحة ولقنع بالمبيت على الحجارة الجرداء، إلا أنه وجد مكاناً أفضل. فقد اكتشف قرب مورد الماء سرداباً يقود عبر منعرجات كثيرة إلى باطن الجبل، حتى ينتهي إلى لحد. هناك، في نهاية السرداب، كان الفراغ ضيقاً بحيث يلامس غرينوي الصخور بكتفيه، وواطئاً بحيث لا يمكنه الوقوف إلا وهو محدودب. لكنه يستطيع الجلوس والرقاد إذا ما تلوى، ما أرضى كل حاجته إلى الرفاهية. للمكان حسنات لا تقدر، ففي نهاية النفق تسود الظلمة الحالكة حتى في عز النهار، يسود سكون الموت والريح تطلق برودة رطبة وملحية. وللفور شم غرينوي، أنه لم يدخل المكان بشر من قبل، فاجتاحه شعور قريب من الرهبة والاجلال عندما استولى عليه. فرش غطاء الحصان بفائق العناية على الأرضية

وكأنه يغطي به مذبح كنيسة واستلقى عليه. وشعر بالنعيم، فقد كان يرقد على أعلى جبال فرنسا، خمسين متراً تحت سطح الأرض، كمن يرقد في قبره. لم يشعر بمثل هذه الطمأنينة والأمان من قبل، فما بالك في بطن أمه. ليحترق العالم في الخارج، ليحترق، فلن يلحظه غرينوي. بدأ بالبكاء دون أن يعلم لمن يدين بالشكر على كل هذه السعادة.

لم يخرج في الأيام التالية إلا ليلعق الماء، ليتخلص من بوله وفضلاته، ليتصيد الأفاعي والسحالى، فقد كان الإمساك بها ليلاً أسهل، لأنها تختبئ تحت الألواح الصخرية، أو في جحور صغيرة، حيث يستشعرها بأنفه.

صعد في بحر الأسبوع الأول إلى القمة بضع مرات ليتنسم الأفق، إلا أن صعود القمة صار للحال عادة مقيتة أكثر منها ضرورة، فلم يشم قط خطراً. وبهذا توقف عن بعثاته الاستطلاعية وأوقف نشاطاته على العودة السريعة إلى وكره حالما أدى ما عليه أداءه. ففي الجحر كانت حياته الحقيقية وفيه يقضي عشرين ساعة في اليوم، في الظلام المطلق والسكون المطلق والجمود المطلق، على غطائه في نهاية الممر الحجري، سانداً ظهره إلى الحصى، ضاغطاً كتفيه بين الصخور ومكتفياً بذاته. كلنا سمعنا بأناس يبحثون عن العزلة، كالذين يكفرون عن خطاياهم، والذين خابوا، كالقديسين أو الأنبياء. وهؤلاء يفضلون الاستنكاف والاعتكاف في الصحراء حيث يقتاتون الجراد والعسل البري. كما يعيش بعضهم في المغاور والصوامع على جزر نائية، أو يقرفصون، وهذا أروع، في أقفاص معلقة على رؤوس الأعمدة سابحين في الفضاء. وهم يفعلون ما يفعلوه ليدنو من الله. يقتلون رغباتهم الجسدية ويكفرون عن ذنوبهم، يفعلون ذلك تقرباً لوجه الله أو ينتظرون شهوراً وسنين لتوحي لهم العزلة برسالة إلهية، يهرعون لنشرها بين

البشر. أما غرينوي فلم يعتزل البشر لكل هذا. فهو لا يعرف الله، لا يكفر عن خطيئة أو ينتظر بشارة، إنما استنكف لأجل ذاته، استنكف ليدنو من ذاته. سبح في كينونته الذاتية، التي لا يعكر صفوها شيء بعد ووجد ذلك رائعاً. كجثة كان يستلقي في الجحر الحجري، يتنفس بالكاد، يخفق قلبه بالكاد ورغم هذا يحيا حياة مليئة وماجنة، كما لم يعشها رجل في الدنيا.

٢٦

دارت أحداث المجون، من يتوقع غير ذلك، في امبراطوريته الداخلية، التي دفن فيها كل ما صادفه من روائح منذ ولادته. ولكي يتهيأ لأعراسه، كان يعزم في البداية باكورة الروائح، أقصاها. يناشد البخار الرطب والعدائي لكوخ مدام غايار، رائحة يديها المتيبستين، العطنتين. نفس الأب ترير برائحة الخل الحازر. رائحة عرق المرضع جان بوسي الهستيرية، الدافئة والأمومية. نتن جثث سيميتييه ديزونيسانس. رائحة الجريمة الفائحة من أمه. كان يتقلب في نعيم التقزز والضغينة ويقف شعره من القرف الجامح. وإذا لم يكفه كل هذا البغض والضغينة كفاتح للشهية، انعطف قليلاً على محل غريمال وتناول شيئاً من نتانة الجلود النيئة وخلائط الدباغة، أو تخيل مجموع السديم الحار والرطب لستمائة ألف باريسي في لظى الصيف.

ثم يتفجّر حقده الدفين، فهذا كان هدف تمارين الإحماء، بانتعاظ محتقن ويتدفق قوياً، يهطل مدراراً على الروائح التي تجرأت على أنفه الشريف وأقلقت حضرته، كالبَرَد على حقل قمح ينزل عليها، كالإعصار يذر الداعرات ويغرقهن في طوفان عظيم ومطهر من الأمواه الرقراقة. غضبه عدل وانتقامه شديد. يا للبرهة الرائعة. كان غرينوي، الفميء، يرتجف من الوجد، يتشنج جسده بشهوانية انبساطاً وتوتراً، ليرتطم مفرق شعره هنيهة بسقف الجحر، لينخفض بعدها ويستلقي غرينوي منعتقاً ومنشرحاً. كان انقراض الروائح المقززة منعشاً، منعشاً جداً. . . وكان أكثر لقطات مشاهد مسرح عالمه الداخلي قرباً إلى قلبه، لأنها

تمنحه الإحساس الرائع بالإرهاق الحق، الذي لا يتأتى إلا عن أعمال عظيمة وبطولية. بعدها يحق له أن يرتاح مدة، بعدها يلجأ إلى السكينة مرتاح الضمير. يتمطمط، جسدياً كما يمكن له التمطمط في خربته الحجرية، أما باطنياً، على حصيرة روحه المكنسة، فكان يتمدد على طوله وينعس ويسمح لطيوب بهية أن تتلاعب بأنفه كهواء مبهّر ترسله مروج الربيع، كنسيم أيار المنعش، الذي يهب عبر طلائع الأوراق الخضراء، نفحة بحرية مريرة مثل اللوز المملح.

وينهض عصراً، نقول عصراً من باب المجاز، فلم يكن عصر أو ظهر أو مساء أو صباح، لم يكن نور ولا ظلام، لم يكن مروج الربيع ولا أوراق خضر. . . لم يكن في كون غرينوي الداخلي أي شيء إطلاقاً، كل ما فيه روائح الأشياء. ولهذا سنضطر، كنوع من الكناية، إلى الكلام عن هذا الكون كسهب، وهذه هي الكناية الملائمة والوحيدة، فلغتنا لا تكفي لوصف العالم المشموم. إذن، كان عصر، أريد القول، كان وضع وزمن في روح غرينوي، كما يسود الجنوب في نهاية القيلولة، عندما يتقشر شلل الظهيرة عن الريف ببطء وتبدأ الحياة المؤجلة تفيق. تطير اللظى الحارق، عدو الروائح الجميلة، وقضي على حلف الشياطين. كانت الجنان الداخلية خربة وعماء في فراش السكينة المغري وتنتظر مشيئة ربها.

نهض غرينوي وانتفض ليبعد النعاس عن أعضائه. قام غرينوي الداخلي العظيم، انتصب كمارد، بكل سؤدده وجلاله وكان مشهده رائعاً، للأسف دون أن يراه أحد، ونظر حوله فخوراً جباراً. نعم، هذا ملكوته، ملكوت غرينوي الفريد. الملكوت الذي خلقه غرينوي الواحد ويسوده، ويدمره إن شاء، ليعيد خلقه متى شاء، يوسعه كما شاء ويدفع عنه الأعداء بسيف النار. هنا لا مشيئة إلا مشيئته، هو، غرينوي

العظيم، القهار، غرينوي الفريد. وبعد أفنى روائح الماضي الكريهة، أراد غرينوي أن يكون عبقاً في ملكوته وسار بخطى جبارة في الممرات البور وزرع مختلف الطيوب، باسطاً يده هنا، قابضاً هناك، في الحدائق الشاسعة وأحواض الزهور الضيقة الحميمة، يبذر الحبوب أكواماً أكواماً أو يدسها حبة حبة في أماكن يصطفيها. سار غرينوي العظيم، البستاني العجول، إلى أقاصي ملكوته، ولم يبق ركن إلا ورمى فيه بذرة طيب.

وعندما رأى أنه حسن وأن الأرض جميعاً تشربت بغرينويته الألوهية، نزّل مطراً من روح النبيذ، رقيقاً ومدراراً، وكان زرع وخضار، وكانت غلال تفرح القلب. صارت الجنان غناء واغرورقت أعذاق البساتين الخفية بالرحيق وانفلقت التويجات عن براعم الزهر.

أمر غرينوي العظيم المطر ليقف، وكان أن وقف المطر. وأرسل غرينوي العظيم شمس ابتسامته الرؤوف على الأرض وكان أن تفتح بهاء ملايين الأزهار، من نهاية الملكوت إلى نهايته الأخرى، في بساط أوحد ملون، منسوج من ألوف مؤلفة من حقق الطيب النفيسة. ورأى غرينوي العظيم أنه حسن، حسن جداً. ونفخ نفخة نفَسه عبر البلاد فأرسلت الزهور المتعانقة ريحاً ومزجت ألوف أرواحها في طيب متبدل أبداً، ولكنه في تبدله لا يكف عن الفوح بالتسبيح والتطويب له، هو العظيم، الواحد، الجبار، وهو، جالساً في عرش من الرائحة ذهبي وفواح، تشمم العبق، ووجد رائحة القربان حسنة، ونزل عن عرشه مباركاً خليقته على ما حمدته به من عيون الطيب مصحوبة بالابتهاج والزغاريد. وكان مساء، والطيوب لا تزال تنتشر وامتزجت مع زرقة الليل في روائح أروع وأروع، تتعهد بمأدبة رقص سامية من الطيوب يرافقها عرض ألعاب نارية لم يشهد له مثيل.

إلا أن غرينوي العظيم تعب قليلاً فتثاءب وقال: ها قد صنعت

عظيماً وإنه ليحسن في عيني، بيد أنه وككل كمال، صار يبث فيّ الملل. أريد الاختلاء بنفسي والفوز بنهاية هذا اليوم المرهق بشيء من البهجة في حجرات قلبي.

هكذا تكلم غرينوي العظيم وبينما حاشيته الرائحية ترقص تحته وتحتفل، أقلع بجناحين مفردين عن الغيمة الذهبية عبر أرض روحه الليلية نحو بيته في القلب.

٢٧

من الممتع العودة إلى البيت. فمنصب المنتقم وخالق الأفلاك في آن منصب مرهق كفاية، كما أن الاحتفاء بعد ذلك بالشر ليس أفضل وسائل الراحة. مجهداً من وظائف الخلق الإلهي واستقبال العوام، أراد غرينوي العظيم أن يلوذ بملجأه الآمن.

كان قلبه قصراً أرجوانياً في صحراء من الصخور، خلف الهضاب، وسط واحة من البحيرات وخلف أسوار حجرية سبعة. لا يمكن الوصول إليه إلا طيراناً. فيه ألف حجرة وألف قبو وألف إيوان، بينها إيوان فيه كنبة أرجوانية، يرتاح عليها، بعد يوم مجهد، غرينوي العظيم، الذي تخلى عن عظمته وعاد ليكون غرينوي بين خاصته، أو ببساطة، جان بابتيست الطيّب. لكن في حجرات القصر رفوف من الأرضية حتى السقف عليها مختلف أنواع الروائح التي جمعها طوال حياته، الملايين منها. وفي قباء القصر براميل ألذ الطيوب في حياته، تصب إذا عتقت كفاية في زجاجات توضع في ممرات رطبة باردة، تمتد آلاف الكيلومترات، مرتبة بحسب التاريخ والأصول، وكانت كثيرة، بحيث لا تكفي حياة واحدة لاحتسائها جميعاً.

وإذ وصل جان بابتيست غرينوي الطيب أخيراً إلى البيت واستلقى على الأريكة الأرجوانية التي ذكرته بالكسل اللذيذ في الإيوان الأرجواني، أي خلع ثياب العمل إذا أردنا القول، صفق وأمر خدمه بالحضور بين يديه الكريميتين، الخدم الخفيين، غير المحسوسين، غير المسموعين وغير المشمومين، وهذا هو الأهم، أي الخدم الخياليين

بكل بساطة، وأمرهم بالذهاب إلى الحجرات وإحضار هذا الكتاب أو ذاك من مكتبة الروائح الكبيرة والذهاب إلى القبو لإحضار ما يشرب. عجل الخدم الخياليون وتشنجت معدة غرينوي أثناء الانتظار الأليم. استعجل غرينوي الشراب بغتة، كسكير واقف إلى الحانة يتغلبه خوف مفاجئ من أن يمنع عليه كأس الخمر الذي طلبه لسبب من الأسباب. ماذا لو كانت القباء والحجرات فارغة؟ ماذا لو فسد النبيذ في البراميل؟ لماذا يتأخر الخدم عليه؟ لماذا لم يأتوا؟ إنه يحتاج شرابه للفور، حالاً، فهو مدمن وسيموت إن لم يأته الشراب.

رفقاً جان بابتيست، رفقاً أيها العزيز، سيأتون، سيجلبون لك ما تتوق إليه. ها الخدم يحلقون. ها هم يحملون كتاب الروائح على صحفة خفية، ها هم يحملون الزجاجات النفيسة بأيديهم الخفية في قفازات بيض خفية، يضعونها أمامك، ببالغ الحذر، ينحنون لك وينصرفون.

وإذ يُترك لوحده، أخيراً يُترك وحيداً، يمدّ جان بابتيست يده إلى زجاجات الروائح التي تشوق إليها، يفتح الزجاجة الأولى، يملأ الكأس الأولى حتى الحافة، يرفعها إلى شفتيه ويشرب. يفرغ كأس الرائحة الباردة في جوفه، ويا لها من كأس! طيبة لتسيل الدموع في عيني جان بابتيست الطيب فرحاً وغبطة وليملأ كأسا أخرى من الرائحة، رائحة من العام ١٧٥٢، التقطها في مطلع العام قبل شروق الشمس على جسر رويال بأنفه المتوجه غرباً، حيث يأتي هواء عليل، تختلط فيه رائحة البحر برائحة الغابات وقليل من رائحة الزوارق القطرانية على الضفة. كانت رائحة نهاية أول ليلة يقضيها متسكعاً في باريس دون إذن غريمال. كانت رائحة النهار المنعشة، رائحة أول طلوع للنهار يقضيه في الحرية. آنذاك وعدته هذه الرائحة بالحرية، وعدته بحياة آخرى. كانت رائحة

ذلك الصباح، رائحة الأمل عند غرينوي، التي احتفظ بها وكان يشرب منها يومياً.

بعدما أفرغ الكأس الثانية، زالت عنه العصبية، زال عنه الشك والقلق وبعثت فيه سكينة مطلقة. أراح ظهره على الوسائد الناعمة فوق الكنبة، فتح كتاباً وبدأ يقرأ في ذاكرته. قرأ عن روائح طفولته، عن روائح المدرسة، عن روائح شوارع وزوايا المدينة، عن روائح البشر. سرت فيه رعشة، فقد كانت الروائح التي أعدمت روائح أطياف عزمها. باهتمام مقزز قرأ غرينوي في كتاب الروائح المقززة وعندما تجاوز الاشمئزاز الاهتمام، أغلق الكتاب ورماه جانباً وتناول آخر.

في هذه الأثناء كان يشرب من الطيوب النبيلة. وبعد زجاجة رائحة الأمل، فتح زجاجة من العام ١٧٤٤، مملوءة برائحة الخشب الدافئ من منزل مدام غايار. وبعد هذه شرب زجاجة مساء صيفي، زجاجة تحيطها العطور والزهور، انتخبت على طرف ساحة في سان جرمان باري عام ١٧٥٣.

اتخم بعدها بالطيوب. تراخت أعضاؤه ثقيلة على الوسائد وغشاه الخدر اللذيذ، غير أنه لم يصل بعد إلى نهاية الوليمة. ورغم أن عينيه لم تعودا قادرتين على القراءة، ورغم أن الكتاب سقط من يده، بيد أنه لم يكن راغباً بإنهاء السهرة دون أن يفرغ الزجاجة الأخيرة، الزجاجة الأروع، وفيها عطر الصبية من شارع ماريه.

شربه خاشعاً وجلس لهذه الغاية مستقيماً على الكنبة رغم صعوبة الجلوس عليه، فقد كان الإيوان الأرجواني يتأرجح ويدور حوله مع كل حركة من حركاته. وبوقفة التلميذ، ضاغطاً ركبتيه على بعضهما البعض وقدميه متجاورتين، واضعاً يسراه على فخذه اليسرى، شرب غرينوي الصغير العطر النفيس من قبو قلبه، زجاجة إثر الأخرى وتصاعد حزنه

مع كل كأس. كان يعلم أنه شرب الكثير. كان يعلم أنه لا يطيق كل هذا الخمر الرائع إلا أنه أتى على الزجاجة حتى آخرها. مضى في الممر المظلم من الشارع إلى الفناء الخلفي. مضى إلى منبع النور. كانت الصبية جالسة تقطع البرقوق الأصفر، كانت الصواريخ والألعاب النارية تفرقع في الفضاء... وضع الكأس، إلا أنه ظل متحجراً، بأثر رقة العواطف والإفراط في السكر، دقائق عديدة، دقائق طويلة، حتى زالت آخر آثار الطعم عن لسانه. حملق وشعر بفراغ في رأسه كفراغ الزجاجات أمامه. ثم سقط جانباً على الكنبة الأرجوانية وغرق بين لحظة وأختها في نوم خدر.

في الآن ذاته نام غرينوي الخارجي أيضاً على غطائه. ونوم هذا كان بدوره عميقاً كنوم غرينوي الداخلي. فلم تكن آثار الأعمال البطولية وشطط الأخير أقل إرهاقاً للأول، فهما بالنتيجة شخص واحد.

لكن عندما استيقظ، لم يستيقظ في الإيوان الأرجواني خلف الأسوار الحجرية السبع، كما لم يستيقظ في رياض الطيوب الربيعية لروحه، إنما وحيداً في الخرابة الصخرية في نهاية نفق على الأرض الصخرية وفي الظلام. وشعر بالغثيان جوعاً وعطشاً وبالبرد والبؤس، حاله حال المدمن بعد ليلة قضاها في السكر. وزحف على الأربع من الجحر. في الخارج كان وقت من أوقات النهار، غالب الظن نهاية الليل أو بدايته، لكن وهج النجوم كان يلسع عينيه كالدبابيس حتى في منتصف الليل. بدا له الهواء مغبراً، مزاً، يحرق الرئات، والطبيعة قاسية، فقد كان يرتطم بالصخور وتكوي حتى أرق الروائح أنفه التي نسيت العالم. لقد صار غرينوي القراد حساساً، مثل سرطان ترك درعه الصدفي ويبحر عارياً.

مضى إلى مورد الماء، لعق الرطوبة عن الجدار ساعة، ساعتين، ما

عذّبه أشد العذاب. وصار الزمن أبدياً، الزمن الذي يكوي جلده بالعالم الحقيقي. انتزع غرينوي بضع شذرات من الطحلبيات عن الصخور، دفعها في فمه دفعاً، وتغوط خلالها فقد كان يريد الانتهاء سريعاً، وكالمطارد، كأنه حيوان رخوي تحلق فوقه الصقور، جرى هارباً إلى مغارته في نهاية السرداب، حيث غطاؤه، وهنا وصل أخيراً إلى المبيت الآمن. أسند ظهره إلى الحجارة المدببة ومد ساقيه وانتظر. كان عليه المحافظة على سكون جسده، على السكون المطلق، كإناء مهدد بالطوفان لشدة خضه. تمكن تدريجاً من التحكم بأنفاسه. صارت خفقات قلبه أخف وهدأت الاضطرابات الداخلية قليلاً. بغتة أسدلت العزلة ستائرها على روحه كمرآة سوداء. أغلق عينيه. فتح باب داخله المظلم ودخل فيه، فبدأ العرض التالي من مسرح روح غرينوي.

٢٨

يوماً إثر يوم، أسبوعاً إثر أسبوع، وشهراً إثر شهر استمرّت العروض على مسرح روح غرينوي. سبع سنين استمرت العروض. وفي تلك الأثناء كانت الحرب تسود العالم الخارجي. حرب عالمية. كانت الناس تتعارك في شيليزيا وسكسونيا، في هانوفر وبلجيكا، في بومن وبومرن. كانت كتائب ملك فرنسا تموت في هسن ووستفاليا، على جزر باليريا، في الهند، على نهر المسيسيبي وفي كندا، هذا إن لم يقض عليها الطاعون في الطريق إلى هنالك. كلفت الحرب الناس مليون روح، وملك فرنسا مستعمراته والدول المتحاربة أموالاً طائلة لتقرر إنهاءها على مضض.

خلال الحرب كاد غرينوي أن يتجمد في أحد الشتاءات من دون أن يلحظ. رقد خمسة أيام في إيوانه الأرجواني وعندما أفاق في السرداب، لم يقدر على الحركة من شدة البرد. فأغلق عينيه من جديد ليموت نوماً. بيد أن عاصفة هوجاء هبت عليه وأذابت الجليد عنه وأنقذته. ارتفعت الثلوج مرة بحيث لم يقدر على الدبيب إلى مرج الطحالب، فتغذى على الخفافيش المتجمدة في المغارة، وذات مرة سقط غراب على باب المغارة فأكله، وهذه كانت الحوادث الوحيدة التي علم بها من العالم الخارجي، وبخلافها لم يغادر جبله، لم يغادر المملكة التي أسسها في روحه. ولظل فيها حتى الموت، فلا يحتاج شيئاً، إن لم تطرأ على حياته كارثة، تنفيه عن الجبل وتبصقه إلى العالم من جديد.

٢٩

لم يكن ما جرى زلزالاً، لا، لم يكن حريقاً في الغابة ولا انهياراً ثلجياً، كما لم يكن خراباً حل بسردابه. لم تكن الكارثة في العالم الخارجي، بل في داخله ولذا كان ألمها أمضى، فقد قطعت عليه طريقه المفضل للهروب. وجاءت في النوم، بالأحرى في الحلم، وبالأولى في خيال حلم نوم قلبه. كان مضطجعاً للنوم على الكنبة في الإيوان الأرجواني، تحيط به الزجاجات الفارغة. لقد بالغ في الشراب، بل وشرب في ختام الحفل زجاجتين من عطر الصبية حمراء الشعر. ربما تجاوز حدود طاقاته، فلم يخلُ نومه هذه المرة من الأحلام، رغم أنه عميق كالموت، بل انقضت عليه الأشباح وقطعته إرباً إرباً. لم تكن الإرب إلا مزق رائحة، مرت بأنف غرينوي في خيوط رقيقة في البداية، ثم تكاثفت وصارت غيمة. كأنه يقف وسط مستنقع يتصاعد منه الضباب. وكان الضباب يرتفع أعلى فأعلى، حتى أحاط به كدرع، تشرب به غرينوي ولم يعد له مهرب من خلل موجات الضباب. ولئلا يختنق كان عليه أن يتنفس الضباب، وكان الضباب، كما قيل، رائحة. وكان غرينوي يعرف أيضاً أي رائحة هي. كان الضباب رائحته. رائحته هو كان الضباب.

المفزع أنه، ورغم أنه يعلم أنها رائحته هو، لم يستطع شمها. لم يستطع غارقاً كلياً في ذاته أن يشم ذاته مهما فعل. وإذ تبين له هذا صاح صيحة عظيمة، كمن يحرق حياً. هدمت الصيحة جدران الإيوان الأرجوان وأسوار القصر وانطلقت من قلبه لتعبر فوق القبور

والمستنقعات والبوادي، مرت بسهوب قلبه السود كعاصفة من نار، صمت الآذان مدفوعة من فمه ومندلقة من خلال السرداب المتشقق بعيداً بعيداً، عبر ذرى سان فلور، وكأن الجبل ينفخ في الصور. ثم استيقظ غرينوي من صيحته وإذ استيقظ ضرب بيده في الهواء حوله ليفرق الضباب عديم الرائحة والذي كاد أن يخنقه. شعر بالذعر الشديد وارتعدت فرائصه خشية سكرة الموت. ولاختنق بذاته إن لم تمزق الصيحة الضباب شذراً مذراً، لمات موتاً فادحاً. ارتعش كلما فكر في الضباب وبينما هو يرتعد جالسا ويحاول لم شتات أفكاره المبلبلة، تيقن أنه يجب أن يغير حياته، وإن كان لسبب وحيد، هو أنه لا يريد خوض غمار هكذا حلم مرة أخرى. فلن ينجو في المرة الثانية.

رمى غطاء الحصان على كتفيه وزحف إلى الخارج. وفي الخارج كان الوقت ظهراً، ظهر يوم من أيام نهاية شباط، والشمس ساطعة. كانت الأرض تفوح برائحة الحجارة الرطيبة والطحالب والماء. وفي الهواء شذرات من رائحة شقائق النعمان. تربع في ثغر المغارة على الأرض فدفأته حرارة الشمس واستنشق الهواء المنعش. ما زال يرتعش من ذكرى الضباب الذي نجا منه وارتعش غبطة عندما شعر بالحرارة في ظهره. فرح بوجود العالم الخارجي، حتى لو كان مجرد مهرب. ماذا لو لم يجد العالم في مخرج السرداب؟ لم يجد ضوءاً، رائحة، لا شيء أبداً؟ لو كان الضباب المرعب في كل مكان، في الداخل والخارج؟ يا للهول.

زال الرعب شيئاً فشيئاً وتراخت قبضة الخوف وبدأ غرينوي يشعر بالأمان. استعاد برودة دمه مع زوال الشمس. ووضع سبابة ووسطى يسراه تحت أنفه وتنفس عبر ظاهر الأصابع. شم هواء الربيع الرطيب، العابق برائحة شقائق النعمان، إلا انه لم يشم شيئاً من إصبعيه. أدار يده

وجعل يتشمم الكف. شعر بحرارة اليد، إلا أنه لم يشم شيئاً، فراح يرفع كم قميصه الممزق ودس أنفه في ثنية مرفقه، عالماً أنها الموضع الذي يميز رائحة إنسان عن الآخر، إلا أنه لم يشم شيئاً. كما لم يشم شيئاً، لا من إبطه، لا من قدميه ولا من عضوه، الذي انحنى عليه قدر المستطاع. غريب! هو، غرينوي، الذي يتنسم كل إنسان على مسافة أميال، لا يستطيع شم عضوه، الذي لا يبعد بمقدار كف. لكنه لم يرتبك، بل تحدث إلى نفسه متفكراً وحصيفاً بما يلي: هذا لا يعني أني عديم الرائحة، فلكل شيء رائحة. بل يعني أني لا أشم أن لي رائحة، لأني أشم رائحتي طوال عمري يوماً بعد يوم وأن أنفي تحصنت ضد رائحتي الخاصة. لو استطعت التفريق بيني وبين رائحتي، أو على الأقل جزء منها، لأعود إليها بعد الانقطاع عن شمها، سأتمكن من شمها، إذاً من شمي، بكل تأكيد.

وطرح الغطاء ونزع أسماله، أو ما بقي من ثيابه من الخرق والشذرات، فلا بد أنها تشربت مع الزمن برائحته. وضعها في كومة على مدخل المغارة وابتعد عنها، ثم صعد، للمرة الأولى بعد سبعة أعوام، صعد قمة الجبل ووقف على نفس البقعة التي وقف عليها عندما وصل. اتجه بأنفه غرباً وترك جسده العاري للرياح تتلاعب به، فقد كان مراده أن يتهوى كلياً، أن يتضمخ كلياً بهواء الغرب، إذاً برائحة البحر والمروج الرطبة، بحيث تتغلب على رائحة جسده وتضع بذلك حاجزاً بينه، هو غرينوي، وبين ثيابه، يتمكن بعدها من الشعور برائحته. ولتنفس أقل ما يمكن من رائحته، رفع صدره عالياً، مط رقبته قدر الإمكان في وجه الرياح ومد ذراعيه خلفه. وبدا كسباح يتهيأ للقفز في الماء.

ظل على وقفته المضحكة هذه عدة ساعات، فتلون جلده الأبيض

بياض الديدان، الذي لم يعتد الشمس، بحمرة جراد البحر. ونزل إلى مغارته مساء. من البعيد شاهد كومة الثياب، أغلق أنفه قبل أن يصل إليها ولم يفتحها إلا عندما خفّض رأسه قريباً منها. وقام بالتجربة الشمية، كما تعلمها لدى بالديني. حبس الهواء وتركه ليخرج تدريجاً. وكي يتمكن من جمع الرائحة صنع من يديه ناقوساً فوق الثياب ودس أنفه فيه كمطرقة الناقوس. قام بكل ما عليه القيام به ليشم رائحة من ثيابه، ولكنه لم يجدها. لم يجد رائحته فيها. كان فيها آلاف الروائح الأخرى. رائحة الحجارة، الرمل، الطحالب، الراتنج، دم الغراب، بل وحتى رائحة المقانق التي اشتراها قبل أعوام في سيلي. كانت الثياب تحوي يوميات شمية عن الأعوام السبعة، الثمانية الماضية، إلا أنها لا تحوي رائحته، رائحة من ارتداها طوال هذه الأعوام دون أن يخلعها.

شعر ببعض القلق والخوف. غربت الشمس. كان عارياً في مدخل السرداب الذي قضى سبعة أعوام في نهايته المظلمة. كانت الريح باردة وكان يرتعش برداً، إلا أنه لم يلحظ البرد، فقد تولد فيه برد مضاد، تولد فيه خوف. لم يكن ذات الخوف الذي أتاه في الحلم، الخوف من الاختناق بالذات، الذي أراد طرحه بجميع الأثمان والذي تمكن من النجاة منه. الخوف الجديد، كان خوفه من جهل نفسه. كان نقيض الخوف الآخر. عليه أن يقطع شكوكه بيقين الرائحة ويعلم، حتى لو كان العلم مرعباً، إن كانت له رائحة أم لا. عليه أن يعلم حالاً، فوراً.

عاد إلى السرداب فغمره الظلام الحالك بعد عدة أمتار، إلا أنه وجد طريقه كما يجده في النور. فقد عبره آلاف المرات ويعرف كل خطوة وكل منعرج فيه، يشم كل النوازل الصخرية وكل الصواعد الحجرية. لم تكن الصعوبة في العثور على الطريق، الصعوبة كانت في الصراع مع ذكرى الحلم المذهل، التي تضطرم فيه كلما تقدم. لكنه شجاع

غرينوي. كافح الخوف، دون أن يعلم، بالخوف من العلم وبه تمكن من غلبة خوفه من المجهول، لأنه يعلم أن لا خيار له. عندما وصل إلى نهاية السرداب، حيث اللحد الصخري، زال عنه الخوفان. شعر بالهدوء وتوقف رأسه عن الاضطرام واحتدت أنفه كمشرط الجراح. قرفص، وضع اليدين على العينين وشم. في هذا المكان، في هذا القبر القصي عن العالم، رقد سبعة أعوام وإذا كان هناك مكان في العالم يفوح برائحته، فلا بد أنه هذا القبر. تنفس متريثاً، تفحص بدقة. انتظر حتى يطلق الحكم. قرفص ربع ساعة كاملة. كانت له ذاكرة لا يكدر لها صفو ويعلم تماماً كيف كانت رائحة المكان قبل سبعة أعوام. رائحة حجرية تفوح بالبرودة الرطبة والمالحة ونقية، بحيث لا يمكن لكائن حي، إنسان أو حيوان، أن يكون قد دخله. . . لكن رائحته ما زالت كما كانت. ظل في جلسته فترة أخرى، هادئاً كل الهدوء، مطأطأ الرأس صامتاً. ثم استدار ومضى، محدودباً في البداية ومنتصباً، عندما سمح ارتفاع السرداب بذلك، إلى الخارج.

وهناك ارتدى خرقه، كان حذاؤه متمزقاً منذ سنوات، وضع غطاءه فوق الكتفين وترك بلومب دي كانتال من ليلته متوجهاً نحو الشرق.

٣٠

كان منظره مفزعاً، شعره يصل إلى الربلة ولحيته الرقيقة إلى السرة. أظافره كمخالب الطير ومن ذراعيه وساقيه، حيث لا تكفي الأسمال لتغطية جسده، يتقشر جلده كالصدف. هرب أوائل الذين شاهدوه مذعورين، وهؤلاء كانوا قرويين يعملون في حقولهم القريبة من مدينة بييرفور. أما في المدينة نفسها فصار أعجوبة وتزاحم الناس بالمئات ليبحلقوا فيه. حسبه البعض منهم أسيراً تمكن من الفرار وقال البعض إنه ليس إنساناً حقيقياً، بل هجيناً من الإنسان والدب، ضرباً من ضروب كائنات الغابة. وزعم رجل منهم، ركب عباب البحر، أنه يبدو كأحد أفراد قبيلة هندية متوحشة في كايين، التي تقع على الناحية الأخرى من الأوقيانوس العظيم. إلا أنه فاجأ الجميع بإجازة الحرفة وفتح فمه فانطلقت منه كلمات مترنحة، فقد كانت أولى ما ينطق بها بعد سبع سنين من الانقطاع، لكنها مفهومة، مفادها أن قطاع الطرق اختطفوه أثناء تجواله وحبسوه سبع سنين في كهف. وأنه لم ير طوال الوقت لا بشراً ولا شعاع الشمس. أن يداً خفية كانت تدلي إلى مكمنه المعتم سلة فيها طعام وأنه تمكن أخيراً من الفرار متسلقاً سلماً، لا يعلم لماذا ودون أن يرى خاطفيه أو منقذه. اخترع هذه الأكاذيب، فقد بدت له الحكاية أقرب إلى التصديق من الحقيقة. وكانت فعلاً كذلك، فلم تكن أمثال هذه الحوادث نادرة الوقوع في جبال اوفيرني وجرود لانغدوك في جبال السيفين. وعلى كل حال قيدها العمدة دون اهتمام بالغ وأرسل تقريراً بالحدث إلى الماركيز تاياد اسبيناس، إقطاعي المدينة وعضو البرلمان في تولوز.

أدار الماركيز ظهره لحياة البلاط في الأربعين من عمره عائداً إلى إقطاعاته ليضحي بحياته في سبيل العلم. حبرت ريشته عملاً مهماً عن اقتصاد الأمة الحركي، اقترح فيه إلغاء جميع الضرائب على العقارات والمنتجات الزراعية وتحصيل ضريبة دخل تقدمية عوضاً عنها. أصابت مقالته من الفقراء مقتلاً وأرغمته على إبداء المزيد من النشاطات الاقتصادية. مشجعاً من نجاح كتيبه، دوَّن الماركيز بحثاً موجزاً عن تربية الفتيان والفتيات بين الخامسة والعاشرة من العمر، ثم حوّل اهتمامه بعدها إلى الاقتصاد التجريبي. وحاول، بتلقيح النباتات بمنيِّ الثيران، للحصول على هجين حيواني نباتي يدر الحليب، أي استنبات زهرة ضرعية. بعد النجاحات الأولية، التي مكنته من انتاج أجبان من حليب الأعشاب قالت عنه الأكاديمية العلمية في ليون إن طعمه شبيه بطعم جبن الماعز وإن كان أكثر مرارة، اضطر لإيقاف تجاربه بسبب التكاليف الباهظة، التي دفعها ثمناً لرش آلاف الليترات من مني الثيران على حقوله لتلقيحها. وعلى كل حال فلم يوقظ فيه الانشغال بمسائل البيولوجيا الزراعية الاهتمام بما سمي طين الحقول فقط، بل ودفعته إلى المزيد من التفكر في الأرض وعلاقتها بالمجال الحيوي عموماً.

وما إن أنهى تجاربه العملية على الزهرة الضرعية مدرة الحليب، اندفع بقضه وقضيضه وبحماسة العالم إلى كتابة مقال قوي حول العلاقة بين القرب من الأرض والطاقة الحيوية. كانت نظريته تقول، إن الحياة تتطور على ارتفاع معين عن الأرض، لأن الأرض ذاتها تطلق على الدوام غازاً عفناً اسمه محفز الموات، يعطل الطاقة الحيوية ويؤدي بها في النهاية إلى الشلل الكامل. ولهذا تسعى جميع الكائنات الحية للابتعاد عن الأرض، أي تنمو مبتعدة عنها ولا تنمو فيها، ولهذا فهي ترفع أسمى أجزائها في جهة السماء، فترفع الحبوب السنابل وتحمل

سوق الأزهار الوريقات والإنسان رأسه، ولهذا عليها أن تعود إلى الأرض إذا غلبها العمر ودمرها الغاز المميت، وهي تتحول بدورها بعد الموت إلى الغاز بفعل العفن. عندما وصل إلى سمع الماركيز أن كائناً غريباً وصل إلى بييرفور بعد قضاء سبع سنين في كهف، أي بعد أن كان محاطاً تماماً بالعنصر المحلل، التراب، لم يقدر على إخفاء فرحه العارم وأمر بإحضار غرينوي إلى معمل أبحاثه، حيث فحصه فحصاً دقيقاً ووجد برهاناً عينياً على نظريته، واثقاً أن محفز الموات تغلغل في كيان غرينوي، لدرجة أن جسده ذي الخمسة وعشرين عاماً يتضمن دلالات واضحة على الانهيار كجسد الشيوخ. وأعلن تاياد أسبيناس أن الفضل في بقاء غرينوي على قيد الحياة يعود إلى أن غذاه تألّف خلال الأسر بشكل رئيسي من النباتات المرتفعة عن الأرض، كالخبز والثمار. ولا يمكن استعادة حالته الصحية السالفة إلا بطرد المحفز من جسده كليا بوساطة الآلة المروِّحة لهواء الحياة التي اخترعها هو شخصياً ويحتفظ بها في مخازن قصره في مدينة مونبلييه، وإذا كان غرينوي مستعداً ليضع نفسه في خدمة العلم، فإنه لا يريد فقط تحريره من وباء غاز الأرض الميؤوس منه، بل وسيمنحه مبلغاً محترماً من المال...

بعد ساعتين كانا في العربة ورغم أن الطرقات في حالة يرثى لها، قطعا أربعة وستين ميلاً حتى مونبلييه في حوالى اليومين، فلم يمنع الماركيز على نفسه سعادة سوط الحوذي والأحصنة والمساعدة شخصياً في إصلاح أعطاب عريش العربة ونوابضها رغم أعوامه الستين، فلقيّته ثمينة وغبطته بالغة لتقديمها بأقصى سرعة للجمهور المثقف. لم يسمح الماركيز لغرينوي بمغادرة العربة مرة واحدة، بل أمره بالاصطبار فيها ملفوفاً بغطاء مشرب بالتراب الرطب والوحل وتناول حساء الجذور فقط، آملاً بأن يحتفظ بوباء محفز الموات الترابي على أحسن حال لأطول مدة.

ما ان وصل إلى مونبلييه حتى أمر الماركيز بإدخال غرينوي إلى قبو قصره وأرسل الدعوات إلى جميع أعضاء كلية الطب، جمعية علوم النبات، مدرسة الزراعة، رابطة السيمياء والفيزياء، المحفل الماسوني والجمعيات العلمية الأخرى، التي يبلغ تعدادها العشرات في المدينة. وبعد عدة أيام، بعد مرور أسبوع على مغادرته معتزله في الجبل، وجد غرينوي نفسه على منصة في كبرى قاعات جامعة مونبلييه أمام جمع من العلماء، تعداده بالمئات، يعتبره أعجوبة العام.

أشار إليه تاياد أسبيناس على أنه البرهان الحي على صحة نظريته عن محفز الموات الترابي. وبينما ينزع عنه أسماله خرقة خرقة، شرح الأثر المدمر الذي تركه غاز العفن على جسد غرينوي، قائلاً: هنا نجد بثوراً وندوباً أدى إليها الغاز الكاوي، هنا على الصدر نجد سرطاناً هائلاً ومحمراً في النسيج الحي نتيجة الغاز المميت، بل ونجد تشوهات محفَّزة واضحة في الهيكل العظمي، تظهر في شكل احديداب وحنف. كما أن الأعضاء الداخلية، الطحال، الكبد، الرئتان، الحوصلة الصفراوية وجهاز الهضم عانت أضراراً بليغة كما تبرهن عينة البراز التي يمكن للراغبين الاطلاع عليها في صحن موجود أمام قدمي الحالة المرضية. باختصار يمكن القول إن شلل الطاقة الحيوية وصل مرحلة متقدمة بسبب سبع سنوات من التعرض لمحفز الموات تاياد إلى درجة أن الحالة المرضية، التي يدل ظاهرها على عوارض جوهرية تشبّهه بالخلد، ما يجدر هنا ذكره، كائن أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. لكن المحاضر يتعهد بأن يعيد الحالة إلى وضع تظهر فيه علامات الشفاء الكامل لكل عين تشتهي، بوساطة معالجة مروحية مترافقة بحمية غذائية حيوية خلال ثمانية أيام، ويطالب المدعوين بالتأكد من مدى صحة تشخيصه، هذا التشخيص الذي سيكون له الدور الحاسم للبرهان على صحة نظرية محفز الموات الترابي.

لقيت المحاضرة نجاحاً منقطع النظير. صفّق الجمهور المتعلم للمحاضر تصفيقاً حاراً وتواكب للمرور بالمنصة التي يقف عليها غرينوي. ولما دقق الجميع بنظراتهم المتفحصة في المتشرد المعلب وندوبه وتشوهاته القديمة، تيقنوا من منظره المزري واعتبروا الكائن المتعفن جزئياً غير قابل للنجاة، أما هو، غرينوي، فكان يشعر بالعافية والقوة. نقر عليه بعض السادة نقرات علمية، قاسوه بمساطيرهم، نظروا في فمه، وعينيه. وتكلم إليه البعض وسألوه عن حياته في المغارة وعن وضعه الحالي، إلا أنه تبع بدقة تعليمات تلقاها من الماركيز ورد على الأسئلة بحشرجة مؤشراً بحركات خرقاء إلى حنجرته، ليعبر بذلك أن محفز الموات تاياد افترسها هي الأخرى، فلم يعد قادراً على الكلام.

وبنهاية العرض وضع تاياد أسبيناس غرينوي في قالبه الطيني من جديد وشحنه إلى مخازن قصره. وهناك حجزه بحضور أطباء مختارين من كلية الطب، في آلة مروحة هواء الحياة، وهي حجرة ضيقة، أقيمت من عوارض خشب الشربين المربوطة إلى بعضها بقوة، يضخ فيها هواء الأعالي النقي، الخالي من الغاز المميت عبر مدخنة تعلو السقف ليخرج الهواء من فتحة مغطاة بالجلد، مربوطة إلى الأرضية. كانت فرقة من الخدم تعمل على تشغيل الآلة ليل نهار، كي لا تتوقف المراوح عن الحركة. وبينما يهب الهواء المعقم المتجدد على غرينوي، قدمت إليه كل ساعة ومن خلال فتحة لها جدار مزدوج، وجبات الحمية الغذائية، المؤلفة من مغذيات تنمو بعيداً عن الأرض، كحساء الحمام، فطائر القنبر، يخنة بالوز البري، ثمار الشجر، خبز صنع خصيصاً من قمح عالي السنابل، نبيذ من البيرينيه، حليب الظباء ومخفوق البيض بالدجاج، الذي يربى على سقف القصر.

دامت فترة العلاج والاستشفاء خمسة أيام، ثم أمر الماركيز رجاله

بإيقاف المراوح وأخذ غرينوي إلى المغسل، حيث نقع في البداية عدة ساعات في حمامات ساخنة من ماء المطر، ثم غسل بصابون زيت الجوز من مدينة بوتوسي، من قمة الرأس حتى أخمص القدمين. قصت أظفاره، نظفت أسنانه بمسحوق الكلس الدولوميتي، حلقت لحيته، قص شعره ومشط وزين ورشت عليه المساحيق. أحضر حائك وإسكافي، وفصل لغرينوي قميص حريري بحواش بيض وكشكش في الأكمام، جوارب حرير، قفطان، سروال وسربال من المخمل الأزرق وحذاء من الجلد الأسود له إبزيم، غطت صناعته الدقيقة تشوه القدم اليمنى. بيديه وضع الماركيز الثالك الطلق على وجه غرينوي ذي الندوب، جعل على وجنتيه وشفتيه قرمزاً ومنح الحاجبين تقوساً نبيلاً بوساطة قلم طري من فحم خشب الزيزفون. ثم ضخ عليه عطره الخاص، الذي تغلب عليه نفحة البنفسج. ابتعد عنه عدة خطوات واحتاج زمناً طويلاً ليتمكن من التعبير عن دهشته.

وأخيراً بدأ الكلام: مسيو. أنا مندهش بي. تذهلني عبقريتي. ورغم أني لم أشك لحظة واحدة في صحة نظريتي عن الغاز القاتل، طبعاً لا، سوى أن رؤية الدليل القاطع عليها في المعالجة العملية بهذه الروعة تهزني من الأعماق. كنتم حيواناً فجعلت منكم إنساناً. إنه صنيع إلهي. عذراً على تدفق مشاعري. تقدموا إلى تلك المرآة هنالك وانظروا فيها. ستتأكدون للمرة الأولى في حياتكم أنكم إنسان. لستم إنساناً مميزاً أو بالغ الجمال، إلا أنكم على كل حال إنسان مقبول. تقدموا مسيو، انظروا إلى نفسكم وتأملوا في المعجزة التي أتممتها.

للمرة الأولى في حياة غرينوي، يقول له أحدهم مسيو. تقدم نحو المرآة ونظر فيها. لم يكن قد نظر في مرآة من قبل. رأى سيداً في ثوب أزرق فخم، بقميص أبيض وجوارب حرير فانحنى غريزياً، كما انحنى

دائماً لهكذا سادة. لكن السيد الرافل في الأثواب انحنى بدوره وعندما رفع غرينوي هامته، قام السيد الرافل بالفعل ذاته، ثم حدق الاثنان في بعضهما البعض.

لكن ما أذهل غرينوي أشد الذهول، هو أنه يبدو طبيعياً جداً. الماركيز محق، لم يكن مميزا، لم يكن جميلا، بيد أنه لم يبدو قبيحاً جداً. إنه قصير قليلاً، مائل في وقفته، خلي الوجه من التعابير، باختصار يبدو كآلاف البشر. لن يتلفت الناس إذا خرج الآن إلى الشارع. حتى هو ذاته لن يلفت انتباهه هكذا إنسان. إلا إنه شم أن هذا الإنسان، بصرف النظر عن رائحة البنفسج، لا يفوح برائحة، على غرار السيد في المرآة قبالته.

تفرق القرويون فزعا عندما رأوه قبل عشرة أيام. ووقتها لم يشعر بخلاف ما يشعر به الآن، والآن، إذ يغلق عينيه، لا يتملكه شعور مختلف عن شعوره آنذاك. تنشق الهواء الذي يتصعد من جسده وشم العطر السيء والمخمل والجلد الحديث وحذائيه، شم البزة الحريرية، المساحيق، الأصباغ، رائحة الصابون الخفيفة من مدينة بوتوسي. وبغتة أدرك أنه لم يكن حساء الحمام ولا شعوذة المراوح ما صنع منه إنسانا طبيعيا، بل إن الثياب، حلاقة الشعر وقناع مواد التجميل، هي المسؤولة وحدها عن إنسانيته. فتح عينيه بسرعة البرق ورأى السيد في المرآة يغمز له ويعبر شفتيه القرمزيتين طيف ابتسامة، كأنه يشير له إلى استلطافه. ونوعاً ما استلطف غرينوي أيضاً وجه السيد في المرآة، ذلك الكائن مرتدي ثياب الإنسان، المقنع، عديم الرائحة. وخطر له أنه، هذا إذا أحسن تزيين قناعه، قد يؤثر في العالم الخارجي، ما لم يجرؤ هو عليه. غمز للكائن ورآه ينفخ منخريه راداً له الغمز.

٣١

في اليوم التالي، وبينما يمرنه الماركيز على السكنات، الحركات وخطوات الرقص، التي عليه أداؤها أمام الجمهور، افتعل غرينوي الدوار وتظاهر بالوقوع وكأن قواه خارت وتساقط على الديوان كمن يختنق.

جنّ جنون الماركيز. صرخ بالخدم، طلب المراوح اليدوية والمحمولة وأثناء استعجال الخدم، ركع بجانب غرينوي، هواه بمنديله المضمخ برائحة البنفسج وناشده، توسل إليه أن يقف، ألا يلفظ أنفاسه الآن، بل ينتظر إذا أمكنه حتى بعد غد، فبقاء نظرية محفز الموات مرهون بحياته. تلوى غرينوي، تقلب، لهث، أَنَّ، دفع منديل الماركيز بعيداً، ثم سقط بحركة مسرحية مبالغة عن الديوان وزحف إلى أقصى ركن في الغرفة. قال وكأنه يجمع آخر قواه: أبعدوا العطر عني، أبعدوا العطر عني. إنه يقتلني وعندما عجل تاياد اسبيناس في رمي المنديل من النافذة وخلع قفطانه، الفواح بدوره برائحة البنفسج، في الغرفة المجاورة، تراجع غرينوي عن مظاهرته قليلاً وتكلم بصوت يزداد قوة، قائلاً: إن أنفه، باعتباره عطاراً، على قدر عال من الحساسية وإن عطوراً معينة كانت تثير فيه على الدوام حساسية مرضية. إنه لا يستطيع إيجاد تفسير آخر لتأثره الشديد بشذى البنفسج، وهو بحد ذاته زهر جميل، عدا أن عطر السيد الماركيز يحوي نسبة عالية من محلول جذور البنفسج المركز، الذي يفسد ولا بد مزاج شخص مصاب بآفة محفز الموات مثله. أمس، عنما تناول جرعة من العطر للمرة الأولى، اختلجت

مشاعره واعتكرت روحه، وعندما شم رائحة الجذور للمرة الثانية، اليوم، شعر وكأن أحدهم يجره إلى الجحر الخانق، الذي قضى فيه سبعة أعوام. لا بد أن طبيعته تعتل بالعطر، ولايجد تفسيراً آخر. فبعد أن منحته فنون السيد الماركيز حياة إنسانية بوساطة الهواء الخالي من الغاز المميت، يفضل أن يموت ألف مرة على أن يتعرض مرة أخرى لمحفز الموات المكروه. إن فرائصه ترتعد لمجرد ذكر عطر الجذور وهو على ثقة تامة، أنه سيستعيد عافيته، إذا سمح له الماركيز بتركيب عطر خاص يطرد رائحة البنفسج كليًا. وهو يفكر هنا بنفحة رقيقة جداً، نفحة هوائية، تتكون أساساً من مركبات تنمو بعيداً عن الأرض، مثل ماء الزهر واللوز والبرتقال وأوكاليبتوس وزيت إبر الشربين وزيت السرو. إن رشة واحدة من العطر الجديد على ثيابه وقطرتين أو ثلاثة منه على عنقه ووجنتيه، ستحصنه للأبد ضد انتكاس الحالة الأليمة، التي عاناها للتوّ. . .

ما أوردناه هنا في صيغة جميلة بضمير الغائب، حرصاً منا على فهم القارئ، كان في الحقيقة ثورة كلمات انطلقت من فم غرينوي يصحبها الارتعاش والتنهد والتباكي، قاطعها الكثير من السعال والنحنحة والأنين وضيق التنفس. ذهل الماركيز وأقنعه شرح مولاه، الذي جاء برهاناً على نظرية محفز الموات أكثر من أعراض المعاناة ذاتها. وخطر له، إن السبب لا بد أن يكمن طبعاً في عطر البنفسج، المنتوج الوضيع، القريب من الأرض، بل والمنتوج تحت الأرضي. ربما أصيب هو ذاته بالمرض، فهو يتعطر بالغاز المميت منذ سنوات، جاهلاً أن العطر القاتل يدنيه من الموت يوماً إثر يوم. النقرس، تصلب الرقبة، ارتخاء العضو الذكري، البواسير، الضغط في الأذنين، السن النخرة، أليست كل هذه الأمراض من آثار نتن جذور البنفسج الملوث بمحفز الموات؟ وهذا

الإنسان الصغير والغبي، هذا الركام من البؤس في ركن الغرفة، فتح له عينيه. تأثر الماركيز بالغ التأثر وتمنى أن يذهب إليه، أن يرفعه ويضمه إلى قلبه المتنور، لكنه خاف من عطر البنفسج في ثيابه، فصرخ في الخدم من جديد وأمرهم بإبعاد كل ما يفوح برائحة البنفسج عن القصر، بتعقيم ثيابه ومروحة هواء الحياة. كما أمر بحمل غرينوي على محفته الشخصية إلى أفضل عطار في المدينة، وهذا كان مرام غرينوي من ادعاءاته.

كان لصناعة العطور جذور عميقة في مونبلييه ورغم أن سمعتها بهتت قليلاً مقارنة بالمدينة المنافسة غراس، إلا أن كثيراً من العطارين وصانعي القفازات الجيدين ما زالوا يعيشون فيها. أعلن العطار المرموق في المدينة، المسمى رونيل، استعداده للقيام بالتضحية الكبرى ووضع محله ومشغله ساعة كاملة في خدمة صانع العطار الباريسي الغريب، والمحمول على محفة الماركيز، نظراً للعلاقات التجارية الوثيقة مع قصر ماركيز تاياد أسبيناس، حتى صار يورِّد له العطور والزيوت والصوابين. لم يطلب غرينوي شروحات مستفيضة، لم يطلب معرفة مكان المواد الأولية، مدعياً أنه سيجد طريقة متوكلاً على معارفه واحتبس في الورشة وظل فيها حوالى الساعة، بينما ذهب رونيل برفقة كبير خدم الماركيز إلى حانة ليشربا عدة أقداح من النبيذ وليستعلم عن الدافع على منع ماء البنفسج الذي اخترعه هو.

لم تكن ورشة رونيل ولا دكانه بأبهة محل بالديني لتجارة المواد العطرية آنذاك. ولم يكن لعطار متوسط أن يقوم بقفزات كبيرة اعتماداً على القليل من زيوت الزهور والأمواه والتوابل المتوافرة في الدكان، إلا أن غرينوي عرف منذ أول نفس أخذه، أن المواد المتواجدة ستكفيه لتحقيق غايته، فلم يكن راغباً في ابتكار عطر عظيم، لم يكن راغباً في

مزج ماء يكسب به الصيت كما فعل لبالديني، ماء يتجاوز بحر العادي ويجعل الناس كحيوانات أليفة. كما لم يكن هدفه عطراً من زهر البرتقال كما وعد الماركيز. كانت بغيته من المواد المتوافرة كالنارنج واوكاليبتوس وورق السر، والتغطية على العطر الذي يريد صنعه فعلاً، ألا وهو عطر الإنسان. كان يسعى للاستيلاء على رائحة الإنسان التي لا يملكها ولو عبر بديل رديء موقّتاً. طبعاً لا توجد رائحة أوحد للإنسان، تماماً مثل الوجه الإنساني الأوحد. لكل إنسان رائحته المختلفة ولا أحد يعرف هذا مثل غرينوي، الذي شم الآلاف المؤلفة من الروائح الفردية ويميز الناس منذ ولادته بروائحهم. بيد أن لرائحة الإنسان ركيزة عطرية رئيسية، بسيطة نوعاً ما، ركيزة عرقية دهنية، جبنية حامضة، ركيزة مقززة كثيراً بكليتها، تلتصق بالناس كافة على نفس الدرجة وتسبح عليها غيوم هالة فردية بعد أن تتحلل في جزئياتها.

غير أن معظم الناس لا يعون هذه الهالة، الرموز عالية التعقيد، الثابتة. معظم الناس لا يدركون أنهم يملكونها ويبذلون كل جهودهم لإخفائها تحت الملابس أو غطاء الروائح الاصطناعية، لكنهم عهدوا تلك الرائحة الأساسية، ذلك البخير الإنساني البدائي، به يحيون ويشعرون بالطمأنينة ويرون فقط فيمن يبعث جسده ذلك البخار النتن مثيلاً لهم، ليس إلا.

كان العطر الذي ابتكره غرينوي ذلك اليوم نادراً، لم يتوافر أغرب منه في العالم حتذاك. لم يفح برائحة عطر، بل برائحة إنسان يفوح برائحة. وإذا اشتم أحدهم العطر في غرفة مظلمة، سيتوهم أن إنساناً آخر يساكنه الغرفة. فإذا تضمخ به إنسان له رائحة الإنسان، سنظنه إنسانين من رائحته، أو أسوأ، لظنناه وحشاً مضاعفاً. كينونة لا نستطيع أن نثبت فيها أنظارنا بوضوح، لأنها مموهة ومضببة كصورة عن قاع بحر ترتعش عليه الأمواج.

لمحاكاة العطر الإنساني، جمع غرينوي أكثر المركبات شناعة في ورشة رونيل، من دون أن يبغي فيه كمالاً، إنما اتقاناً يكفي لخداع الآخرين. وجد براز قطة جديداً نوعاً ما في عتبة الباب المؤدي إلى الفناء، وأخذ منه مقدار نصف ملعقة ووضعه مع بضع قطرات من الخل ورشة ملح في زجاجة المزج. وجد تحت الطاولة قطعة جبنة بمقدار ظفر الإبهام، من بقايا طعام رونيل، قديمة نوعاً ما وبدأت بالتعفن وإرسال الرائحة الحادة. قشط عن غطاء علبة سردين، عثر عليها في خلفية الدكان، شيئاً له رائحة سمكية وزنخة، خلطه بالبيض الفاسد وذهب القندس والنشادر، بالمسك، ونشارة القرن وشحم الخنزير الفاسد، خلطاً متيناً، ثم صب نسبة عالية من الصمغ ومزج كل المحتويات بالكحول ونقع المزيج برهة، ثم رشحه في زجاجة ثانية. فاحت الخلطة برائحة قوية وعفنة، كرائحة المراحيض، وإذا حرك أحدهم بخارها ليمتزج بالهواء النقي، سيبدو له أنه يقضي يوماً من أيام الصيف الحارة في شارع أوفيرس، تقاطع شارع لا لينغيري، حيث تلتقي روائح الصالونات وروائح سيميتييه ديزينوسانس والمنازل المعبأة بالبشر.

سكب غرينوي على الأساس المرعب، الذي يفوح برائحة الجثث لا رائحة الإنسان، طبقة من الطيوب الزيتية المنعشة كالنعناع والخزامى والتربنتين والأترج وأوكاليبتوس وربطها سريعاً بباقة من زيوت الزهور النقية مثل الجيرانيوم والورد وزهر البرتقال والياسمين وغطاها. وبعد المزيد من إضافة الكحول وبعض الخل، كف الأساس الذي بني عليه المزيج عن ابتعاث رائحة قذرة. ضاع النتن القاتل كليًا في عبق المركبات المنعشة، حسن طيب الزهور الأصل المقزز، بل وسواه جيداً، ولم تعد رائحة التفسخ تشم، لا شيء منها أبداً. بل العكس، بعث العطر طيباً قوياً وبشوشاً كما في الحياة.

صبه غرينوي في قارورتين، سدهما وخبأهما. ثم نظف الزجاجات، الهاون، القمع، والملعقة جيداً وفركها بزيت اللوز المر ليمحو الآثار الرائحية وأخذ زجاجة مزج أخرى، ركب فيها سريعاً عطراً آخر، نسخة من الأول يتألف بدوره من مكونات منعشة ومورِّدة، إلا أن أساسه ليس من خبيص السحرة كالأول، بل تقليدياً من المسك، العنبر، الصمغ وزيت خشب الأرز. وكان للعطر رائحة تختلف كلياً عن الأول، رائحة أخف وعفيفة وغير ذي فوعة، فلم تكن فيه مركبات عطر الإنسان المختلق. لكن إذا استنشقه إنسان عادي ومزجه برائحته الخاصة، فلن تختلف رائحته عن رائحة ما خلقه غرينوي لنفسه.

وبعد أن صب العطر الثاني أيضاً في قوارير، نزع ثيابه وضمخها بالأول، ثم صب منه تحت إبطيه، بين أصابع قدميه، على عضوه، على صدره وشعره وارتدى ثيابه وترك الورشة.

٣٢

عندما وصل إلى الشارع استولى عليه خوف مفاجئ، عالماً أنه ينشر رائحة إنسانية لأول مرة في حياته. أما هو، فوجد نفسه نتناً، نتناً ومقززاً وخشي أن يجده الآخرون أيضاً نتناً وقذراً، فلم يجرؤ على الذهاب مباشرة إلى الحانة، حيث ينتظره رونيل وكبير خدم الماركيز وتصور أن تجربة الهالة في محيط يجهله أقل خطراً عليه. تسلل عبر أضيق الأزقة وأكثرها ظلمة إلى النهر، حيث يقيم الدباغون والصباغون ورشاتهم ويقومون بأعمالهم النتنة. كان يرغم نفسه على نشر رائحته في غيمة كبيرة متجمعة وعلى السير البطيء كلما مر ببوابة دار يلعب أمامها الأطفال أو تجلس العجائز. اعتاد منذ شبابه ألا يعيره الناس الذين يمرون به أي اهتمام، ليس احتقاراً، كما اعتقد قبلاً، بل لأنهم لم يلاحظوا وجوده. فلم يكن حوله مكان، لم تكن له تموجات يثيرها في الفضاء مثل الجميع. ويمكن القول، لم يكن له ظل يلقيه على وجوه الآخرين. كان الآخرون يعون وجوده هنيهة إذا اصطدم بهم في الزحام أو ظهر لهم فجأة من منعطف شارع وغالباً ما كان الشخص المقابل يتراجع قليلاً، يبحلق فيه عدة ثوان، كأنه يرى كائناً يفترض ألا يوجد، كائناً حاضراً بشكل من الأشكال، لا يمكن إنكار تواجده، ثم يبتعد عنه لينساه من فوره. . . لكن غرينوي شعر ورأى وهو في أزقة مونبلييه، أن له تأثيراً في الناس من حوله. ووخزه شعور عال بالفخار كلما رأى ذلك. عندما مر بامرأة منحنية على حافة بئر، لاحظ أنها رفعت رأسها لترى من يمرّ بها وانشغلت بعدها، بصفاء نفس، بدلوها. استدار رجل

يقف غرينوي خلفه ونظر إليه طويلاً بتطفل. ابتعد الأطفال الذين صادفهم عن طريقه، ليس خوفاً، إنما ليفسحوا له المجال ولم يفزعوا حتى وهم يخرجون من بوابات الدور راكضين ويرونه بغتة، بل مروا به ببساطة كأنهم يشعرون بقربه من بعيد. علّمته مصادفاته تقدير طاقة وأثر الهالة الجديدة بدقة أكثر. فتقدم نحو الناس بسرعة أكثر، دنا منهم في مروره أكثر. مد إحدى ذراعيه ولامس، كأنما مصادفة، ذراع أحد المارة. صدم مرة، كأنما عن غير عمد، رجلاً أراد أن يتجاوزه. وقف واعتذر. والرجل، الذي كان سيصعق لرؤياه بالأمس، تصرف وكأن شيئاً لم يكن، قبل الاعتذار، بل وابتسم قليلاً وربت على كتف غرينوي.

هجر الأزقة ودخل الساحة العامة أمام كنيسة سان بيير. كانت النواقيس تقرع والناس يتزاحمون على جانبي البوابة. فقد انتهى حفل عقد قران والناس متشوقون لرؤية العروس، فركض غرينوي أيضاً واختلط بهم حيث يتكاثرون، أراد أن يكونوا قريبين منه كجلده، أراد أن يفرك أنوفهم برائحته الشخصية ومد ذراعيه وسط الزحام الشديد وفرج ما بين ساقيه وفتح ياقة قميصه قليلاً، كي ينبعث العطر دون عوائق. غمرته السعادة الفائقة عندما لاحظ أن الآخرين لا يلاحظون شيئاً، أي شيء، أن جميع الرجال والنساء والأطفال المكتظين حوله انخدعوا بكل سهولة وأنهم استنشقوا النتن الذي اختلقه من براز القطط والأجبان والخل كرائحة مثيلة لرائحتهم وتقبلوه، هو غرينوي، بيضة الديك، في وسطهم كإنسان بين الناس.

شعر بطفل يلامس ركبتيه، صبية متسمرة بين البالغين. رفعها تكلفاً ووضعها على ذراعيه كي ترى أفضل. لم تكتف الأم بإبداء موافقتها بل وشكرته، وأما الصغيرة فتهللت أسارير وجهها فرحاً. ظل غرينوي في

حضن الجمع ربع ساعة، حاملاً طفلاً غريباً على صدره المنافق. وبينما موكب العروس يعبر، يرافقه قرع يصم الآذان وتهاليل الناس، الذين ينهمر عليهم مطر من القطع المعدنية، انطلق في غرينوي تهليل آخر، تهليل أسود، إحساس شرير بالنصر، جعله يرتعش وينتشي كمن ينتعظ وجاهد لئلا يقذفه على الناس كالسم وعصارة المرارة، ولئلا يصرخ مهلهلا في وجوههم: انظروا أنا لا أخافكم، ولا أشعر إلا بقليل من الكره نحوكم، بل أحتقركم من أعمق أعماقي، لأنكم أغبياء لدرجة النتانة، لأنكم لا شيء وأنا كل شيء. وكأنه يهزأ بهم، ضغط الطفلة على صدره، ملأ رئتيه هواء وصرخ مع الآخرين في جوقة: مرحى للعروس. تحيا العروس. يحيا الزوج الرائع.

لما ابتعد موكب العروس وبدأ الجمع يتفرق، أعاد الطفلة إلى أمها ودخل الكنيسة ليخفف من فورته ويستريح. كان هواء الكنيسة معبأ بالبخور، الذي يتصاعد في مويجات باردة من وعاءين على جانبي المذبح ويرتمي كغطاء خانق على روائح الناس اللطيفة، الذين كانوا جالسين قبل قليل. جلس غرينوي على مقعد تحت منصة الجوقة. بغتة شعر بطمأنينة عميقة. لم تكن طمأنينة سكرى كالتي شعر بها أثناء مجونه آنذاك في قصر الجبل، بل طمأنينة باردة منعشة، كالتي يلدها وعي القوة الذاتية. أدرك مدى قدراته. تمكن بأبسط الوسائل وبفضل نبوغه، من تقليد رائحة الإنسان وأصاب إصابة بالغة، بحيث انخدع بها طفل. أدرك أنه قادر على المزيد. أدرك أنه قادر على تحسين العطر. سيكون له ابتكار عطر يتفوق على رائحة الإنسان، عطر ملائكي، يعجز عن الوصف ويملك قدرات حيوية عالية، تسحر من يشمه وترغمه على حب غرينوي من القلب.

نعم، عليهم أن يحبوه إذا دخلوا دائرة عطره، عليهم ألا يتقبلوه كمثيل لهم فحسب، عليهم أن يعشقوه عشقاً جنونياً، أن يضحوا

بأنفسهم في سبيله، أن يرتجفوا ويذهلوا، عليهم أن يصرخوا ويبكوا من النعيم، دون أن يعلموا لماذا، عليهم أن يخروا على ركبهم كما يخرون تحت بخور الله البارد، إذا شموه، هو غرينوي. سيكون رب العطور القوي الجبار، كما كان في خياله، لكنه سيكون ربا في العالم الحقيقي وربا لبشر حقيقيين. وأدرك أنه قادر على ذلك. فقد يستطيع الناس أن يغمضوا عيونهم في وجه العظمة، في وجه الرعب، في وجه الجمال وأن يغلقوا آذانهم أمام الألحان أو الكلمات الخلابة، غير أنهم لا يستطيعون النفاذ من الرائحة. فالرائحة شقيقة التنفس وبها سيتغلغل في صميم البشر ولن يستطيعوا مقاومته إذا أرادوا الحياة. والرائحة تدخلهم، تدخل قلوبهم وفيها يميزون بين الاحتقار والاستحسان، بين الاشمئزاز والرغبة، بين الكراهية والحب. سيد القلوب من يسود الروائح.

هنيء البال جلس غرينوي على مقعد كنيسة سانت بيير وابتسم. لم تكن روحه ثملة عندما خطط لسيادة الناس. لم يكن في عينيه ومض الجنون ولا تقلصت عضلات وجهه. لم يفقد الرشد، بل كان صاحي الروح عاليها، عندما تساءل عن سر رغبته. وقال لنفسه إنه يريد لأنه شرير. وابتسم لمداركه وشعر بالسكينة. كان وجهه بريئا براءة إنسان سعيد.

ظل في جلسته طويلاً، يصغي بكل هدوء واستنشق جرعات عميقة من الهواء الغني بالبخور. ومن جديد مر طيف ابتسامة على شفتيه متأملا: يا لرائحة هذا الإله البائسة، يا لسوء الطيب الذي ينشره هذا الإله. إنها ليست حتى رائحة البخور الحقيقي ما ينبعث من الوعاء، إنها نسخة سيئة، يشوهها خشب الزيزفون وغبار القرفة وملح البارود. لقد خُدع هذا الإله، أو أنه مخادع، مخادع لا يختلف كثيراً عن غرينوي، إلا أنه أسوأ.

٣٣

سلب العطر الجديد لب الماركيز تاياد اسبيناس وقال إنه ذاته، بصفته مكتشف محفز الموات مندهش لرؤية الآثار المدمرة لشيء ثانوي وطيار كالعطر على الحالة العامة للفرد، ذلك بحسب تحدره من أصول قريبة من الأرض أو بعيدة عنها. وأضاف أن غرينوي، الذي كان راقداً هنا قبل ساعات شاحباً وشبه مغمى عليه، يبدو عفياً ومتفتحاً كإنسان سليم في عمره، بل ويمكن القول إنه كسب شيئاً ما يشبه الشخصية الحقيقية، هذا بصرف النظر عن موقعه الطبقي وثقافته المتواضعة. وعلى كل حال سيذكر الحدث في الفصل المخصص للحمية الغذائية الحيوية في مؤلفه الذي سينشر قريباً عن نظرية محفز الموات.

سلمه غرينوي قارورتي عطر الزهور التقليدي، فضخ منه الماركيز على نفسه وأبدى شديد إعجابه من أثر العطر، مقراً بأنه يشعر بأجنحة زهرية تنبت من كتفيه، بعد أن أثقل عليه عطر البنفسج المزعج طوال سنوات كالرصاص. وإن لم يخطئ فإن ألم الركبة يخف وكذلك طنين الأذن، وبإيجاز فإنه يشعر بنفسه يطير من الفرح وعاد عدة سنوات إلى الوراء. تقدم نحو غرينوي وعانقه وسماه أخي في محفز الموات، مردفاً أن الأمر لا يتعلق بالشريحة الاجتماعية بقدر ما يتعلق بكنية روحية خالصة في أثير فلك محفز الموات، الذي يتساوى فيه جميع البشر، وفقط فيه. كما أنه ينوي، وقال هذا متحرراً من عناق غرينوي، بمودة، من دون أي شعور بالقرف، كأنما يتحرر من مثيل له، تأسيس محفل أممي لا طبقي، هدفه التخلص الكامل من محفز الموات وتعويضه في

أقرب فرصة بمحفز الحياة الصرف ويعد منذ الآن بأن يكسب غرينوي كأول نصير في المحفل. ثم أكتب غرينوي وصفة تركيب عطر الزهور على ورقة دسها في جيبه ومنح غرينوي خمسين ليرة ذهباً.

بعد تمام الأسبوع عرض الماركيز تاياد أسبيناس مولاه مرة أخرى على منصة الجامعة. كان الازدحام هائلاً. جاء جميع سكان مونبلييه، ليس جماعة العلماء وحدها، بل وتدافع المجتمع الراقي بوجه خاص، بما فيه من نساء يتحرقن شوقاً لرؤية إنسان الكهف. ورغم أن خصوم الماركيز، خصوصاً ممثلي حلقة أصدقاء حدائق الجامعة للنباتات وأعضاء جمعية تشجيع الثقافة الزراعية، عبأوا أنصارهم، إلا أن المناسبة لقيت نجاحاً لا يضاهى. وليعيد إلى أذهان الحضور وضع غرينوي قبل أسبوع، وزع عليهم تاياد اسبيناس رسومات لكائن الكهف بكل بشاعته وإهماله، ليتداولها الجمهور. ثم أمر بإدخال غرينوي الجديد، الذي جاء في قفطان مخملي أزرق، وقميص حريري، مزيناً، حليق الشعر وعلى وجهه المساحيق. وما إن رأى النقاد طريقة مشيه، منتصباً متبختراً بخطوات ناعمة، ما إن رأوا كيف تسلق المنصة دون إغاثة، كيف انحنى وأومأ مبتسماً هنا وهناك، حتى صعقهم الصمت. وحتى أصدقاء حدائق الجامعة للنباتات صمتوا محتارين. كانت التغييرات دامغة، كانت المعجزة مبينة. فحيث قبع قبل أسبوع حيوان بري كاسر، يقف الآن إنسان متحضر حقاً على أحسن وجه.

ساد القاعة جو قدسي، وعندما استعد تاياد اسبيناس لإلقاء محاضرته، سيطر السكون المطلق. جاء من جديد على تطور نظريته في محفز الموات الترابي المعروفة جداً، ثم عدد الوسائل الآلية والحمية الغذائية المتبوعة في طرد الغاز القاتل من جسد الحالة وتعويضه بمحفز الحياة، وطالب الحضور أخيراً، أصدقاء وخصوم، بالتخلي عن معارضتهم على العلم الجديد، نظراً إلى البرهان العملي القاطع،

وبمكافحة محفز الموات الشرير بمعيته، هو تاياد اسبيناس وبفتح جميع الأبواب بوجه محفّز الحياة. وهنا مد ذراعيه ورفع عينيه إلى السماء. وقلده في هذه الحركات مغظم جمهور العلماء، وأما النساء فبكين.

كان غرينوي واقفاً على المنصة دون أن يصغي. راقب بتشف عميق أثر محفز مختلف تماماً، محفز أكثر واقعية، محفزه الشخصي. كان قد تعطر، بحسب مقتضيات القاعة، بشكل مبالغ وشعت منه هالة عطره حالماً صعد المنصة. ورآها، حقاً رآها رؤى العين، تتملك النظارة في الصفوف الأولى، تتناسل نحو الخلف وتصل بالنهاية إلى آخر المقاعد. وكانت تغير حال كل من يقع في دائرة عطره، وقلب غرينوي يتنطنط فرحاً في جوفه. تبدلت تعابير وجوه الناس دون أن يعوا، بدلوا تكلفهم ومشاعرهم. من كان يحملق فيه بداية بذهول شديد، صار ينظر إليه بعدها نظرات حنون. من كان مستنداً إلى كرسيه مسمراً فيه بجبين مقطب وزوايا فم متراخية دلالة على الأهمية، استند براحة أكثر نحو الأمام واتخذ وجهاً طفولياً مرحاً. وحتى في وجوه الخائفين، المرتعبين، الأكثر حساسية، الذين تحملوا منظره السالف بذهول ومنظره الحالي ببعض من الارتياب المطلوب، أظهروا علامات المودة، بل والاستلطاف، عندما وصلتهم رائحته.

بنهاية المحاضرة نهض الحضور وعلت القاعة عاصفة من التصفيق. عاش المحفز الحيوي. عاش تاياد اسبيناس. عاشت نظرية المحفز. يسقط الطب التقليدي، صرخ الجمهور المثقف في مونبلييه، أهم جامعات جنوب فرنسا. وكانت تلك أجمل ساعة في حياة الماركيز تاياد اسبيناس. إلا أن غرينوي، الذي نزل من المنصة واختلط بالجمع البشري، كان يعلم أن التهليل والتصفيق من نصيبه هو، جان بابتيست غرينوي، وحده، حتى وإن جهل كل المهللين.

٣٤

أمضى أسابيع أخرى في مونبلييه، فقد كسب شهرة وصار يدعى إلى صالونات المجتمع، حيث يسأل عن حياته في المغارة واستشفائه على يد الماركيز. وكان عليه أن يعيد قصة قطاع الطرق الذين اختطفوه والسلة التي أدليت إليه والسلم الذي هرب عليه. وكلما كرر القصة، زينها أكثر وأضاف إليها المزيد من التفاصيل، وهكذا تمكن من التدرب على الكلام. طبعاً ظل كلامه مقتضباً، فلم تعني اللغة له شيئاً طوال حياته. أما ما بدا له أكثر أهمية، فهو تمرسه في فنون الكذب.

وأدرك أن له أن يسرد على الناس ما يشاء، لأنهم إذا وثقوا فيه مرة، سيصدقون كل ما يقول. ووثق فيه الناس منذ النفس الأول الذي استنشقوه من رائحته الاصطناعية. ثم إنه اكتسب أماناً معيناً في التعامل مع الآخرين، لم يشعر به من قبل، حتى أن علاماته ظهرت على جسده. فكأنه نما، وكأن حدبته اختفت. وراح يمشي منتصب القامة تقريباً وإذا باداه أحدهم الحديث، لم يعد ينكمش على نفسه، بل يظل مستقيماً وصامداً في وجه نظراته. طبعاً لم يصبح رجلاً من العالم، كما لم يصبح أسد الصالونات أو مستقلاً بذاته، لكن قشور البلادة والانكفاء تساقطت عنه وفتحت المجال لوقار فسره الناس بالقناعة الطبيعية أو الخجل الموروث على الأقل، ما كان له بليغ الأثر على كثير من السادة والسيدات، فقد كانت الحلقات المبهرجة مهووسة آنذاك بالطبيعي والخجل الجلف.

وفي مطلع آذار لملم حاجياته واختفى سراً في صبيحة يوم من

الأيام، حالما فتحت أبواب المدينة، مرتدياً قفطاناً رمادياً عادياً، اشتراه من سوق الألبسة المستعملة، وقبعة غطت على نصف وجهه. لم يتعرفه إليه أحد، لم يره أحد أو يشعر به، فلم يضع عطره ذلك اليوم قاصداً متعمدا. وعندما أراد الماركيز متابعة أبحاثه العلمية بعد الظهر، أقسم الحراس أغلظ الأيمان بأنهم رأوا جميع من غادر المدينة، إلا أنهم لم يشاهدوا رجل الكهف الشهير، الذي كان سيلفت أنظارهم ولا بد. وعليه أمر الماركيز بنشر إشاعة مفادها أن غرينوي غادر مونبلييه باتفاق معه، ليسافر إلى باريس في شؤون عائلية. إلا أن ثائرته ثارت في سره، فقد كان ينوي القيام بجولة في جميع أنحاء المملكة ليكسب الأتباع لنظريته.

لكن سورة غضبه هدأت بعد قليل من الزمان، فقد انتشر مجده من دون القيام بجولته، ودون تدخله تقريباً. فظهرت مقالات طويلة عن محفز الموات تاياد في جريدة سافانا، بل وحتى في صحيفة ساعي أوروبا. وأقبل المرضى من أقاصي الأرض ليتعالجوا على يدي الماركيز المباركتين. أسس الماركيز صيف ١٧٦٤ محفل المحفز الحيوي الأول في مونبلييه، الذي دخل في عداده ١٢٠ عضواً، وفروعاً له في مرسيليا وليون. ثم تجرأ على باريس ليغزو العالم المتحضر بعلمه الجديد.

إلا أنه سيقوم من باب الدعاية لحملته بإتيان معجزة، يصغر أمامها شفاء رجل الكهف وكل الاختبارات الأخرى وسيمضي برفقة طائفة من المريدين الجريئين في بعثة إلى قمة بيك دي كانيغو، التي تقع على نفس خط طول باريس، وتعتبر من أعلى ذرى البيرينيه. أراد الشيخ البالغ عتبة الثمانين أن يحمله المريدون إلى القمة التي يبلغ ارتفاعها ٢٨٠٠ متراً عن سطح البحر، ليخلو هناك ثلاثة أسابيع في الهواء الحيوي المنعش والقارس، لكي يظهر من الجبل في ليلة الميلاد شاباً في العشرين، كما ادعى.

استسلم المريدون خلف فيرنه، آخر المستوطنات البشرية في سفح الجبل المخيف. لكن توسلاتهم لم تنفع في الماركيز، الذي بدأ بارتقاء الجبل وحده، مطلقاً صيحات البهجة ونازعاً ثيابه في الصقيع. وآخر ما شوهد منه كان طيفه الذي اختفى في العاصفة الثلجية مغنياً ورافعاً يديه نحو السماء في حالة من الجذب.

في ليلة عيد الميلاد خاب أمل الحواريين في عودة الماركيز الغائب، فلم يرجع لا شاباً ولا عجوزاً. كما لم يعثر تلاميذه الشجعان، الذين تسلقوا في مطلع الصيف قمة بيك دي كانيغو التي ما زالت الثلوج تغطيها، على شيء من آثاره، لا ثيابه، لا أعضاءه، ولا عظامه. لكن ضياعه لم يقطع آثار تعاليمه. بل العكس، فللحال انتشرت أسطورة تزاوجه الأبدي مع المحفز الحيوي على قمة الجبل، حلوله في المحفز وحلول المحفز فيه، وطيرانه خفياً، لكن شاباً مخلداً، عبر قمم البيرينيه ومن يصعد إليه يغدو شريكاً له ويعفى من المرض والتقادم في السن عاماً كاملاً.

دافعت بعض الكراسي الجامعية المتخصصة في الطب عن نظرية المحفز الحيوي حتى أواخر القرن التاسع عشر واستخدمتها كثير من الطوائف الغيبية في العلاج. وما زالت على طرفي البيرينيه، تحديداً في بيربينيان وفيغيرا، بعض محافل تاياد السرية، تلتقي مرة في العام لتتسلق بيك دي كانيغو. يوقدون على القمة ناراً كبيرة، مدعين أنهم يفعلون هذا بمناسبة الانقلاب الشمسي وعلى شرف القديس يوحنا، إلا أنهم في حقيقة الأمر يفعلونه تبشيراً بمعلمهم تاياد اسبيناس ونظريته العظيمة ونوالاً للحياة الأبدية.

الجزء الثالث



٣٥

إذا كان غرينوي قد احتاج سبع سنين للمرحلة الأولى من رحلته، فإنه قطع الثانية في بحر ثمانية أيام ليس إلا. لم يعد يتمارى في الشوارع المكتظة والمدن، ولم يطل طريقه، فله رائحة، معه نقود، عنده ثقة بالنفس، كما أنه مستعجل.

في مساء مغادرته مونبلييه وصل إلى «غرينوي لو غرو دي رواً»، الميناء الصغير غرب «إغوي مورت»، حيث ركب زورق شحن حتى مرسيليا. وفي مرسيليا لم يغادر الميناء، بل بحث لفوره عن سفينة تحمله شرقاً بمحاذاة الساحل. وبعد يومين وصل إلى طولون ومدينة كان بعد ثلاثة أيام. ثم سار بقية الطريق على قدميه. تبع سبيلاً يقود نحو الداخل إلى الشمال، مرتقياً الهضاب.

وقف بعد ساعتين على الذروة وشاهد حوضاً يمتد عدة أميال، صحفة من السهوب الشاسعة، تحيطها سهول منسابة وسلاسل جبلية وعرة وتغطي واديها الواسع حقول نضرة، بساتين وبيارات الزيتون، يسمو عليها جو خاص وفريد. ورغم قرب البحر، الذي يشاهد من قمم الهضاب، لم يسد المكانَ البحريُّ، المالحُ والرمليُّ، لم يسده الفراغ، بل عزلة ساكنة، كأنك بعيد عن الساحل سفر عدة أيام. ورغم ارتقاء الجبال عنان السماء، الجبال التي تغطيها الثلوج وستغطيها على المدى القريب، لن تشعر بالوعورة أو شحة الطبيعة ولا بالريح الباردة. هنا حل الربيع قبل مونبلييه والسحاب الرقيق يغطي الحقول كجرس زجاجي. هنا تفتحت أزهار المشمش واللوز، ويهب الهواء الدافئ برائحة النرجس.

في النهاية الأخرى للصحفة الكبيرة، ربما بعد ميلين، ترتمي، بالأحرى، تلتصق، مدينة بسفوح الجبال العالية، لا تعطي من البعيد انطباعاً بأبهة متميزة، ليس فيها برج أسقفية شاهق على المباني إنما كنيسة صغيرة قبة مخروطية، ليس فيها قلاع ولا عمارات فخمة تجذب الأنظار. أسوارها غير محصنة، تنبثق من خلالها المباني هنا وهناك، خاصة باتجاه السهوب، وتمنح الصورة الضعيفة انطباعاً عن الانكسار، كأن كثيراً من الغزاة مروا بالمكان وبثوا فيه الجزع، كأنه تعب من إبداء المقاومة الجدية في وجه المزيد من الدخلاء، ليس ضعفاً، إنما تكاسلاً، وربما عن إحساس عميق بالقوة. كأن المكان لا يسعى للمباهاة، فالصحفة العطرة الشاسعة ترتمي تحت قدميه وهو مكتف بهذه العزة.

كان المكان الوديع، الواثق بنفسه، مدينة غراس، عاصمة إنتاج وتجارة الطيوب والمواد العطرية الأخرى، كالزيوت والصوابين التي لا يشق لها غبار، ولطالما هام جوزيبي بالديني بجلالة ذكرها قائلاً إنها روما الطيوب، أرض الميعاد للعطارين، ومن لم يضرب جذوره فيها لا يستحق لقب العطار.

نظر غرينوي إلى مدينة غراس نظرة عقلانية، فهو لا يبحث عن أرض الميعاد، لم يخفق قلبه سريعاً لمرأى العش على السفوح البعيدة. لقد جاءها لأنه يعلم إن فيها أساليب جديدة لاستخلاص العطور، لن يجدها في مكان آخر ويريد أن يتعلمها، ليحقق مراده. أخذ قارورة عطره من جيبه، تضمخ بقليل منه وتابع طريقه. وبعد ساعة ونصف وصل غراس حوالى الظهيرة.

تناول الطعام في حانة على طرف المدينة في ساحة «أوزير»، التي يقطعها طولياً نهر يغسل فيه الدباغون جلودهم ليعلقوها من ثم لتجف

في الشمس. كانت الرائحة نفاذة لدرجة يفقد فيها كثير من النزلاء الشهية، إلا أن غرينوي لم يفقدها. فقد اعتاد الرائحة وهي تمنحه الأمان. كان يزور، كلما وصل مدينة، أحياء الدباغين أولاً، لئلا يشعر بالغربة إذا تجول في الأحياء الأخرى للمكان متحدراً من فلك النتن.

تسكّع طوال العصر في المدينة القذرة، رغم كثرة مياهها، بل وربما بسبب كثرة مياهها، التي تتدفق من العيون والآبار في جداول متداخلة تنحدر مع المدينة وتقوض الأزقة أو تغرقها في الطين. كانت البيوت في بعض الأحياء متقاربة لم تبقي للممرات والدرجات إلا طول ذراع وترغم المشاة الخائضين في الطين على احتضان بعضهم البعض. وحتى في الساحات والقليل من الشوارع الأعرض، لم يكن في وسع العربات أن تفسح المجال لغيرها إلا بالكاد.

لكن ورغم القذارة، رغم كل الوسخ والضيق، كانت المدينة تعج بالهمة والنشاط. اكتشف غرينوي في تجواله أكثر من سبعة مطابخ للصابون، دزينة من محلات العطارة وصناعة القفازات، عدداً لا يحصى من دكاكين التقطير، ورشات صناعة الدهون والأفاويه، وأخيراً عشرات من تجار العطور بالجملة. وهؤلاء كانوا تجاراً يملكون مكاتب حقيقية لتجارة العطور، ما لن يكشفه الناظر من مبانيهم، التي تبدو واجهاتها متواضعة جداً. غير أن ما في خلفياتها، في المستودعات والقباء، من براميل الزيوت، من أكوام صابون الخزامى الكريم، من دمجانات مياه الأزهار والنبيذ والكحول، من بالات الجلود المعطرة، من أكياس وصناديق وعلب مليئة بالتوابل، كانت ثروات لا يملكها حتى الأمراء. وشم غرينوي تفاصيل محتوياتها الدقيقة من خلف الأسوار السميكة، وإذ شم أعمق، عبر حجرات المحلات والمستودعات المنثورة على الشوارع، اكتشف وجود ملحقات فارهة خلف بيوت البرجوازيين

المتواضعة. في الحدائق الصغيرة، لكن الرائعة، التي ينمو فيها النخيل والدفلى، وبقبقة نوافير تحيطها أحواض الزهور، كانت الأجنحة الحقيقية للدور تمتد غالباً في قوس نحو الجنوب. فيها مخادع نوم تغمرها الشمس ويغطي الحرير جدرانها في الطوابق العليا، فيها ردهات فاخرة تغطي أرضيتها أنواع غريبة من الخشب في الطوابق الأرضية، وفيها صالونات طعام تمتد كالشرفات في الخلاء، يأكلون فيها، حقاً كما قال بالديني، بملاعق ذهبية من صحون خزفية. يعبق السادة الذين يسكنون خلف الكواليس المتواضعة برائحة المال والنفوذ والثراء الطائل، وبرائحته يفوحون أقوى من كل ما شمه غرينوي في رحلته عبر الأرياف إلى غراس.

أطال الوقوف أمام إحدى دارة فارهة في أول شارع دروات، أحد الشوارع الرئيسية التي تخترق المدينة على امتدادها من الغرب حتى الشرق. لم تكن الدارة متميزة، ولو أنها أعرض قليلاً وأضخم في جبهتها من المباني المجاورة، بيد أنها ليست مهيبة بديعة. أمام المدخل عربة تتدحرج حمولتها من البراميل على منصة خشبية.

تنتظر عربة أخرى. يدخل رجل يحمل أوراقاً إلى المكتب ويخرج برفقة آخر، يختفي الاثنان في البوابة. يقف غرينوي قبالتهم على الجهة الأخرى من الشارع ويراقب التحركات. لا يشغله ما يجري، لكنه يبقى في مكانه. شيء ما يشده إلى المكان.

أغمض عينيه وركز أفكاره على الروائح التي تأتيه من المبنى المقابل. جاءته روائح البراميل، الخل والنبيذ، ثم الروائح الثقيلة لمئات الأصناف في المستودع، ثم روائح الثراء التي ترشح من الجدران كعرق ذهبي وأخيراً روائح الحديقة على الطرف الآخر من الدارة. لم يكن من السهل التقاط روائح الحديقة الرقيقة، فقد كانت تأتي كشرائط دقيقة عبر

سطح الدارة وتنزل إلى الشارع. اكتشف فيها غرينوي المغنوليا، السنبل، الدفلى، الوردة الخلنجية لكنه وجد شيئاً آخر، شيئاً أروع بين روائح الحديقة، رائحة متميزة، لم يشم مثلها قبل، أم هل شمها مرة واحدة فقط!... أراد الاقتراب أكثر حتى يعرف ما هي هذه الرائحة.

خيل إليه أن يدخل ببساطة من البوابة إلى الدار، لكن كثيراً من الرجال تجمعوا في هذه الأثناء لتنزيل البضاعة وفحص البراميل، فخشي أن يلاحظوه، وقرر أن يعود في الشارع ليدخل زقاقاً أو ممراً يقوده خلف البيت. بعد عدة أمتار وصل باب المدينة في بداية شارع دروات، تجاوزه حريصاً على البقاء يساراً وسار مع سور المدينة، باتجاه الجبال. لم يبتعد كثيراً حتى شم الحديقة، كانت رائحتها خفيفة في البداية، ممزوجة بهواء الحقول، ثم اشتدت شيئاً فشيئاً. وأخيراً تيقن أنه اقترب منها كثيراً، فقد كانت بمحاذاة سور المدينة. ولرأى فوق السور ذرى أغصان أشجار البرتقال لو تقهقر قليلاً.

أغمض عينيه من جديد، فانهمرت عليه روائح الحديقة واضحة المعالم كأقواس قوس قزح، وبينها تلك الرائحة النفيسة، التي سلبت لبه. احترق غرينوي بحرارة الفرحة الغامرة وأثلج بدنه بصقيع الرعب. صعد الدم في رأسه كصغير ضبطه أهلوه متلبساً ونزل من ثم إلى وسط جسده، صعد مرة أخرى ونزل، ولم يكن بوسعه التحكم فيه. لهنيهة، لنفس، للأبد، لاح له أن الزمن صار زمنين أو أنه اختفى جذرياً، فلم يعلم هل الآن الآن وهل هنا هنا، أم أن الآن آنذاك وهنا هنالك، شارع دي ماريه في باريس، أيلول ١٧٥٣، فقد كان العطر الفواح من الحديقة، عبير الصبية حمراء الشعر التي قتلها آنذاك. سالت الدموع من عينيه لسعادته بالعثور على العطر بعد فقدانه وشعر بالفزع لاستحالة الأمر.

غشي عليه وترنح قليلاً واستند على السور حتى لا يقع أرضاً ويقدر

على القرفصاء. وبعد أن جمع قواه وروض روحه، بدأ يشم العطر الوخيم في دفقات قصيرة، أقل خطراً على الحياة، وتبين له أن العطر خلف السور يشبه عبير الصبية حمراء الشعر تمام الشبه، بيد أنه ليس مثله. وهذا بدوره ينبعث من صبية حمراء الشعر دون أدنى شك. رأى غرينوي الصبية ببصيرته الشمية كما تشاهد الصورة. لم تكن تجلس هادئة، بل تتقافز، تسخن ثم تبرد، من الواضح أنها تلعب لعبة عليها أن تتحرك خلالها بسرعة وتقف بسرعة عالية مع شخص آخر لا يمكن تعيين رائحته. جلدها بض لماع، عيناها خضراوان، يغطي النمش وجهها وعنقها ونهديها. . . هذا يعني! توقف غرينوي هنيهة عن التنفس، ثم استنشق بقوة أكثر وحاول أن يقصي من ذاكرته رائحة الصبية من شارع دي ماريه. هذا يعني أن الصبية ليس لها نهدان بالمعنى الحقيقي للكلمة. لها بالكاد براعم نهود. لها ناهدان نثر عليهما النمش، أطلا برأسيهما قبل بضعة أيام، بضع ساعات، ربما هذه اللحظة، ربما للتو، يفوحان قليلاً بعطر بالغ الرقة. وبكلمة ما زالت الصبية طفلاً، وأي طفل!

نضح جبين غرينوي بالعرق، فهو يعلم أن ليس للأطفال روائح متميزة، مثل البراعم الخضر قبل تفتحها. لكن هذه الزهرة، هذه الزهرة المغلقة خلف الأسوار، تفتقت للتو عن طلائع الرائحة، من دون أن يلحظ أحد غيره، تطلق منذ الآن رائحة يشيب لها الشعر وإذا تفتحت كل أوراقها فإنها ستبعث رائحة لم يشم لها العالم من قبل مثيلاً. رائحتها منذ الآن أفضل من رائحة الصبية في شارع دي ماريه، ليست على ذات القدر من القوة، ليست بذات النفحة القوية، لكنها أدق، ثناياها أعمق وأكثر طبيعية في الآن ذاته. لكن هذا العبير سيبلغ في عام أو عامين وستكون له جاذبية يخضع لها الناس جميعاً، رجالاً ونساء.

سيغلب الناس على أمرهم، يجردون من أسلحتهم ويغدون عاجزين أمام سحر الصبية جاهلين لماذا. ولأنهم أغبياء ولا يستخدمون أنوفهم إلا للهاث والشخير ويعتقدون بأنهم يشهدون كل شيء بعيونهم، سيبررون غلبتهم بجمال الصبية وظرفها وحسنها. سيمدحون في ضيق أفقهم سحناتها المتناسقة، قدها الممشوق وثدييها الكاملين. وسيقولون إن عينيها كالزمرد وأسنانها كاللؤلؤ وجسدها كالعاج وإلى ما هنالك من التشبيهات البلهاء. سيتوجونها ملكة على الياسمين وسيرسمها الرسامون الحمقى. سيبحلق الناس في الصورة ويحلفون أنها أجمل امرأة في فرنسا. وسيذرف الشبان دموعهم تحت نافذتها على أنغام المندولين. سيزحف الشيوخ الأغنياء البدينون على ركبهم أمام والدها ليطلبوا يدها. ستتنهد النساء من كل الاعمار لمرآها ويتمنين في أحلامهن أن يكن بجاذبيتها يوماً واحداً فقط. ولن يعلموا، لن يعلموا كلهم، أنهم لم يقعوا صرعى منظرها، صرعى جمالها الخارجي الفتان، إنما سحروا بعطرها الرائع الفريد. هو وحده سيعرف، فهو يعرف منذ الآن. إنه يريد هذا الطيب. لا يريده بتلك الطريقة الفظة، الفانية، التي أنهت آنذاك عطر الصبية من شارع دي ماريه. لقد أغرق ذاك في ذاته ودمره بذلك. لا، إنه يريد أن يمتلك عطر الصبية خلف السور، أن ينزعه عنها كالجلد ويجعله عطراً خاصاً به. لكنه لا يعلم كيف سيقوم بهذا. عنده الكثير من الوقت، عنده سنتان من الوقت ليتعلم ولن يكون أصعب من سلب العطر من زهرة نادرة.

نهض وابتعد خاشعاً كأنه يترك مقدساً أو أميرة نائمة، منحنياً، متوارياً، كي لئلا يراه أحد، لا يلحظ أحد كنزه الثمين. وهكذا فر مع السور حتى وصل الطرف الآخر من المدينة، حتى اختفى طيب الصبية أخيراً ووجد غرينوي مدخلاً على باب فينيان. وقف في ظلال البيوت

ومنحه بخار الأزقة الكريه الأمان والعون ليخفف من وطأة الشهوة التي ألمت به. وتمالك نفسه كلياً بعد ربع ساعة وقرر ألا يدنو من الحديقة خلف السور في المدى القريب. فهذا ليس ضرورياً، كما أنه يقلب عليه كيانه. والزهرة خلف الأسوار ستنمو من دون تدخل منه ويعلم كيف ستنمو. عليه ألا يسكر بطيبها في وقت غير ملائم. عليه أن يتفرغ للعمل. عليه أن يوسع معارفه ويتمم قدراته الحرفية كي يستعد للحصاد. ما زالت لديه سنتان.

٣٦

غير بعيد عن باب فينيان في شارع «دو لا لوفر» وجد غرينوي ورشة عطارة صغيرة، دخلها وأمل العمل فيها.

اتضح له أن رب العمل، المعلم اونوريه آرنولفي العطار، توفي في الشتاء الماضي وأن أرملته، وهي امرأة سوداء الشعر وشهوانية في الثلاثين من العمر، تدير شؤون المحل، يعاونها في ذلك مساعد.

بعدما اشتكت السيدة آرنولفي طويلاً من الزمن التعيس والمصيبة التي حلت على رأسها، قالت إنها ورغم أنها تحتاج مساعداً آخر، نظراً للعمل المتراكم، لكنها لا تستطيع دفع الأتعاب، إنها لا تستطيع إيواء مساعد ثان تحت سقفها، لكن إرثها في حقل الزيتون خلف دير الفرنسيسكان لا يبعد أكثر من عشر دقائق، يغطي احتياجات شاب قنوع للمبيت، ثم إنها لا تستطيع تحمل أعباء وجبتين ساختنين في اليوم، رغم أنها كمعلمة شريفة تشعر بمسؤولية عميقة تجاه مساعديها. وبكلمة، كانت السيدة آرنولفي تتمتع بالرخاء واليسر، كما تتمتع بحس عملي عال، ما شمه منها غرينوي منذ النفس الأول. وبما أنه لا يطمع بالمال واقتنع بفرنكين في الأسبوع أجراً ورضي بالظروف المشينة، التي فرضتها عليه المعلمة، فقد اتفقا على وجه السرعة. غير أن المعلمة نادت مساعدها الأول، وهو رجل عملاق اسمه درو، خمن غرينوي أنه اعتاد مشاركة المعلمة في سريرها وأنها لا تتخذ قراراً من دون الرجوع إليه. وقف درو قبالة غرينوي، الذي بدا قزماً ضئيلاً مضحكاً أمام مارد، فرج ساقيه وأرسل غيمة من رائحة المني، تملى في غرينوي، حدق في

عينيه محاولاً بهذا الأسلوب اكتشاف نوبات غير صافية أو غريماً، ثم غمز محتقراً ووافق بإيماءة من رأسه.

بذلك توافقت جميع الأطراف. حصل غرينوي على مصافحة، على وجبة عشاء باردة، على غطاء ومفاتيح الإرث، الذي كان وكراً من دون نوافذ، يفوح بروائح القش وجلة الخراف اللذيذة، وجهزه ليجد فيه تمام راحته. وبدأ في اليوم التالي عمله لدى السيدة آرنولفي.

كان الموسم موسم النرجس والسيدة تستنبت الأزاهير على قطعة من أراضيها أسفل المدينة، في الصحفة الواسعة، أو تشتريها من القرويين الذين تساومهم على كل قرش. كانت الزهور تصل الدكان في باكورة الصباح وتفرغ من آلاف السلال في أكوام عالية، خفيفة الرائحة كالريش. في تلك الأثناء كان درو يسيّح شحم الخنزير والبقر الأبيض في مرجل ضخم ويحوله إلى حساء يلقي فيه الزهيرات الطازجة بالمكاييل، بينما يحرك غرينوي الحساء دون توقف بملوق طويل كمكنسة. كانت الزهيرات تسبح على سطح الحساء كعيون أفزعها الموت هنيهة، ثم تشحب في اللحظة التي يدفعها فيها الملوق إلى الأعماق ليبتلعها الشحم الساخن. وفي اللحظة ذاتها كانت قواها تهون وتذبل ويباغتها الموت بحيث لا يبقي لها فرصة آخرى، إلا أن تبث آخر أنفاسها في تلك المادة التي تغرق فيها. وكلما أغرق غرينوي المزيد من الزهيرات في المرجل، كلما فاحت من الدهن المزيد من الرائحة، الأمر الذي راقبه غرينوي مفتتناً. ولم تكن الزهيرات الميتة في الدهن ما يفوح بالرائحة، بل يكتسب الدهن ذاته رائحة الزهيرات.

بعد أن يثخن الشحم كالعصيدة كانا يفرغانها سريعاً على غربال واسع ليحرراها من الأزهار التي أزهقت أرواحها، ويعداها لابتلاع المزيد منها. ثم كانا يصبان ويحركان ويصفيان طوال اليوم، فالعمل لا

يتحمل التأجيل، حتى تمر جميع أكوام الزهور في المرجل. وكي لا يهدر أدنى شيء من الرائحة، كانت البقايا تغلى بالماء وتمرر على معصرة مغزلية حتى تعصر آخر القطرات التي تشكل زيتاً له رائحة خفيفة. لكن جل الطيب، روح بحر من الزهيرات، يبقى في المرجل، يحفظها الشحم الرصاصي الوضيع، الذي يتصلب بتريث.

في اليوم التالي يتابعان التنقيع، كما تسمى العملية، يوقدان ناراً تحت المرجل، يسيحان الشحم، يعبآنه بالمزيد من الزهيرات الطازجة، وعلى هذا المنوال يستمر العمل من الصباح إلى المساء يوماً بعد يوم. وكان عملاً صعباً، فقد ثقلت ذراعا غرينوي كالرصاص، طلعت في كفيه الفقاعات، وكان ظهره يؤلمه إذا لجأ مساء إلى حظيرته. فلم يحل درو، الذي يملك من القوة ثلاثة أضعافه، محله ولا مرة واحدة أثناء التحريك، بل اكتفى بسكب الزهيرات الخفيفة كالريش، بالانتباه إلى النار وبالذهاب بين الحين والآخر ليشرب شيئاً، إذا لسعه اللظى. بيد أن غرينوي لم يتذمر، وظل يغرق الزهيرات في الدهن صبوراً طوال النهار، وقلما شعر بالوهن أثناء التحريك، فقد كانت العملية التي تجري تحت أنظاره وتحت أنفه تسحره من جديد كل لحظة، يسحره الذبول السريع للزهيرات وامتصاص الشحم رائحتها.

بعد فترة يقرر درو أن الشحم تشبع ولن يقدر على امتصاص المزيد من الرائحة. فيطفئان النار ويصفيان الحساء السميك للمرة الأخيرة ويصبانه في بوتقات من الفخار، بحيث يتماسك للحال في مرهم يفوح برائحة رائعة.

وهذه كانت ساعة السيدة آرنولفي، التي تأتي لتختبر المنتج الغالي، تخط عليه وتقيد كمية ونوعية الأسلاب في دفاترها. وبعد أن تسد البواتق شخصياً، تختمها وتحملها إلى الأعماق الباردة في قبوها، ثم

ترتدي ثوب الحداد، تضع وشاح الترمّل وتقوم بجولتها على التجار ومحلات العطارة في المدينة. متباكية كانت تشرح وضعها كسيدة وحيدة، تطلع على عروضهم، تقارن الأثمان، تتنهد وتبيع أخيراً. أو لا تبيع. فالمرهم المعطر يحافظ على جودته في القبو البارد طويلاً. وإذا كانت الأسعار اليوم منخفضة، فربما ارتفعت شتاء أو مطلع العام القادم. كما أن السيدة قد تفضل شحن كمية من المرهم إلى جنوى بمشاركة منتجين آخرين أو المساهمة في قافلة تذهب إلى معرض الخريف في بوكير، عوض بيعها بسعر زهيد. طبعاً كانت مغامراتها خطيرة، إلا أنها تدر أعلى الأرباح حال نجاحها. كانت السيدة آرنولفي تقارن كل الاحتمالات بفائق العناية وكانت أحياناً تعمل بثلاثتها معاً، فتبيع قسطاً من كنوزها، تحتفظ بقسط منها وتخاطر بالقسط الثالث. غير أنها إذا وجدت سوق المرهم راكداً ولن يتحول في المستقبل القريب لصالحها، فإنها تعجل في سيرها إلى المحل وثوبها يرفرف، وتكلف درو بإخضاع الكمية كلها إلى تغسيل وتحويلها إلى الروح الخالص.

في هكذا حال، كانت المراهم تخرج من القبو، تسخن على مهل في أوعية مغطاة، يسكب عليها روح النبيذ الأنقى وتمزج بأداة خاصة، يخدمها غرينوي، وتغسّل أخيراً. وفي هذه الحال كان المزيج يتحول إلى عطر عالي التركيز، بينما يفقد المرهم المتبقي معظم رائحته، وبهذا ينتقل طيب الزهور على وسيلة أخرى. لكن العملية لا تتوقف عند هذا الحد. فبعد ترشيح عميق على نسيج عالي الشفافية، تسبح عليه أصغر الكتل الشحمية، كان درو يضع الكحول المعطر في دورق صغير ويقطره على نار خفيفة جداً. وما يتبقى في الأنبيق بعد تطير الكحول، كان كمية قليلة من سائل شاحب، يعرفه غرينوي كل المعرفة، لكنه لم يشمه بهذه الكمية وهذا النقاء، لا لدى بالديني ولا في محل رونيل السخيف. كان

هذا السائل زيت الزهيرات المحض، طيبها الصافي، المركز آلاف المرات في قطرة من الروح الخالص، الذي لم تعد رائحته لطيفة، بل مركزة مؤلمة، حادة وكاوية. إلا ان قطرة واحدة منه تكفي، إذا أذيبت في لتر من الكحول لتحيي الرائحة، لتبعث الحياة في حقل من الأزهار.

كانت الأسلاب بمنتهى القلة، ولم يملأ السائل في انبيق التقطير أكثر من ثلاث قوارير. لم يبق من رائحة آلاف الزهيرات أكثر من ثلاث قوارير. لكن ثمن القوارير الثلاث يعادل ثروة باهظة في غراس ذاتها، فما بالك إذا أرسلت إلى باريس، أو نحو ليون، غرينوبل، نحو جنوى أو مرسيليا. نعست عينا السيدة آرنولفي الشهوانيتان وهي تنظر للزجاجات، داعبتها وعندما أخذتها وسدتها بسدادات زجاجية صقيلة، أوقفت أنفاسها حتى لا يمتقع محتواها الثمين. وكي لا تتطير ذرة واحدة بعد أن سدت الزجاجات، كانت تصب الشمع السائل على السدادات، تعفصها بحوصلات هوائية تشدها بعناية على أعناقها، ثم تضعها في صندوق محشو بالقطن المعقم وتحكم عليها أبوب القبو.

٣٧

في نيسان غسّلوا الوزال وزهور البرتقال وفي أيار بحراً من الورد، أغرق طيبه المدينة في ضباب حليبي لذيذ شهراً كاملاً. كان غرينوي يعمل كحصان. قنوعاً وصبوراً كعبد قام بكل الأعمال الوضيعة التي كلفه بها درو. لكن وبينما هو يتظاهر بالغباء أثناء التحريك، التلويق، تنظيف البراميل، تكنيس الورشة وجلب الحطب، لم يفته شيء من الخطوات الرئيسية للعمل، أي تحولات الطيوب. تابع غرينوي العمل بأنفه بدقة أكثر مما يتوقعها درو وراقب هجرة الطيوب من وريقات الأزهار عبر الشحم والكحول إلى القوارير النفيسة. وشم، قبل أن يلاحظ درو بكثير، متى تتجاوز حرارة الشحم حدها المطلوب، شم متى تزهق الزهور، متى يتشبع الشحم بالطيب، شم ما يحدث في جوف وعاء المزج وفي أي لحظة يجب التوقف عن عملية التقطير. وكان يعمد بين الحين والآخر للتلميح بقليل من علومه، طبعاً دون إلزام، دون أن يتخلى عن سلوكه الخنوع. فيقول إنه يعتقد بأن حرارة الشحم ازدادت قليلاً، يظن بأن من الأفضل أن يصفوا الآن، يقول له إحساسه إن الكحول في الدورق تبخر. . . واكتشف درو، الذي لا يتمتع بذهن وقاد إلا أنه ليس غبياً تماماً، أنه يقرر على أخير وجه إذا فعل، أو أمر، بما يعتقد غرينوي ويظنه، أو ما يقوله له إحساسه. ولأن غرينوي لم يقل أبداً ما يعتقده ويظنه بصريح العبارة أو تذاكِ ولأنه لم يحاول قط، خاصة بحضور السيدة آرنولفي، أن يضع مرجعية درو أو أسبقيته، بصفته

المساعد الأول، موضع الشك حتى مازحاً، فلم يجد درو ما يمنعه من اتباع نصائح غرينوي أو يتركه مع الزمن ليتخذ القرارات بوضوح.

مع الزمن لم يعد عمل غرينوي محصوراً في التحريك، بل صار يعبئ المرجل بالزهيرات، يسخن الموقد، ويغربل، بينما يختفي درو في حانة كاتر دوفان لأداء بعض الأعمال، أي شرب قدح من النبيذ، أو في غرفة المعلمة ليرى ما تحتاجه، عالماً أن له التوكل على غرينوي. وتمتع غرينوي، رغم مضاعفة العمل، بحريته ليزيد مهاراته في الفنون ويقوم بين الحين والآخر ببعض التجارب الصغيرة. وكما يفرح اللص، فرح غرينوي عندما تبين له أن المرهم الذي ينتجه وحيداً أنقى بكثير من الذي ينتجه مع درو.

بنهاية تموز بدأ موسم الياسمين، في آب موسم سنبل الليل. ولهذه الأزهار عطر على درجة عالية من الندرة والرقة، بحيث لا يكفي قطفها قبل شروق الشمس فقط، بل وتقتضي أرق التعامل وأعمق الخبرة. فالحرارة تخفف من عطرها والتغسيل المفاجئ في شحم التنقيع الساخن يدمره كلياً. لا تتخلى ملكات الزهر عن روحها بسهولة، إنما يجب التقرب منها ومحاباتها لتمنح نفسها. ولهذا كانت تنثر في مكان خاص على صفائح مدهونة بالشحم البارد أو تكفن بقماش مشرب بالزيت، لتنام نومة الموت. وتذبل بعد ثلاثة أيام أو أربعة نافحة أنفاسها العطرة في جيرانها من الشحم أو الزيت. ثم تلتقط ببالغ الحذر وتبعثر مكانها زهور طازجة. تتكرر العملية أكثر من عشر أو عشرين مرة حتى يتشبع المرهم ويؤون أوان عصر القماش لاستخراج الزيت المعطر. كانت كمية الأسلاب المغتنمة بالمرث البارد أقل بكثير مما في عملية التنقيع، لكن بذخ معجون الياسمين، أو بذخ زيت الناردين المعتق، يتجاوز جميع منتجات فنون العطر نقاء وأصالة. وخاصة الياسمين، فكأن طيب

الزهرة اللذيذ والمغري ينعكس على صفائح الشحم كما في المرآة: طبعاً بخلاف بيّن، فأنف غرينوي تعرفت طبعاً الفرق بين رائحة الزهيرات وطيبها المحفوظ، فقد كانت رائحة الشحم، مهما كان صافيا، تهب على صورة الرائحة الأصلية كحجاب رقيق، تموهها، تشوهها قليلاً، وربما هي من يجعلها محتملة لدى البشر العاديين. وعلى كل حال، فقد كان المرث البارد أمهر الوسائل وأفضلها لاحتباس الطيوب الناعمة. ولا وسيلة أفضل منها. وحتى لو لم يقنع هذا الأسلوب أنف غرينوي الصافي، فإنه يكفي ألف مرة لخداع عالم من الأنوف الممخطة.

لم يمض كثير من الوقت حتى تغلب على معلمه درو في فن التعطير البارد، كما سبق وأن تغلب عليه في التنقيع. وأوضح له تغلبه بطريقته المجربة، السرية والخنوع. بكل رضا تخلى له درو عن مهمة شراء الشحوم الملائمة من المسلخ، تسييحها، تكريرها وتحديد نسب خلطها، وهي وظيفة يخشاها درو أيما خشية، فقد يفسد الشحم الملوث، الزنخ أو ذو رائحة الخنزير أو الخروف أو البقر القوية، المرهم النفيس. وترك له حرية اتخاذ القرار في المسافة بين صفائح الشحم في غرفة التعطير، موعد تبديل الأزهار، درجة تشبع المرهم، ترك له للحال حرية اتخاذ جميع القرارات الدقيقة، التي يتخذها هو، درو، كما كان بالديني، على وجه التقريب وبحسب قواعد الصناعة والتي يتخذها غرينوي بحسب أنفه، ما لم يعلمه درو طبعاً.

كان يقول عنه: له يد مباركة، له إحساس جيد بالشغل وفي سره كان يفكر أحياناً: إنه بكل بساطة أكثر موهبة مني، إنه عطار أفضل مني مائة مرة. غير أنه يعتبره في الآن ذاته غبياً، لأنه لا يبني على موهبته رأسمالاً، بينما هو، درو، سيصبح معلم عطارة بقدراته المتواضعة. وأكد له غرينوي رأيه، جد في التغابي، لم يبد أي طموح، وتظاهر بأنه

لا يعرف شيئاً عن عبقريته ولا يتصرف إلا بحسب تعليمات درو الخبير وأنه لا يقدر على شيء دونه. وبهذا تفاهما أعمق التفاهم.

ثم جاء الخريف وتلاه الشتاء وهدأت الحياة في الورشة. حبست طيوب الزهور في بواتق وقوارير في القبو، وإذا لم ترغب المعلمة في تبهيت تمقيع مرهم أو آخر، أو في تقطير كيس من الأفاوية، فلم يكن ثمة الكثير من العمل. فقط كانت بعض سلال الزيتون تأتي من أسبوع لآخر، يعصرون منها زيت عذريتها ويضعون الباقي في معصرة الزيت. كما كان غرينوي يقطر العنب إلى الكحول ويكرره. ولا شيء بعد.

صارت جيئات درو وروحاته أقل. كان يؤدي واجباته في سرير المعلمة وإذا ظهر في الورشة، فائحاً برائحة العرق والمني، فإنه لا يظهر إلا ليختفي في حانة كاتر دوفان. كما أن زيارات المعلمة نفسها ندرت، فقد كانت مشغولة بإدارة ثروتها وتبديل خزانة ملابسها لمرحلة ما بعد عام الحداد. لم يكن غرينوي يرى غالباً سوى الخادمة، التي يحصل منها على حساء للغداء وخبز وزيتون للعشاء. وقلما خرج، فلم يشارك في الحياة النقابية وخاصة منها لقاءات الصناع الدورية ومسيراتهم الليلية، إلا بدرجة لا يلحظ له فيها وجود أو غياب. لم يعقد صداقات أو علاقات حميمة، إلا أنه احتاط بدقة شديدة كي لا يظهر بمظهر المتعجرف أو الانعزالي وترك للصناع الآخرين مهمة اعتباره شخصاً بارداً لا يطاق، فقد كان معلماً في فن نشر الملل والاستغباء، طبعاً من دون أن تصل الأمور إلى حدّ سخرية الآخرين منه أو وقوعه ضحية لطرف أعضاء الرابطة. تمكن تماماً من إبراز لا أهميته، فتركه الآخرون وشأنه، وهذا ما كان يرمي إليه.

٣٨

كان يقضي جل وقته في الورشة. ادعى لدرو أنه يريد اختراع وصفة لماء الكولونيا، غير أنه في الحقيقة كان يقوم بتجارب من نوع آخر. فقد قارب عطره الخاص، الذي ركبه في مونبلييه على النهاية، رغم أنه قتر في استخدامه، فابتكر جديداً. إلا أنه لم يكتف هذه المرة بمحاكاة رائحة الإنسان المؤلفة من مواد مركبة على عجل، بل بذل جهوده في تركيب عطر شخصي أو بالأحرى عدة عطور شخصية.

بداية صنع رائحة البساطة، عطراً شاحباً يضخه على ثيابه كل الأيام، يحوي الرائحة الجبنية الحامضة للإنسان، إلا أنه ينطلق إلى الخارج كأنما ينبعث من بين طبقات ثخينة من الثياب الصوفية والكتانية ملقاة على جلد الشيوخ الجاف. بهذه الرائحة كان له الاختلاط بالناس براحة أكثر، فقد كانت رائحة قوية لتبرهن على وجود شخص ما شمياً برهاناً قوياً، لكنها في الآن ذاته خفية لتثقل على أحد. بهذا العطر لم يكن غرينوي متواجداً رائحياً ولكن حضوره المتواضع يجد ما يبرره. حالة من الخناث لاءمته في منزل آل آرنولفي كما في تنزهاته القليلة في أنحاء المدينة.

إلا أن العطر المتواضع وضع الحواجز أمامه بعض الأحيان. فإذا أراد أن يشتري بتكليف من درو أو لحاجته الشخصية شيئاً من الزباد أو بضع حبوب من المسك، فقد يحدث أن يتجاهله العاملون ولا يخدموه أو أنهم يرونه ويخدمونه خدمة خاطئة، بل وقد ينسوه فجأة أثناء خدمتهم له. ولهكذا مناسبات اختلط لنفسه عطراً أقوى، يفوح برائحة العرق،

بقليل من الزوايا والأطراف الشمية ويعطيه مظهراً أكثر فظاظة، يدفع العاملين على التفكير بأنه مستعجل ولديه الكثير من الأعمال. كما نجح نجاحاً باهراً في لفت الأنظار إليه إن شاء، بوساطة محاكاة شذا درو المنوي، الذي صنعه بترويح قماش كتاني دهين بعجين من بيض الإوز النيء وطحين القمح المسلوق، محاكاة خداعة.

العطر الآخر من ترسانته كان عطراً يدر عليه الشفقة، أثبت جودته خاصة لدى النساء في أواسط العمر وأواخره، يفوح برائحة الحليب قليل الدسم والخشب النظيف الرخو. بهذا العطر كان غرينوي، حتى لو لم يحلق ذقنه، حتى لو كان مكفهراً أو خفياً، يبدو غلاماً مسكيناً شاحباً في رداء باهت، يحتاج الإغاثة. وكانت نساء السوق، إذا شممنه، يدسسن له الجوز والخوخ الجاف في جيوبه، لأنه يبدو في أعينهن جائعاً وعاجزاً. وسمحت له زوجة الجزار، وهي بحد ذاتها عجوز صارمة قاسية القلب، أن ينتقي بقايا العظام واللحم الفاسد ويأخذها مجاناً، فقد كان عطر البراءة يلامس قلبها الأمومي. وكان ينقع هذه النفايات مباشرة في الكحول ويصنع منها رائحة يضعها إذا أراد الانعزال أو أن يتحاشاه الناس. كانت الرائحة تجعل حوله فراغاً من السديم، الذي يفوح من فم مهمل لدى الاستيقاظ من النوم، وكان فعالاً لدرجة أن درو، الذي قل وأن اشتكى من رائحة، يدير ظهره دون إرادة منه ويضطر إلى الخروج، من دون أن يعلم ما الذي يقرفه. كما أن بضع قطرات من العطر الصاد، يسكبها على عتبة وكره، كانت كافية لتبعد عنه كل دخيل، إنساناً كان أم حيواناً.

في حمى مختلف الروائح، التي يبدلها بحسب الطلب كالثياب، والتي سترته عن عيون الناس وتركته في سراب المجهول، انصرف غرينوي إلى عشقه الحقيقي، ألا وهو صيد الطيوب. ولأن أهدافه سامية

ولأن أمامه عام كامل، فلم يعمل بحماسة لا تقارع فحسب، بل وأيضاً بتخطيط ومنهجية لشحذ نباله وتشذيب طرائقه والبلوغ بأساليبه مبلغ الكمال. فبدأ حيث انتهى لدى بالديني، بدأ باستخلاص روائح الجمادات كالحجر، المعدن، الزجاج، الخشب، الملح، الماء والهواء. . .

وما فشل فيه آنذاك ذريع الفشل بالتقطير البدائي، تمكن منه في غراس بفضل قدرة الشحوم على امتصاص الروائح. لبّس غرينوي أكرة باب نحاسية، شمها وأعجب برائحتها الباردة والعفنة، برداء من شحم البقر عدة أيام. ولعجبه فاح الشحم برائحة الأكرة بكل وضوح، وإن كانت الرائحة ضعيفة إلا أنها على كل حال موفورة في اللباس الدهني. وظلت الرائحة حتى بعد التغسيل بالكحول، رقيقة جداً، بعيدة جداً، يظللها بخار روح النبيذ ولا تشمها إلا أنف غرينوي، إلا أنها حاضرة، ما يعني احتمال استخلاصها من حيث المبدأ. فلو كان بين يديه عشرة آلاف أكرة ولبسها الشحم ألف يوم، سيكون له استخلاص قطيرة من الروح الخالص لرائحة أكرة الباب النحاسية، قطيرة بوسع الجميع أن يعثر فيها على شبح الأصل دون خطل أو جدال.

ونجح أيضاً في استخلاص رائحة كلسية مسامية من حجرة، عثر عليها أمام باب حظيرته في حقل الزيتون. نقع الحجرة واستخلص منها عجينة مرهم، أله رائحته القصية تأليهاً لا يدانى. وركبها مع مختلف الروائح التي استخلصها من الجمادات في محيط كوخه وابتدع قليلاً قليلاً منمنمة شمية لحقل الزيتون خلف دير الفرنسيسكان، أحكم عليها قارورة صغيرة يحملها معه أينما ذهب، ليبعث منها روحاً رائحية أيما شاء.

أبدع إذن قطعاً عطرية رائعة، جناناً في منتهى الجمال، لا يعرف

قدرها غيره ولا يشعر بها أدنى شعور. لكن الكمال الذي توصل إليه خلبه ولم يكتسب في حياته السابقة ولن يكتسب في اللاحقة سيماء براءة حقيقية كما في ذلك الوقت، الذي خلق فيه بحماسة لعوب سهوباً فواحة، طبيعة صامتة وصوراً رائحية لمختلف الجمادات. لينتقل بعدها لاستخلاص روائح الأحياء.

اصطاد ذباب الشتاء، اليساريع، الجرذان، القطط الصغيرة وأغرقها في الشحم الحار. تسلل ليلاً إلى الحظائر ليغلف عنزة،، بقرة أو خنوصاً بقماش مدهون عدة ساعات أو يضمده برباط مزيت. أو دخل قطيعاً من الغنم سراً، ليجز صوف حمل ويغسله في روح النبيذ. لم ترضه النتائج الأولية، فبخلاف الجمادات الصبورة كأكرة الباب والحجر، لم تتخلى الحيوانات عن عطورها إلا على مضض. فنسلت الخنازير الأربطة عن سيقان صغارها، ثغت الخراف إذ اقترب منها ليلاً بسكينه، نزعت الأبقار القماش الدهني عن ضروعها. وأطلقت بعض الجعلان التي اصطادها إفرازات نتنة ومقززة أثناء التحضير وتبرزت الجرذان خوفاً في مراهمه الشمية عالية الحساسية. لم تمنحه الحيوانات التي نقعها روائحها مستسلمة للقدر أو بتنهيدة صامتة كالأزهار، بل دافعت عن أنفسها ضد الموت دفاع اليائس، لم تستسلم بسهولة إلى الخلاط، تخبطت وصارعت وأنتجت بذلك نسباً عالية من عرق الخوف والموت، أفسد الشحم الحار بالحموضة العالية.

طبعاً لا يمكن الإتيان بعمل متقن في هكذا حال. يجب إذناً أخذ المواد الأولية غيلة بحيث لا يداهمها خوف ولا تعترض. عليه إذناً قتلها. وبدأ بجرو أغراه من المسلخ بقطعة لحم ليترك أمه ويلحق به إلى الورشه، وبينما الجرو يتشمم اللحم في يسرى غرينوي لاهثاً وفرحاً، ضربه بقرمة يحملها في يمناه ضربة قصيرة وقوية على نقرة رأسه. حل

الموت على الجرو مباغتاً بحيث ظلت علامات الفرح على مشفريه الصغيرين إلى أن أرقده غرينوي على شبكة بين ألواح الشحم في غرفة التعطير، حيث أطلق رائحته الكلبية النقية، دون أن يعكرها عرق الخوف. طبعاً كان الحذر مطلوباً، فالجثة مثلها مثل الزهرة المقطوفة تذبل بسرعة ولذا خفر غرينوي ضحيته اثنتي عشرة ساعة حتى لاحظ أوائل شرائط رائحة الجيف الحريفة، رغم أنها مقبولة، تنبعث من جسم الكلب. قطع حينها المرث البارد على الفور. رمى الجيفة وأخفى الشحم المعطر قليلاً في إناء، غسّله فيه بعناية. قطر الكحول إلى حجم قضمة إظفر ووضع الباقي في انبيق صغير. فاح العطر برائحة الكلب الرطبة، الحادة، وقليل من رائحة الشحم الطازج، حتى أنه نفسه ذهل بقوة الرائحة. وعندما وضع غرينوي الأنبيق أمام أنف الكلبة الأم لتشمّه، انطلقت هذه في نباح السعادة وتشنفت باكية، غير راغبة في إبعاد منخريها عن القنينة. غير أن غرينوي أحكم سدادها واحتفظ بها طويلاً كذكرى يوم النصر العظيم، الذي تمكن فيه للمرة الأولى من اغتنام الروح العطرة من كائن حي.

ثم انتقل للعمل على البشر متريثاً ومحتاطاً. بدأ بنصب الشباك على مسافة آمنة، فلم يكن همه الصيد الكبير قدر ما كان اختبار منهج الصيد ذاته. اختلط مقنعاً بعطر البساطة بين رواد حانة كاتر دوفان وألصق خرقاً مشربة بالزيت والشحم تحت المقاعد والطاولات وفي زوايا خفية. جمعها بعد أيام وفحصها ووجد أنها تنشر فعلاً قليلاً من رائحة الإنسان، علاوة على كل الروائح الأخرى كبخار المطبخ، دخان التبغ، والنبيذ. لكن الرائحة كانت بعيدة ومحتجبة، كانت مجرد إشارة غامضة على سديم أكثر مما هي رائحة شخصية. بيد أنه تمكن من استخلاص هالة جماعية مشابهة، أنقى وأسمى عرَقياً، من الكنيسة، حيث نصب أعلام

الاختبار في ٢٤ من كانون الأول تحت المقاعد وجمعها في ٢٦ منه، بعد أن مرت عليها سبعة قداسات على الأقل. ارتسم على الخرق الشمعية خليط رهيب من عرق المؤخرات، دم الحيض، الربلات الرطبة، الأيدي المتشنجة ممزوجة بالأنفاس المنطلقة من الحلوق المغنية في جوقة والمتضرعة إلى الأم القديسة. خليط مرعب بتكوراته الضبابية، المغثثة، مشوشة المعالم، غير أنه إنساني دون سجال.

أما أول رائحة إنسانية فردية فقد غنمها غرينوي في المشفى. تمكن من سرقة شراشف سرير رقد فيه صانع كيّاس توفي بالسل، تلحف بها طوال شهرين وأعدت للحريق. كان الشرشف متشرباً بدهن صانع الكياس بحيث امتصت أبخرته كقماش المرث ويمكن تعريضها للتغسيل مباشرة. وجاءت النتيجة مهولة، بعث صانع الكياس شمياً تحت أنف غرينوي من زيت روح النبيذ وسبح في الفضاء، وإن كان مشوهاً بسبب منهج صانع الكياس في إعادة انتاج نفسه وبسبب عفن مرضه، إلا أنه واضح تماماً كصورة عطر فردي في المكان: رجل قصير القامة، في الثلاثين من عمره، أشقر الشعر، أفطس الأنف، قصير الأعضاء، مسطح القدمين رخوهما، متورم القضيب، مصفر الحيوية، وكريه رائحة الفم. لم يكن جميلاً ذاك الكياس رائحياً، لم يكن ثميناً كذلك الجرو، كي يحتفظ به غرينوي طويلاً. ورغم هذا سمح له أن يرفرف ليلة كاملة كروح عطرية في حظيرته وتشممه مغتبطاً وراضياً بشعور السطوة على هالة إنسان آخر، لكنه سكبه في اليوم التالي.

ثم قام بامتحان آخر في ليالي الشتاء الطويلة. ودفع فرنكاً لمتسولة بكماء، تشحذ في أرجاء المدينة، لتضع على عريها قطع قماش محضرة بمختلف أخلاط الزيت والشحم. وتبين له أن تركيبة من شحم كلية الحمل مضافاً إلى شحم الخنزير والبقر المكرر عدة مرات بنسب اثنين

إلى خمسة إلى ثلاثة، أضيفت إليه كمية قليلة من زيت العذرية، أفضل التراكيب لامتصاص الرائحة الإنسانية.

عند هذا الحد اكتفى غرينوي وعدل عن الاستيلاء على جسد إنسان حي ليصنعه عطرياً، لما في هذا الأمر من مخاطر، كما أنه لن يأتيه بمعارف جديدة. عالماً أنه تفقه في شريعة سلب الرائحة من الإنسان ولا داعي للبرهان على مهاراته من جديد.

كما أن عطر الإنسان بذاته لم يكن يعنيه في شيء، فله أن يحاكيه جيداً بمركبات تافهة، أما ما يقدسه فعلاً، فكان عطر أناس بعينهم، ندرة من البشر يلهمون الحب. وهؤلاء سيكونون ضحاياه.

٣٩

في كانون الثاني تزوجت أرملة آرنولفي مساعدها الأول دومينيك درو، الذي ارتقى بهذا التزاوج إلى كنية العطار وصانع القفازات. أقيمت وليمة كبيرة لمعلمي الحرفة جميعاً ووليمة أصغر للصناع. اشترت المعلمة فراشاً جديداً لسريرها الذي ستتقاسمه شرعياً مع درو وأخرجت ثيابها المبرقشة من الخزانة، أما بقية الحياة فظلت على حالها. فقد حافظت على اسمها القديم آرنولفي، احتفظت بثروتها لنفسها وبإدارة الأموال ومفاتيح القبو. أدى درو مهمّانه الجنسية يومياً ورفع مزاجه بعدها في الحانة. وقام غرينوي، الذي أصبح المساعد الأول والوحيد، بمعظم العمل بأجره القليل السابق، بالرعاية المتواضعة والمسكن الوعر.

بدأ العام بطوفان أصفر من أشجار السنا، السنبل، البنفسج والنرجس المخدر. وفي يوم من أيام الأحد في شهر آذار، ربما مضى على وصوله إلى غراس حوالى العام، انطلق غرينوي ليستطلع أحوال الحديقة خلف السور في الناحية الأخرى من المدينة. وتهيأ هذه المرة للعطر عالماً ما قد ينتظره. . . ورغم ذلك، عندما استنشقه منذ باب نوف على منتصف الطريق إلى مكانه خلف السور، اضطربت خفقات قلبه وشعر بالدم يفور في عروقه فورة السعادة. إذن ما زالت هنا، تلك النبتة التي لا يوجد لها مثيل في البلدان، تجاوزت الشتاء بصحة وعافية، ريانة، تنمو، تترعرع وتتفرع في أغصان محملة بالأزاهير. صار العطر، كما توقع غرينوي، أقوى دون أن يضحي بعذوبته. ما كان يتناثر ويفور رقيقاً في العام الماضي، انسكب في تيار متناسق من العطور الانسيابية، يترقرق بآلاف

الألوان، إلا أنه يشد كل الألوان في ذاته فلا تتشرذم. وهذا النهر، تأكد غرينوي منشرحاً، يتغذى من ينبوع يزداد قوة عاماً بعد عام، وبعد عام واحد، عام واحد فقط، اثني عشر شهراً فقط، سيتفجر الينبوع وسيكون له أن يقدم، يحيط بها ويحاصر انبعاث عطرها الوحشي.

سار مع الجدار حتى وصل مكانه المعهود خلف الحديقة، ورغم أن الصبية لم تكن فيها كما تبين، إنما في حجرة مغلقة النوافذ، إلا أن عطرها كان يهب كنسيم عليل. سكن غرينوي في محله، لم يخدر أو يفقد قواه مثل المرة السابقة، إنما ملأته مشاعر العاشق الذي يتنصت على حبيبته من بعيد أو يراقبها عالماً أنه سيتخذها خدينا له بعد عام. الحق أن غرينوي، القراد الانعزالي، السافل، الوحش، الذي لم يشعر قط بالحب ولم يوحي قط بالحب، وقف ذلك اليوم الآذاري إلى سور مدينة غراس عاشقا ومغموراً بالغبطة من عشقه. طبعاً لم يعشق الإنسان، لم يعشق الصبية في القصر خلف السور، لا، إنما عشق الطيب. عشقه وحده دون إنائه وعشقه باعتباره عطره المستقبلي. سيتخذه خديناً في بحر عام وأقسم على ذلك بحياته. وبعد هذا النذر المغلظ، أو الخطبة! بعد وعد الوفاء الذي قطعه لنفسه وعطره المستقبلي، ترك المكان منشرح الصدر وعاد ليدخل المدينة من باب دي كور.

مستلقياً في الليل على مضجعه في الحظيرة، استعاد غرينوي الرائحة في ذاكرته، فلم يكن قادراً على مقاومة الإغراء، وغرق فيها، تملى فيها وجعلها تتملى فيه، قريباً، على ملمس اليد، وكأنه يملكه فعلاً، عطره، عطره الخاص به، وأحبه، وأحب به نفسه، منتشياً وخدراً. أراد أن يأخذ هذا الشعور اللذيذ إلى منامه، لكن ما إن أغمض عينيه وراح ينعس، لمدة نفس واحد، هجره العطر، اختفى بغتة وحلت مكانه رائحة حظيرة الماعز الحادة والباردة.

ارتعب غرينوي وفكر: ماذا لو نفذ العطر الذي سأملكه؟ إنه ليس في ذاكرتي ككل العطور الخالدة فيه. العطر الحقيقي يستهلك في العالم. إنه طيار. وإذا نفذ مرة، فلن أجد الينبوع الذي ملأته منه. وسأغدو عارياً كما كنت وسيكون علي أن أعود للاستعانة بالمواد التافهة. لا، ستكون حياتي أسوأ. سأكون عرفته وملكته، عطري الخاص الرائع، ولن يكون بوسعي نسيانه، فأنا لا أنسى رائحة. وهكذا سأعيش بقية حياتي على ذكراه، كما عشت الآن لحظة على ذكراه المسبقة، هو الذي سوف أملكه... ولماذا أحتاجه أصلاً؟

امتعض غرينوي من فكرته، فقد ارتهب رهبة لا تطاق من فقدان الطيب الذي سيملكه، قبل أن يملكه. كم سيحتفظ به؟ عدة أيام؟ عدة أسابيع؟ شهراً، هذا إذا قتر في التعطر به؟ ثم ماذا؟ ورأى نفسه يرج الزجاجة ليستخرج منها القطرة الأخيرة، يغسل القارورة بروح النبيذ حتى لا يخسر ذريرة واحدة منه، ثم رأى عطره المحبوب يتطير للأبد من دون أن يعود. كأنه سيموت ميتة بطيئة، كأنه سيختنق من الداخل، كأنه سيتبخر تبخراً تدريجاً معذباً في العالم الظالم.

ارتعش خوفاً، سيطرت عليه الرغبة في التخلي عن خططه، في الخروج لليلته والفرار منها. سيرتحل عبر الجبال المثلجة، دون توقف، مئات الأميال حتى يصل جبال أوفيرني، سيزحف إلى مغارته وينام فيها حتى الموت. بيد أنه لم يفعل. ظل جالساً ولم يستسلم لرغبته رغم كل شدتها. لم يستسلم لها لأنها رغبة ماضية في الفرار والزحف إلى المغارة. رغبة يعرفها قبلاً. أما ما لا يعرفه، فكان امتلاك رائحة إنسانية بديعة كعطر الصبية خلف الأسوار. وحتى لو عرف أنه سيشري الطيب بخسارته التالية للامتلاك، وهو ثمن غال، فقد بدا له الامتلاك والخسارة أشرف من العدول المقتضب عنهما معاً. فقد عدل وتنازل في حياته كثيراً، غير أنه لم يخسر أو يملك قطّ.

اختفت الشكوك تدريجاً واختفت معها القشعريرة وشعر بالدم الحار يعيد فيه الحياة وبالإرادة تتملكه، إرادة إنجاز ما نوى عليه. وصارت إرادته أقوى، لأنها لا تنبع من الجشع المحض فحسب، بل ومن قرار حاسم تفكر فيه طويلاً أيضاً. وإذ وضع القراد غرينوي أمام خيارين، إما أن يجف في ذاته أو يتساقط، اختار الثاني وهو يعلم أنه آخر ما سيقوم به. تمدد مرتاحاً على القش، مرتاحاً تحت الغطاء وبدا لنفسه بطلاً من أبطال الزمان.

لكن غرينوي ليس غرينوي إن قنع طويلاً بإحساس قدري بالبطولة، فقد كانت إرادة إثبات الذات صلبة فيه، كانت كينونته هائجة وروحه مكررة ليقنع بسهولة. ليكن، لقد قرر امتلاك رائحة الصبية خلف الأسوار، وحتى إذا خسرها بعد أسابيع ومات حسرة على الخسران، ليكن. لكن الأفضل ألا يموت ويملك العطر، أو أن يمدد في أجل الخسارة قدر الإمكان. ولهذا يجب تمديد صلاحية الرائحة، يجب التحكم في تطيرها دون سلب خصوصيتها. فما حل هذه المعضلة؟

هناك عطور تبقى آثارها لعقود، فخزانة مفروكة بالمسك، قطعة جلد مشربة بزيت القرفة، صرة عنبر، علبة من خشب الأرز تملك الحياة الأبدية. وعطور أخرى، كزيت الأترج، البرغموت، خلاصة النرجس وبصيلات سنبل الليل، وكثير غيرها تلفظ أنفاسها بعد عدة ساعات إذا عرضت للريح نقية ودون ربط. يحل العطار هذه المشكلة العويصة بأن يربط العطور الطيارة مع أخرى ثابتة، أي يكبلها عملياً بأغلال تكبح جماح نزعتها إلى الحرية. والفن الأعظم يكمن في إرخاء الأغلال بحيث تحافظ الرائحة المربوطة على حريتها الكاملة ظاهرياً، وشدها بحيث لا تتمكن من الفرار. حقق غرينوي كمال هذا الفن ذات مرة مع زيت سنبل الليل، الذي كبل روحه الطليقة بكميات قليلة من الصمغ،

الفانيليا، اللبدانوم والسرو وأظهر بذلك فحواه. فلماذا لا يمكن السير على نفس المنهج مع عطر الصبية؟ لماذا يستخدم أنفس العطور وأندرها خالصاً ويهدره بذلك؟ يا للغباء! يا لسوء العاقبة! ألا يصقل الماس؟ أيوضع الذهب سبائك في العنق؟ هل ينهب، هو غرينوي، روح المواد العطرية بأسلوب بدائي مثل درو والمنقعين والمقطرين وساحقي الأزهار؟ أم أنه أعظم عطاري العالم؟

ضرب بيده على جبينه دهشة، لأنه لم يفكر في ذلك قبلاً. طبعاً لا يمكن استخدام هذا العطر النفيسِ خاماً. عليه أن يتعامل معه كحجر ثمين. عليه أن يصهر تاجاً عطرياً يسطع من أسمى قممه عطره الخاص مربوطاً إلى روائح أخرى وسيداً عليها. سيستحضر العطر بحسب قواعد الفن وستكون رائحة الصبية خلف الأسوار زبدته.

طبعا لن يكون المسك والصمغ، زيت الورد والنارنج، الأساس، الوسيلة، الروائح المعينة والمحاليل، فهذه لا تنفع. هكذا عطر، العطر الإنساني، تعوزه مركبات أخرى.

٤٠

في أيار العام ذاته وجدت في حقل ورد في منتصف الطريق بين غراس وقرية اوبيو الواقعة شرقاً، جثة عارية لصبية في الخامسة عشرة من العمر، مقتولة بضربة هراوة على قذالها. اضطرب القروي الذي اكتشف الحدث الأليم، حتى كاد يورط نفسه في الشبهات بإعلانه مرتعش الصوت لضابط الشرطة أنه لم ير في حياته مثل ذلك الجمال، وهو يقصد أنه لم ير قط شيئاً على مثل تلك الشناعة.

وفعلاً كانت الصبية ذات جمال خلاب، من تلك النساء حارّات الدم كأنهن مصنوعات من العسل الداكن، الرشيقات، الحسناوات، الدبقات، اللواتي يسدن الفضاء بسحنة رقراقة، برمية شعر، بلسعة بطيئة من سياط العيون، ويبقين ساكنات كأنهن في مركز زوبعة، لا يلقين بالاً إلى قوة جاذبيتهن، التي تجذب رغبات وأرواح الرجال والنساء معاً دون مقاومة. وكانت فتية، فتية جداً، لم تسل جاذبيتها في السيل المنوي بعد، ما زالت أعضاؤها المتينة رشيقة وصلبة، نهداها كالبيض المقشور، وجهها المسطح، الذي يلوح عليه شعر أسود كثيف، لا يزال محافظاً على معالم يانعة وثنايا خفية. أما الشعر ذاته فقد اختفى، قصه القاتل وأخذه مثله مثل الثياب.

اشتبه الناس بالغجر، فالغجر يأتون بكل الفواحش، ينسجون أبسطة من الملابس القديمة، يحشون وسائدهم بشعر البشر ويصنعون دمى صغيرة من جلد المشنوقين وأسنانهم. لا يرتكب الجرائم البشعة إلا الغجر. لكن الغجر لم يكونوا متواجدين ذلك الوقت، لا في القريب

ولا في البعيد وآخر مرة هجموا فيها على المنطقة كانت في كانون الأول.

بغياب الغجر اشتبه الناس بالعمال الإيطاليين الجوالين. غير أن الإيطاليين لم يكونوا متواجدين، وهم لا يقبلون على الأرياف إلا في موسم الياسمين في حزيران. بذلك خرج الإيطاليون عن دائرة الاتهام، فجاءت الشبهة على صناع الشعر الاصطناعي وتحرت الشرطة عن شعر الصبية المغدورة لديهم، دون نتيجة. ثم اشتبه باليهود، ثم برهبان دير البنديكتيين، الذين سرت أنباء شبقهم في كل الأنحاء وهم في معظمهم تجاوزوا السبعين. فاشتبه بأخوية السيسترتسيين، ثم بالبنائين الأحرار، ثم مجانين المشفى، ثم الفحامين، ثم المتسولين وأخيراً وليس آخراً بالنبلاء المتهتكين، خاصة منهم الماركيز فون كابري، الذي تزوج للمرة الثالثة وسرت الإشاعات عن إقامته حفلات عربدة في قبوه يشرب فيها دم العذارى ليشد من عزم طاقاته الجنسية. لم يعثر أحد على الأدلة. لم يشهد أحد الجريمة ولم يجد أحد شعر وثياب الصبية. وبعد عدة أسابيع جمد ضابط الشرطة التحقيق.

أواسط حزيران جاء الإيطاليون وجاء الكثير منهم برفقة عائلاتهم ليعملوا في قطف الزهور. ورغم أن القرويين استعملوهم، إلا أنهم منعوا على نسائهم وبناتهم الاختلاط بهم، فما زالت الشكوك تحوم حولهم، فالأكيد أكيد. ورغم أن العمال الموسميين لم يكونوا مسؤولين عن الجريمة، فإنهم قد يكونون مسؤولين عنها من حيث المبدأ ولهذا فضل الناس الحذر منهم.

وبعد مرور فترة وجيزة على بدء حصاد الياسمين، حدثت جريمتا قتل في آن واحد. ومرة أخرى كانت الضحيتان صبيتان رائعتا الجمال، مرة أخرى ذاتا شعر أسود، مرة أخرى عثر عليهما عاريتين مقصوصتي

الشعر ومرميتين في حقل الأزهار بجرحين في قذاليهما. ومرة أخرى لم يترك القاتل أي أثر. انتشر الخبر بسرعة البرق وكادت العداوات ضد الطائفة المهاجرة أن تتفجر، قبل الإعلان عن أن الضحيتين إيطاليتان وابنتا أجير من جنوى.

سرى الخوف في الأرض. لم يعد الناس يعلمون على من يصبون غضبهم المكبوت. ورغم أن البعض ما زال يتهم المجانين أو الماركيز الجهم، لكن أحداً لم يصدق هذه التهم حق الصدق، فأولئك تحت الحراسة المشددة ليل نهار وذاك سافر إلى باريس منذ عهد بعيد. بهذا التحم الناس جميعاً. فتح القرويون أبواب حظائرهم للمهاجرين، الذي ضربوا خيامهم حتذاك في العراء. نظم المدينيون دوريات ليلية في كل حي وأمر ضابط الشرطة بزيادة عدد الحراس على أبواب المدينة. لكن كل الإجراءات ذهبت أدراج الرياح. فبعد عدة أيام من جريمة القتل المزدوج، وجدت جثة جديدة لصبية، حالها حال السابقات. وكانت الجثة الجديدة جثة غسالة من سردينيا، تعمل في قصر الأسقف، قتلت قرب البحيرة الكبيرة على «فونتين دو لا فو»، على مشارف المدينة.

ورغم أن المستشارين اتخذوا إجراءات أشد، رفعوا درجة المراقبة على الأبواب، ضاعفوا قوة الدوريات الليلية، منعوا التجول على جنس النساء بعد حلول الظلام، لكن لم يمض أسبوع في ذلك الصيف دون اكتشاف جثة صبية فتية. وكانت كلهن صبايا يبدأن بالتحول إلى نساء، وكانت كلهن الأجمل بين النساء، من ذلك النموذج الداكن، الدبق، رغم أن القاتل لم يعد يستنكف في هذه الأثناء من ذلك النوع السائد بين الأهالي، من الصبايا البضات، بيضاوات الجلد والترفات. وصارت حتى الحنطاويات وداكنات الشقرة يسقطن ضحاياه، ما دمن غير هزيلات. كان القاتل يستدل عليهن في كل مكان، ليس في محيط

غراس فحسب، بل وفي وسطها، حتى في البيوت. قتلت ابنة أحد النجارين في مخدعها في الطابق الخامس ولم يسمع أحد القاطنين أدنى صوت، كما أن الكلاب لم تنبح وهي التي تتنسم كل غريب عن بعد وتنبح عليه. لاح وكأن القاتل لا يلمس، لا جسد له وليس إلا شبحاً.

غضب الأهالي وبدأوا يسبون السلطات. كانت أتفه الإشاعات تدفع الناس إلى التجمهر. وكادوا أن يذبحوا بائعاً متجولاً يبيع مسحوق الحب ومعاجين أخرى، فقد قيل أن بضاعته تحوي مسحوق شعر البنات. أشعلت النار في المشفى وفي قصر الماركيز كابري. أطلق تاجر المناديل الكسندر مسينا النار على خادمه أثناء عودته ليلاً إلى البيت، ظاناً أنه قاتل الصبايا سيئ الصيت. أرسل من ينقل بناته البالغات إلى بيوت الأقارب البعيدة أو بيوت داخلية في نيس، في إيكس أو مرسيليا.

أقيل ضابط الشرطة من منصبه بدفع من مجلس البلدية. أمر خليفته بأن تفحص لجنة طبية جثث الفاتنات المغدورات على عذريتهن، ووجدت اللجنة أنهن لم يمسسن. والمدهش أن هذه المعلومة لم تهدئ من ذعر الناس، بل وزادته، فقد حسب الجميع في سرهم أن الصبايا اغتصبن، ووجدوا بذلك دافعاً إلى الجريمة. وبعد هذه الطامة، لم يعد أحد يدرك كنه الجريمة وصار الجميع في حيرة من أمرهم.

من آمن بالله وجد النجدة في الصلاة، راجياً أن يصون الرب بيته على الأقل من الوباء الشيطاني. مجلس البلدية، وهو هيئة مؤلفة من ثلاثين رأساً من أغنى الأغنياء وأشهر برجوازيي ونبلاء غراس، وهم في غالبهم متنورون ومعادون للكنيسة، محافظون على مسافة بينهم وبين الأسقف ويتمنون أن يروا الأديرة والصوامع مستودعات بضاعة ومعامل، السادة العزيزون والماكنون في مجلس البلدية، تنازلوا عن كبريائهم وكتبوا التماساً خنوعاً إلى الأسقف، يرجونه لعن الشبح، قاتل الصبايا،

الذي لم تقدر عليه القوى الدنيوية، وتقييده كما فعل سلفه الشريف عام ١٧٠٨ بالجراد المرعب، عندما غزا البلاد. وفي نهاية أيلول لعن وقيد قاتل الصبايا في غراس، الذي قتل حتذاك ما لا يقل عن أربع وعشرين من أجمل العذراوات من مختلف طبقات الشعب، كتابة وشفاهاً من جميع مستشاري المدينة وبينهم مستشار نوتردام دي بوي، عبر الأسقف شخصياً.

كان النجاح باهراً وتوقفت الجرائم بين ليلة وضحاها. مضى شهرا تشرين الأول وتشرين الثاني دون جثث. في مطلع كانون الأول جاءت أنباء من غرينوبل، مفادها أن قاتل صبايا يحوم هناك، يخنق ضحاياه ويمزق ثيابهن وينتف شعر رؤوسهن. ورغم أن الجرائم الفظة لا تتفق في شيء مع جرائم غراس المتقنة، إلا أن الجميع كانوا واثقين أنه نفس القاتل. وتنفس أهالي غراس الصعداء راسمين علامة الصليب ثلاث مرات لفرحتهم بأن الوحش لم يعد يعيث فسادا في مدينتهم، إنما في غرينوبل التي تبعد سفر سبعة أيام. قاموا بمسيرة مشاعل على شرف الأسقف وأقاموا في ٢٤ من كانون الأول قداساً كبيراً. خففت الإجراءات الأمنية المشددة في كانون الأول عام ١٧٦٦ ورفع حظر التجوال عن النساء. وبسرعة غير معقولة عادت الحياة إلى طبيعتها، سواء العامة أم الخاصة. طار الخوف ولم يعد أحد يتحدث عن الرعب الذي ساد المدينة وأطرافها قبل قليل من الشهور. لم تعد العائلات المصابة تتحدث عنه وكأن لعنة الأسقف لم تكف لنفي القاتل وحده، بل ونفت معه الذكريات عنه.

ولكن من كانت له ابنة تبلغ السن السحرية، لا يتركها من دون رقابة إلا على مضض، يشعر بالجزع إذا حل الغسق، وإذا وجدها سالمة غانمة في الصباح، يشعر بالسعادة، طبعاً من دون أن يعترف لنفسه بالسبب.

٤١

بيد أن ثمة رجلاً في غراس لم يطمئن إلى السلم السائد. كان اسمه أنطوان ريشي، يحمل على كتفيه عبء منصب المستشار الثاني ويسكن في دار حكومية، في أول شارع دروات. كان ريشي أرمل ويملك ابنة اسمها لور. ورغم أنه لم يبلغ الأربعين ويتمتع بعالي الحيوية، إلا أنه كان يفكر في تأجيل زيجة ثانية لبعض الوقت، راغباً في خطبة ابنته لور أولاً. طبعاً ليس لأول خير المتقدمين، إنما لابن أحد النبلاء، فقد كان يعرف بارونا في بويون، يملك ابناً وإقطاعاً قرب فانس ويتمتع بصيت حسن ووضع مالي متدهور، اتفق معه سلفاً على المصاهرة مستقبلاً. وإذا صارت لور في بيت الزوجية، سيوجه مجساته الاحتفالية نحو بيوتات عالية السمعة مثل دري، موبير أو فونميشيل، ليس لأنه مغرور ويسعى بكل السبل لامتلاك مخدع زوجي نبيل، بل رغبة منه في تأسيس أسرة وعقب يقود إلى أعلى المنازل الاجتماعية والأثر السياسي. ولهذا يحتاج ولدين آخرين، يأخذ أحدهما مكانه في العمل ويشق الآخر دربه حتى إلى صف النبلاء عبر دراسة القانون وبرلمان إيكس. كرجل من طبقة البرجوازيين لم يكن له شد مطامحه إلى حبال النجاح دون ربط شخصه وعائلته مع نبلاء الريف بعروة وثقى. وما لمح له بالوصول إلى عنان السماء كانت ثروته الطائلة، فقد كان ريشي من أغنى البرجوازيين على الإطلاق. ما كانت أملاكه تقع في محيط غراس وحدها حيث يزرع البرتقال والزيتون والبر والقنب، بل تمتد إلى فانس وآنتيب، حيث يحتكرها. كان يملك مباني في إيكس، مباني في الريف، أسهماً في

السفن التي تصل الهند، مكتباً محترماً في جنوى وأضخم مخازن تجارة العطور والأفاويه والجلود في فرنسا.

لكن أنفس ما يملكه ريشي كانت ابنته. وهذه كانت طفله الوحيد، في السادسة عشرة من العمر، بشعر أحمر داكن وعينين خضراوين. كان وجهها على مبلغ من الجمال، يتجمد الزوار من جميع الأعمار لمشهده برهة غير قادرين على تحويل أنظارهم عنه، ويكادون يلعقونه بعيونهم، كما يلعقون البوظة باللسان، وترتسم على وجوههم أثناء هذا الانشغال اللاعق التعابير النموذجية لانغماس أحمق.

وحتى ريشي كشف في نفسه، أنه عندما يشاهد ابنته ينسى الدنيا لأجل غير مسمى، لربع ساعة، نصف ساعة وينسى بذلك أعماله، ما لا يحدث له حتى في النوم، يذوب كليًا في تملي الصبية البديعة ولا يعلم بعد ما الذي يفعله. كما وجد حديثاً، بعذاب ضمير، أنه عندما يأخذها مساء إلى السرير، أو يذهب صباحاً لإيقاظها، وهي لا تزال نائمة في الفراش كأن يد الله وضعتها فيه، وتبرز انحناءات وركيها ونهديها من تحت حجاب ثوب النوم، وتتصاعد أنفاسها هادئة من خلل مربع الصدر والإبط والمرفق والذراع البضة، الذي دست فيه وجهها... كانت معدته تتشنج وتضيق حنجرته ويبلع ريقه، ويحدث له ما يعلمه الله. كان يلعن نفسه لأنه والد المرأة وليس غريباً، رجلاً ما تضطجع هي أمامه كما هي وله أن يضطجع إليها، عليها، فيها، بكل شهواته دون روادع. كان العرق ينز من جسده وترتجف أوصاله بينما يخنق الشهوة الجامحة في نفسه وينحني عليها ليوقظها بقبلة أبوية بتول.

في العام الماضي، في عام القتل، لم تدر في نفسه هذه الصراعات وكان السحر الذي تثيره فيه ابنته وقتذاك سحراً طفولياً، أو هكذا خال. ولذا لم يخف فعلاً أن تقع ضحية لذلك المجرم الذي لا يقتل الأطفال

والنساء البالغات، بل ينقض على العذراوات اليافعات فقط، ورغم أنه شدد الحراسة على منزله، أمر بوضع قضبان جديدة على نوافذ الطابق الأعلى وأصر على الوصيفة لتشارك لور في مخدعها، إلا أنه امتنع عن إبعادها كما فعل أبناء طبقته ببناتهم، بل وبعائلاتهم. فقد احتقر هذا السلوك ووجده لا يليق بعضو في المجلس ومستشار ثان، عليه أن يكون مثال الهدوء والشجاعة والصلابة، كما قال. وعلاوة عليه فقد كان رجلاً لا يأخذ قراراته بناء على تعليمات يصدرها آخرون، رعاع مذعورون أو وغد مجهول من المجرمين بوجه خاص. وهكذا فقد كان أحد قلائل الرجال المحصنين ضد حمى الرهاب الجمعي والمحتفظين برباطة الجأش في عهد الإرهاب. لكن الحياة انقلبت فجأة، فبينما العامة تحتفل بنهاية زمن الجريمة وكأنهم شنقوا القاتل وخلفوا الزمن التعيس وراء ظهرانيهم، دخل الخوف قلب أنطوان ريشي كسم قاتل. لم يعترف طوال الوقت بأن الخوف دفعه على أن يؤجل رحلاته، على ألا يترك بيته عن طيب خاطر، أن يختصر الزيارات والاجتماعات، كي يعود بأقصى سرعة إلى البيت، معتذراً لنفسه بضيق الوقت وكثرة الأعمال، ومقراً لنفسه أنه قلق قليلاً قلق كل أب يملك ابنة في سن البلوغ وهو قلق طبيعي. ألم يصل صيت جمالها إلى كل الأسماع؟ ألا تشرئب الأعناق حينما يذهب معها إلى الكنيسة يوم الأحد؟ ألا يقدم سادة معينون في المجلس الإغراءات سواء بأسمائهم أم بأسماء أبنائهم؟

٤٢

ثم حدث ذات يوم من أيام آذار أن كان ريشي جالساً في الردهة ورأى لور تخرج إلى الحديقة. كانت ترتدي ثوباً أزرق يسيل عليه شعرها الأحمر متوهجاً في نور الشمس. لم يرها ريشي على ذلك الجمال الفتان من قبل. اختفت خلف السياج، ثم غابت أطول مما انتظر بمقدار خفقتي قلب قبل أن تظهر من جديد، فشعر بخوف قاتل ظاناً طوال خفقتي قلب أنه فقدها إلى الأبد.

وفي الليلة ذاتها استيقظ عن حلم مرعب، لم يتذكر فحواه، غير أنه كان عن لور. فانقض على حجرتها واثقاً أنها ماتت، قتلت، مثِّل بها وجز شعرها. لكنه وجدها في سريرها طاهرة عفيفة. فعاد إلى مخدعه مبللاً بالعرق من شدة الهيجان، لا، ليس هيجاناً، بل خوفاً. واعترف بالخوف، نعم إنه الخوف المحض، وإذ أقر به هدأ وصفى رأسه. وإذا أقر بالحقيقة، فإنه لم يؤمن منذ البداية بأثر لعنة الأسقف، كما لم يؤمن بأن السفاح يحوم في غرينوبل، كما لم يؤمن بأنه ترك المدينة أصلاً. كلا، ما زال في المدينة، في وسط سكان غراس وسيعود ذات مرة ليضرب ضربته الصاعقة. كان ريشي قد شاهد في آب وأيلول بعض الصبايا المغدورات. غثه المشهد لكنه، كما عليه أن يقر، سحره في الآن ذاته. فقد كن كلهن جميلات منتخبات ولكل منهن جمالها الخاص. ما تصور قط إن في غراس كل هذا الجمال. فتح له القاتل عينيه. للقاتل ذوق ممتاز. كما أن له نهجاً يسير عليه. لم ترتكب كل

الجرائم بالأسلوب المتقن عينه فحسب، بل كشف اختياره لضحاياه عن نيات سرانية عميقة. ورغم أن ريشي لم يكتشف ما الذي يقدسه القاتل في ضحاياه، فهو لم يسلبهن أفضل ما فيهن، جمالهن وفورة شبابهن... أم أنه فعلها! على كل حال بدا له أن القاتل ليس هداماً، مهما كانت الفكرة غريبة، إنما جامع تحف مهووس. وفكر ريشي، إذا تصور أحدهم الضحايا أجزاء من أس أسمى، وليس مجرد أفراد، وصهر خصالهن الذاتية في بوتقة الكمال الموحد، ستكون الصورة المركبة من قطع الموزاييك التي يجمعها، صورة الجمال المطلق، ولن يكون سحرها إنسانياً، بل سيكون إلهياً. كما نرى، فإن ريشي كان رجلاً متنوراً لا يرتعب حتى من النتائج الكافرة، وحتى لو لم يفكر من باب الرائحي إنما من باب البصري، بيد أنه دنا من الحق.

تابع ريشي تحليله: إذا صح أن المجرم جامع للجمال ويسعى لتحقيق صورة الكمال، حتى لو كان في خيال عقل مريض. ثم إذا صح أنه رجل ذواقة وذو أسلوب دقيق، كما يبدو في الواقع، فلن يمكننا تصور أنه سيتخلى عن أنفس قطع الصورة التي له أن يجدها على الأرض، عن جمال لور. وبهذا لن تكون لكل الجرائم التي ارتكبها حتى الآن قيمة. إن لور الحجر الأسود في مبناه.

كان ريشي جالساً في ثوب النوم على سريره بينما يستقرئ النتائج المرعبة واستغرب هدوء خاطره. لم يعد يرتعش أو يرتجف. اختفى الخوف المجهول الذي ألم به منذ أسابيع وأفسح المجال لوعي الخطر المعلوم. فبصيرة القاتل وبصره مصوبان نحو لور منذ البداية. وكل الجرائم الأخرى لم تكن إلا ملحقات ثانوية في الطريق إلى الجريمة الكبرى. ظلت الغاية العينية من الجرائم منغلقة عليه، هذا إن كانت

عينية، غير أن ريشي كشف الجوهري، أعني أسلوب السفاح المنهجي ودافعه المثالي. وكلما أطال التفكير بهما، كلما أعجباه أكثر وكلما ازداد احترامه للقاتل. طبعاً الاحترام الذي ينعكس من مرآة شاحبة، فقد كان هو، ريشي، من تقصى أثر العدو بفهمه التحليلي العميق.

لو كان ذاته مجرماً مهووساً بنفس الأفكار الجياشة، فلن يتصرف بأسلوب يختلف عن أسلوب السفاح وسيسعى مثله بكل جهوده ليتوج عمله الجنوني بقتل لور، الرائعة، النفيسة بين النفائس.

أعجبته الفكرة الأخيرة أيما إعجاب، فقد جعله وضع نفسه موضع قاتل ابنته المستقبلي في منزلة أعلى منه. فالقاتل، وهذا ما كان واثقا منه كل الثقة، لم يكن رغم كل ذكائه بقادر على اتخاذ موضع ريشي، ولو لسبب بسيط، هو أن القاتل لا يستطيع التكهن بأن ريشي وضع نفسه مكانه. وعملياً لم يكن هذا يختلف كثيراً عن أحوال التجارة، ببعض التحوير طبعاً. باكتشاف نيات الخصم تتغلب عليه، فهذا لن يتمكن من صلبك، خاصة إذا كان اسمك انطوان ريشي، الذي خاض كل المحن وله طباع المقاتل. إن لقب أعظم عطاري فرنسا والثروة ومنصب المستشار الثاني لم تأته عن عبث، لقد انتزعها نزعاً، عركها من الحياة عركاً واسترقها بأن تنبأ بالمخاطر في موعدها، بأن تكهن بخطط المنافسين وتفوق على الخصوم. وبهذه الوسيلة سيبلغ غاية مستقبله: السلطة ونبل نسله. ولن يتخذ وسيلة أخرى لتدمير خطط القاتل، منافسه على ملكية لور. حتى لو لم يكن الداعي إلا لأن لور الحجر الأسود في مبناه هو أيضاً. يقيناً أنه يحبها، لكنه يحتاجها أيضاً. وما يحتاجه لتحقيق أسمى طموحاته، لن يدعه ليسرقه الآخرون، بل سيتمسك به بالظفر والناب.

شعر بحاله أفضل، بعد أن تمكن من إخضاع تأملاته الليلية في الصراع مع الشيطان لسجال عملي، أحس بالجسارة، بل بالغرور يأخذ له مكاناً من قلبه. تطيرت آخر بقايا الخوف، اختفت مشاعر الخور والقلق الموحش، التي عذبته كهرم واهن، انقشع ضباب الأوهام الكئيبة، التي تخبط فيها منذ أسابيع. إنه في ساحة وغى يعهدها، فلتقبل التحديات.

٤٣

منشرحاً، بل شبه مغتبط، شدّ حبل الجرس وأمر خادمه المترنح بشد المتاع والتموين زاعماً أنه ينوي السفر في باكورة الصباح إلى غرينوبل بمعية ابنته. ثم ارتدى ثيابه وذب باقي الخدم من الأسرة.

في أشدّ الليل استيقظ قاطنو المنزل في شارع دروات على نشاط جم. أوقدت النيران في المطبخ، هرعت الخادمات في الممرات، نهب الخدم الدرجات صعوداً ونزولاً، قرقعت مفاتيح صاحب المخازن في القبو، أشعلت المشاعل في الفناء، ركض عبيد لإعداد الخيول وجر غيرهم البغال من الاصطبل، شدت الأعنة، أسرجت الحيوانات، حملت في هرج ومرج وكان الشاهد سيظن أن جحافل النمسويين والسردينيين جاءت لتنهب البلاد والعباد كما في عام ١٧٤٦ وأن رب البيت يستعجل الفرار. لكن رب البيت كان بخلاف ذلك جالسا إلى طاولة الكتابة ومسيطراً على الأوضاع كمارشال فرنسي إلى مكتبه، يشرب القهوة بالحليب ويصدر التعليمات إلى أهله، الذين يدخلون عليه بين الفينة والأخرى. وعلاوة على هذا كتب رسائل إلى العمدة والمستشار الأول، إلى الكاتب بالعدل، إلى محاميه وصيرفيه في مرسيليا وإلى البارون بويون ومختلف الشركاء.

في حوالى السادسة انتهى من تدوين الرسائل وأصدر أوامره اللازمة لتحقيق غايته. أخذ طبنجتين صغيرتين، شد حزام النقود على خصره وأغلق درج الطاولة. ثم ذهب ليوقظ ابنته.

في الثامنة بدأت القافلة الصغيرة السير، يتقدمها ريشي مرتدياً قفطاناً خمرياً فاخراً موشى بالذهب ومعطفاً أسود وقبعة سوداء بأرياش متحدية، تتبعه ابنته في أثواب متواضعة، إلا أن جمالها ساطع، بحيث لم ينظر القوم في الشارع والنوافذ إلا إليها، بحيث تلمظ الشعب وبحيث رفع الرجال قبعاتهم، تحية للمستشار ظاهراً ولها حقيقة، هي المرأة الشاهنشاهية. ثم تلت الوصيفة دون أن يعبأ بها أحد، ثم خادم يشد رسن جوادي حمل، فلم يكن في وسعهم استخدام العربة لأن الطريق إلى غرينوبل رديئة، وفي نهاية القافلة سار أربع وعشرون بغلاً يحرسها عبدان. قدم الحرس السلاح على باب دي كور ولم ينزله إلا بعد أن عبر آخر بغل. ركض الأطفال خلفهم حتى مسافة بعيدة، لوحوا للقافلة التي ابتعدت ببطء على الدرب الجبلية الوعرة.

خلفت قافلة انطوان ريشي وابنته في الناس عميق الأثر وغريبه، كأنهم صاروا شهداء موكب قرابين من غابر الأزمان. انتشر خبر رحيل ريشي إلى غرينوبل، المدينة التي يسكنها الشبح قاتل الصبايا. لم يدرك الناس كيف يؤولون الخبر. هل ما يقوم به ريشي خفة يعاقب عليها، أم شجاعة جديرة بالإعجاب؟ هل يتحدى الآلهة أم يسكن سورتها؟ حدسوا بأنهم يرون الصبية ذات الشعر الأحمر للمرة الأخيرة. أحسوا بأنهم خسروا لور ريشي للأبد.

ستتأكد صحة أحاسيسهم، ولو بشروط مختلفة كل الاختلاف. فريشي لم يرحل إلى غرينوبل، لأن السفر الفخم لم يكن إلا حيلة. بعد ميل ونصف شمال غربي غراس، قرب قرية سان فالييه، أمر بالتوقف. سلم خادمه مختلف التوكيلات والوصايا وأمره بمتابعة الرحيل مع العبيد والبغال إلى غرينوبل. أما هو فاتخذ بصحبة لور والوصيفة وجهة كابري حيث توقف ظهراً للاستراحة وركب من ثم عبر تلال تانيرون نحو

الجنوب. كان السير شاقاً، لكنه يسمح بتحاشي غراس وحوضها في منحن غربي للوصول إلى الساحل مساء دون أن يكتشف أمرهم، حيث قرر ريشي أن ينتقل في اليوم التالي بصحبة لور إلى جزر ليرين، التي يتواجد على أصغرها دير سانت هونورا الحصين، الذي يقيم أوده بضعة رهبان هرمين، إلا أنهم يتمتعون بقدرات عالية للدفاع عن حصنهم، يعرفهم ريشي حق المعرفة، فقد كان يسوق مجمل إنتاج الدير من عرق شجر أوكاليبتوس وبذور الصنوبر وزيت السرو. وهناك، في دير سانت هونورا، الذي يعتبر علاوة على سجن شاتو ديف ومعتقل جزيرة سانت مارغريت، من آمن الأمكنة في الريف، أراد أن يخفي ابنته. أما هو فسيعود دون توقف إلى اليابسة، يتمادى غراس في طريق العودة عبر آنتيب وكاني شرقاً، ليصل مساء اليوم ذاته إلى فانس، فقد طلب حضور الكاتب العدل إلى هنالك، بغية الوصول إلى اتفاق مع البارون بويون حول خطبة ولديهما لور وألفونس. ناوياً أن يعرض على البارون عرضاً لن يرفضه. ألا وهو تحمل ديون مقدارها ٤٠ ألف ليرة ومهر على نفس القدر، بالإضافة إلى كثير من الأراضي ومعصرة زيتون قرب مانمانوسك، راتب تقاعدي للزوجين مقداره ثلاثة آلاف ليرة. وشرطه الوحيد هو اتمام الزواج في عشرة أيام والدخول بالزوج في يوم الحفل وأن يسكن الزوجان في فانس.

كان ريشي يعلم أنه بتصرفه العاجل يرفع ثمن ارتباط آله بآل بويون في الأعالي، فلكان له بشيء من التأجيل الحصول على الرباط بثمن زهيد. كان البارون سيتسول المصاهرة ليسمح لابنته بالارتقاء من طبقة التجار البرجوازيين إلى طبقة النبلاء، فصيت جمال لور سيتنامى، مثله مثل ثروة ريشي ومثله مثل بؤس بويون المالي. لكن ليكن. فليس البارون هو الخصم في هذه التجارة، إنما السفاح المجهول، والمطلوب

إفساد تجارته هو. فامرأة متزوجة، مفضوضة البكارة، وربما حامل، لن تناسب معرضه الخاص. سيطفئ آخر حجارة الموزاييك، ستفقد لور قيمتها في عيني القاتل، سيفسد عمله. وعليه أن يشعر بالهزيمة. سيقيم ريشي حفل العرس في غراس بكل فخامة وأمام كل الأعين. وحتى لو لم يعرف خصمه ولن يعرفه، فإنه سيستمتع لأنه يعلم أن ذاك سيكون بين النظارة وسيكون عليه أن يرى بأم عينيه، كيف سدت عليه الطريق إلى أقدس مقدساته.

خطط ريشي خطة لا تعكر صفوها شائبة. ومرة أخرى علينا إبداء الإعجاب بأحاسيسه العالية، التي دنا بها من الحقيقة. فالحق أن اقتياد لور ريشي من قبل ابن البارون بويون ستكون هزيمة نكراء لقاتل صبايا غراس. غير أن الخطة لم تتحقق بعد. لم يدخل ريشي ابنته بيت الزوجية بعد. لم ينقلها إلى الديرالآمن على جزيرة سانت هونورا بعد. ما زال الفرسان الثلاثة يتعثرون في وعورة تلال تانيرون. وأحياناً كانت الدروب عسيرة، بحيث يضطرون للترجل. كان المسير بطيئاً جداً. وأملوا في الوصول إلى نابول، الضيعة الصغيرة غربي كان، على البحر مساء.

٤٤

في الوقت الذي غادرت فيه لورا ريشي غراس بصحبة أبيها، كان غرينوي في النهاية الأخرى من المدينة، في ورشة آرنولفي ينقع النرجس الأسلي. كان بمفرده ومستمتعا بوحدته. لقد بدأت نهاية عهده بغراس. اقترب يوم النصر، فهناك في الكوخ، علبة مشمعة، أربع وعشرون قارورة صغيرة تحوي هالات أربع وعشرين عذراء متحولات قطير، أفضل الأرواح التي استخلصها غرينوي في العام الماضي بمرث الأجسام، بتكرير الشعر والثياب والتغسيل والتقطير. وسيأتي اليوم بالخامسة والعشرين، الأنفس والأهم. أعد بوتقة وضع فيها شحماً كرره عدة مرات، قماشاً من أرقى أنواع الكتان ودمجانة من الكحول المنقى، لأجل الصيد الأخير. هيئت الساحة أفضل تهيئةً. كان القمر هلالاً.

كان يعلم بلا جدوى اقتحام الدارة المحصنة في شارع دروات. لهذا نوى التسلل إليها مع الغسق قبل إحكام الأبواب والاختباء في إحدى أركان المنزل، ليبقى تحت مظلة عدم الرائحة التي تخفيه كطاقية الإخفاء عن حواس الإنسان والحيوان. ولاحقاً، إذا نام الجميع، ستقوده بوصلة أنفه في الظلام إلى حجرة كنزه. سيشتغل عليه في مكانه بالقماش المشبع بالزيت. لن يأخذ كالعادة سوى الشعر والثياب، لأن لهذه الأجزاء أن تمتقع مباشرة في روح النبيذ، الأمر الذي يتم بسهولة أكثر في الورشة. وسيخصص ليلة أخرى للعمليات النهائية على المرهم وتقطير المركز العطري. وإذا أخذت الأمور مجراها الآمن، ولم يكن لديه أدنى شك في أنها ستأخذه، سيكون بعد غد ملكاً على أفضل

العطور في العالم، سيهجر غراس كإنسان ينشر أطيب شذى على الأرض.

أنهى العمل على النرجس الأسلي حوالى منتصف النهار، أطفأ النار، أغلق إناء الشحم وخرج من الورشة ليبرد جسده. فوجد الهواء غريباً. لاحظ منذ النفس الأول وجود خلل ما في الفضاء. لم يكن الجو كما كان. لم يكن الخيط الذهبي موجوداً في ثوب المدينة العطري، الحجاب المنسوج من آلاف الخيوط.

اشتدت رائحة الخيط الذهبي خلال الأسابيع الماضية بحيث يشعر به غرينوي في كوخه على الناحية الأخرى بعيداً عن المدينة وها هو قد ضاع، اختفى، لا يمكن تقصي آثاره رغم التشمم المركز. شل غرينوي هلعاً. فظن أنها ماتت، بل ظن سوءاً أكثر، أن أحدهم سبقه إليها. نتف آخر زهرتين واستولى على طيبهما. لم يستطع إطلاق صرخة، فقد كان هيجانه كبيراً على الصراخ، لكنه كاف لإدرار الدموع، التي تدفقت من زوايا عينيه وسالت على طرفي أنفه.

جاء درو من حانة كاتر دوفان لتناول الغداء في البيت وحكى له على وجه السرعة أن المستشار الثاني انتقل اليوم بصحبة اثني عشر بغلاً وابنته إلى غرينوبل. بلع غرينوي دموعه وركض عبر المدينة إلى باب دي كور. وقف في الساحة أمام الباب وتشمم، ووجد فعلاً خيطه الذهبي في الهواء الغربي، النقي، الذي لا تعكره روائح المدينة، هزيلاً وضعيفاً، لكنه يقين. غير أن الطيب العزيز لم يهب من الشمال الغربي حيث يقود الطريق نحو غرينوبل، إنما من ناحية كابري، إن لم يكن من الجنوب الغربي.

سأل غرينوي الحراس عن الطريق الذي أخذه المستشار، فأشاروا إلى الشمال. سأل إن لم يكن قد أخذ طريق كابري أو الطريق الآخر

الذي يمضي جنوباً نحو أوريبو ولانابول. أكد له الحرس أنه رآه رؤى العين يتجه غرباً نحو غرينوبل.

عدا غرينوي عبر المدينة إلى كوخه، لملم القماش الكتاني، وعاء المرهم، الملوق، المقص وقرمة صغيرة حادة من خشب الزيتون في كيس السفر ومضى من فوره على الطريق. ليس على الطريق نحو غرينوبل، إنما على الطريق الذي دلته عليه أنفه، نحو الجنوب.

وهذا الطريق المباشر إلى نابول يسير بمحاذاة وديان تانيرون، عبر مخاضات نهر فراير وسياني ومن السهل السير فيه. تقدم غرينوي سراعاً وعندما لاحت أوريبو على يمناه، معلقة فوق حدبة الجبل، عرف أنه كاد أن يلحق بالفارين. وبعد قليل صار على ارتفاعهم وصار يشمهم فرداً فرداً. كما شم بخار ركوبهم. وشم أنهم غير بعيدين عنه أكثر من نصف ميل غرباً، في مكان ما بين غابات تانيرون متوجهين نحو الجنوب. إلى البحر، مثله تماماً.

حوالى الساعة الخامسة عصراً وصل غرينوي إلى نابول. ذهب إلى الخان، أكل ورجا إعطاءه مبيتاً رخيصاً، قائلاً إنه صانع دباغة من نيس، على الطريق إلى مرسيليا وإنه يستطيع النوم في الحظيرة. وفي الحظيرة رقد في زاوية وسكن. وشم أن الفرسان الثلاثة يدنون منه وليس عليه إلا الانتظار.

وصلوا بعد ثلاث ساعات مع بدء اشتداد الظلام. كانوا قد غيروا ملابسهم للحفاظ على مجهوليتهم. ارتدت السيدتان ثياباً سوداً وخمراً وارتدى ريشي قفطاناً أسود. زعم أنه نبيل من كاستيلان، يريد الرحيل غداً إلى جزر ليرين وأمر صاحب الخان بتجهيز زورق حتى السحر. سأل عن وجود نزلاء آخرين عدا أهل البيت، فقيل له لا أحد سوى صانع دباغة من نيس ينام في الحظيرة.

أرسل ريشي السيدتين إلى حجرتيهما، أما هو فمضى إلى الحظيرة زاعماً أنه يريد أن يأخذ شيئاً من السرج. لم يتمكن من العثور على صانع الدباغة في البداية فأمر العبد أن يجلب سراجاً، فرآه في زاوية على القش ملتحفاً غطاء عتيقاً، سانداً رأسه إلى كيس السفر، نائما عميق النوم. كان خفيا حتى ظن ريشي أنه غير موجود، إنما مجرد ظل من الظلال التي يلقيها السراج في الحظيرة. وعلى كل حال تبين لريشي أن الكائن المسكين، الذي يكاد يقطع نياط القلب، لا يشكل خطراً عليه وابتعد عنه حذراً، كي لا يقطع عليه نومه، عائداً إلى الخان.

تناول الطعام مع ابنته في الغرفة. ما شرح لها غاية وهدف الرحلة العجيبة ولم يفعل أثناء تناول الطعام أيضاً، رغم أنها ألحت عليه في ذلك. قال لها إنه سيبوح لها بالسر الخفي غداً ولها أن تثق بأن ما يفعله ويخطط له، يفعله لأجل خيرها وخير مستقبلها السعيد. بعد الطعام لعبا عدة أدوار من الورق، خسرها كلها، لأنه عوض أن ينظر في أوراقه، كان يتملى وجهها ليتعبد جمالها. وفي حوالى التاسعة أخذها إلى غرفتها المقابلة لغرفته وقبلها وأحكم عليها الباب من الخارج. ثم دخل سريره.

شعر فجأة بالإرهاق من متاعب اليوم والليلة الفائتة وشعر في الآن ذاته بالرضا عن ذاته وعن مجرى الأمور. ومن دون أدنى أرق، من دون المشاعر الكئيبة التي عذبته حتى الأمس كلما أطفأ المصباح وطردت النوم من عينيه، نام للحال ونام دون أحلام، دون تنهدات، دون أن يرف له جفن أو يتقلب في الفراش. للمرة الأولى منذ عهد بعيد ينام ريشي نوماً عميقاً، هادئاً، قرير العين. في الوقت عينه نهض غرينوي من مرقده في الحظيرة. وهو بدوره كان راضياً كل الرضا عن نفسه وعن مجرى الأمور وشعر بالانتعاش رغم أنه لم ينم ثانية واحدة. عندما دخل ريشي الحظيرة ليبحث عنه، تظاهر بالنوم ليجعل انطباع البراءة الذي يبثه

من عطر البساطة في ثيابه، بادياً للعيان وخلافا لريشي، شعر غرينوي بكل تفصيل من تفاصيل ريشي شعوراً شمياً طبعاً، ولم يفته ارتياح ريشي لمنظره.

وهكذا وثق كل منهما خلال لقائهما القصير من سذاجة الآخر، عن حق وعن غير حق، ووجد غرينوي ذلك حسناً، فسذاجة ريشي الفعلية وسذاجته الظاهرة، سهلتا عليه العمل، الأمر الذي كان ريشي سيظنه، لو أخذت الأمور مجرى آخر.

٤٥

ببالغ الفطنة والحذر بدأ غرينوي العمل. فتح كيس السفر، أخرج منه قماش الكتان والمرهم والملوق، مد القماش على الغطاء الذي استلقى عليه وبدأ يدهنه بمعجون الشحم. كانت هذه الصيرورة تحتاج وقتها الملائم، فمن المهم طلي الشحم رقيقاً هنا، ثخيناً هناك، بحسب مواضع الجسد الذي سترمى عليه. فالفم والإبط، الصدر والهن، تنشر حجوماً أكبر من الطيب، أكبر مثلاً من الظنبوب، المرفق. الكف أكبر من ظاهر اليد، الحاجب أكبر من الاجفان، الخ، الخ. ولهذا يجب أن يكون الشحم عليها أسمك. وهكذا رسم غرينوي رسماً بيانياً عطرياً للجسد الذي سيعامله على قماشِ الكتان. وهذه المرحلة من مراحل العمل، كانت تبعث فيه أشد الرضا، فهي طريقة فنية يجب استخدام الذهن والخيال واليد فيها على نفس الدرجة وعليه فإنها تعجل المتعة الحقيقية بالنتيجة النهائية، بشكل أمثل.

عندما استهلك إناء الشحم كله، رمقه هنا وهناك، قلل الشحم في رقعة ليضيفه في رقعة أخرى. وفحص نموذج السهوب الشحمية مرة أخيرة، طبعاً بأنفه وليس بعينيه، فقد تم العمل كله في الظلام الحالك، الذي كان، ربما، دافعاً آخر على مزاج غرينوي العالي، فلم يشغله أي شيء تحت الهلال ولم يكن العالم شيئاً آخر سوى الروائح وقليل من وشوشة مياه البحر. وجد نفسه في مجاله الحقيقي. ثم لف القماش كورق الجدران، بحيث تطابقت المواضع المدهونة، ما آلمه أشد الإيلام، فهو يعلم أن أجزاء من المعالم المحددة تتغير رغم كل الحذر.

لكن ما باليد حيلة أخرى لنقل القماش. بعد أن لفه جيداً، بحيث يحمله تحت ذراعه، دس الملوق، المقص وقرمة خشب الزيتون في ثيابه وتسلل إلى الخارج.

كانت السماء غائمة والشموع في كل الخان مطفأة. والضوء الوحيد في تلك الليلة الحالكة، كان يرتعش في الشرق، في منارة القلعة المنيعة على جزيرة سانت مارغريت، على بعد أكثر من ميل، مقدار رأس إبرة من الضوء في نسيج أسود قاتم. كان الهواء السمكي يأتي من الخليج والكلاب نائمة.

مضى غرينوي إلى كوة صومعة الدرس، حيث رأى سلّماً، رفعه ووازنه في يمناه، ثلاث درجات أسفل اليد والباقي فوق الكتف، وحمله عبر الفناء إلى نافذتها المفتوحة. ارتقى السلم مرتاحاً كمن يصعد درجاً، مباركاً نفسه على الحظ السعيد، الذي قاده لاقتطاف طيب الصبية في نابول وليس في غراس، حيث كانت القضبان على النوافذ والحراسة المشددة على الدار ستعسّران مهمته. وفي نابول تنام الصبية وحدها ولن يضطر لإقصاء الوصيفة أيضاً. دفع مصراع النافذة، تسلل إلى الحجرة، ووضع الشرشف، ثم التفت إلى السرير. كان طيب شعرها يطغى على جو الغرفة، فقد كانت مضطجعة على بطنها ضاغطة وجهها الذي يؤطره ذراعها في الوسادة، وقذالها متهيئ لتهوي عليه الهراوة.

كان صوت الضربة مصمتاً وغرينوي يكرهه، لأنه صوت، صوت في تجارته الصامتة. ما كان له تحمل الصوت المقزز إلا بالضغط على أسنانه ويظل ساكناً بعدها، متصلباً ومقطب الوجه، يده متشنجة على الهراوة، خشية أن يرتد الصوت صدى من مكان ما. غير أنه لم يرتد، بل ارتد السكون إلى الغرفة، سكون لا يتخلله حتى نفس الصبية ذاتها. للحال تحلحل من وقفته المتصلبة، التي يمكن تأويلها بالخاشعة أو

دقيقة صمت متشنجة، وانكمش جسده سلساً. رمى الهراوة جانباً وانشغل بكليته على العمل. بدأ بفك ثنيات القماش المعطر، مده على الطاولة والكراسي، وانتبه لئلا تتسخ الناحية المدهونة. ثم رفع غطاء السرير. لم يلمس عطر الصبية الرائع، الذي تدفق بغتة حارًا وقويًا، شغاف قلبه، فقد كان يعرفه من قبل، وأما التمتع، فسيتمتع به حتى النشوة لاحقاً، إذا امتلكه حقاً. انصب همه على تصيد أكبر حجم من العطر، على ألا يتسلل منه شيء، فالآن وقت الجد. مزّق ثوب النوم بضربات سريعة من المقص، نزعه عنها، تناول الشرشف المدهون ورماه على جسدها العاري. ثم رفعها ودس طرف الشرشف الحر تحتها وفتلها كما يفتل الخباز العجين، ثنى الحواشي، لفها بالقماش من الرأس حتى القدمين، بحيث لم يبق خارج أربطة المومياء سوى شعرها، الذي قصه مع جلد الرأس ودسه في ثوب نومها الذي صره. ثم وضع بقية من القماش المدهون على الرأس، سوّى أطراف الشرشف وضغطه بأصابعه ضغطاً رقيقاً. ثم تمعن في اللفة، فلم يجد شقاً ولا ثقباً. لم تعد فيه ثنية قد يتسرب منها طيب الصبية. إذاً فقد لفها بالتمام والكمال ولم يبق لديه ما يفعل غيرالانتظار ست ساعات حتى الفجر.

تناول الكرسي الصغير، الذي وضعت الصبية ثيابها عليه، قربه من السرير وجلس. ما زال في الثوب الأسود الواسع نفحة من عبقها ممزوجاً برائحة حلوى اليانسون، التي دستها في جيبها تمويناً للطريق. وضع قدميه على طرف السرير، قرب قدميها، رمى ثوبها على ظهره وأكل حلواها. شعر بالتعب لكنه لم يرغب في النوم، فمن غير اللائق أن ينام أثناء العمل، حتى لو كان العمل انتظاراً. تذكر الليالي التي قضاها لدى بالديني في التقطير، تذكر الدورق المسود بالهباب، النار المرتعشة، القرقرة الهادئة، التي يصدرها القطير عندما تتقطر من أنبوب

التبريد في الزجاجة الفلورنسية. كان عليه بين الفينة والأخرى أن يضيف قليلاً من الماء للتقطير، أن يبدل الزجاجة الفلورنسية، أن يغير المادة المقطرة والمرهقة، إلا أنه شعر على الدوام بأنه لا يسهر للقيام بهذه الأعمال الصغيرة، بل لأن السهر بذاته قيمة. وحتى في الغرفة، حيث تسير عملية المرث دون تدخل، بل إنه قد يفسد الصرة بالفحص المبكر والتقليب. حتى في الغرفة كانت العين الساهرة قيمة عند غرينوي، فربما ضر النوم بروح الاتقان.

لم يكن من الصعب عليه أن يبقى يقظاً وينتظر رغم تعبه. كما أنه انتظر الصبايا الأربع والعشرين الأخريات، فلم يكن انتظاره انتظاراً مصمتاً للذهاب أو متشوقاً للإياب، إنما انتظاراً مرافقاً، ذي قيمة، انتظاراً فعالاً بمعنى ما، شيء ما كان يتفاعل خلال هذا الانتظار. الجوهري كان يتفاعل وإن لم يكن هو الفاعل، فإن التفاعل يتم عبره. لقد بذل خير ما عنده، أظهر كل حذقه، لم يخطئ خطأ واحداً. كان مثالاً يحتذى، سيتوج بالنجاح. . . ما عليه سوى أن ينتظر عدة ساعات. كان الانتظار يملأ عليه حياته، فلم ينعم خلالها قط، لم يكن قط هانئاً، متوازناً، وحيداً متوحداً، كما في ساعات الاستراحة من العمل، حيث ينادم ضحاياه ويسهر عليها منتظراً في عميق الليل، ولا حتى في جبله آنذاك. وكانت هذه الساعات اللحظات الوحيدة التي تتلبد فيها أفكار زاهية في عقله المكفهر.

العجيب أن أفكاره لم تكن للمستقبل، لم يفكر في العطر الذي سيجنيه في بضع ساعات، لم يفكر في رحيق خمس وعشرين صبية، لم يفكر في خطط مستقبلية، في السعد والتوفيق. لا، إنما فكر في ماضيه. تذكر محطات حياته منذ بيت مدام غايار ودفق الخشب الحار والرطب أمامه إلى سفره اليوم إلى قرية نابول الصغيرة والفائحة برائحة السمك.

تذكر الدباغ غريمال، جوزيبي بالديني، الماركيز تاياد اسبيناس. تذكر مدينة باريس، سديمها الواسع، الزاهي بآلاف الألوان، النتن، وتذكر الصبية حمراء الشعر في شارع دي ماريه، السهوب، الهواء الرقيق والغابات. كما تذكر جبال اوفيرني، فلم يتجنب هذه الذكرى بأي حال، تذكر مغارته، الهواء النقي من رائحة الإنسان وتذكر أيضاً أحلامه، وتذكر كل هذا بسعادة. نعم فقد بدا له، إذا استعاد سيرة حياته، أنه إنسان ترعاه يد الحظ وأن نجمه قاده بالنهاية في السبيل القويم، رغم كل التعرجات. وإلا كيف يفسر عثوره على الطريق إلى هنا، إلى الحجرة المعتمة، إلى غاية أمانيه؟ لقد كان مبروكاً، إذا قلب الأفكار في رأسه بشكل صحيح.

حلّت عليه السكينة والخشوع والحمد. أحمدك. أحمدك جان بابتيست غرينوي، لأنك كما أنت، قال لنفسه متأثراً بنفسه أيما تأثر. ثم أسدل أجفانه، لا لينام، إنما ليستسلم لسلام الليل القدوس. ملأ السلام قلبه، لكنه ملأ الفضاء أيضاً. شم نوم الوصيفة المسالم في الغرفة المجاورة، نوم أنطوان ريشي السلمي العميق على الناحية الأخرى للممر، شم كرى صاحب الخان والعبيد المسالمين، كرى الكلاب، الحيوانات في الحظيرة، القرية والبحر. توقف الهواء، حلت السكينة في الكون ولا شيء غير السكينة.

حرّك قدمه مرّة ولمس قدم لور. لم يلمس قدمها إنما النسيج الملفوف عليها، بطبقة الشحم الرقيقة التي ستمتص طيبها، طيبها الرائع، طيبه.

٤٦

عندما بدأت الطيور بالعويل، قبل الفجر بزمن طويل، نهض وتمّم عمله. فتح الأربطة وسحبها كلصقة عن الجثة. زال الشحم عن الجلد جيداً. لم يبق منه شيء إلا في الطيات التي قحطها بالملوق. مسح باقي شذرات المرهم بقميص لورا الداخلي، الذي فرك به جسدها من الرأس حتى القدمين بدقة عالية، بحيث أزال دهن المسامات، وهكذا رفع منها كل أثر لطيبها.

وبهذا ماتت عنده فعلاً، ذبلت، شحبت، واهترأت كقمامة الأزهار. رمى القميص الداخلي في النسيج الممروث، الذي ستتابع لور الحياة فيه، أضاف إليه ثوب النوم والشعر ولف الجميع في صرة متينة، وضعها تحت إبطه. لم يكلف نفسه عناء تغطية الجثة في السرير ورغم أن سواد الليل الحالك تحول إلى زرقة الفجر الرمادية وبدأت الأشياء في الغرفة تتخذ معالم، لم يشأ أن يلقي نظرة على سريرها ليراها مرة واحدة في حياته رؤى العين. لم تكن إليه جسداً، بل مجرد عطر لا إناء له وها قد حمل العطر تحت ذراعه وأخذه. انزلق هادئاً على درابزين النافذة ونزل السلم. وفي الخارج بدأ الهواء يهب من جديد، تفتحت عيون السماء وصبت على الأرض نوراً بارداً، أزرق داكناً.

بعد نصف ساعة أوقدت الخادم النار في المطبخ وعندما ذهبت أمام الخان لتأتي بالحطب، رأت السلم لكنها كانت وسنانة، فلم تستنتج معنى لوجود السلم إلى نافذة الصبية. بعد السادسة بقليل أشرقت الشمس، ارتفعت عملاقة وحمراء ذهبية بين الجزيرتين الليرينيتين من أعماق البحر. كانت السماء صافية وبدأ يوم مشع من أيام الربيع.

استيقظ ريشي، الذي كانت غرفته غرباً، في السابعة. بعد أشهر طويلة من الأرق نام ليلته نوماً عميقاً وظل بخلاف عادته ربع ساعة أخرى في السرير. تمطمط وتنهد مستمتعاً وأصاخ إلى الصوت الجميل الذي يعتمل في المطبخ. وعندما نهض وشرع النافذة ولاح له الجو الجميل واستنشق هواء الصباح المنعش برائحة التوابل وسمع خرير البحر، لم يعد لمزاجه العالي من حدود، فمط شفتيه وصفر لحناً خفيفاً. كما صفر أثناء ارتداء ملابسه وتابع الصفير عندما ترك غرفته وذهب بخطوات رشيقة عبر الممر إلى حجرة ابنته. طرق عليها الباب طرقاً خفيفاً كي لا يخيفها. لم يأته جواب، فابتسم مدركاً أنها لا تزال نائمة.

دفع المفتاح في ثقب الباب حذراً وأدار المزلاج برفق، بكل هدوء، متيقظاً كي لا يوقظها، نهماً ليجدها في نوم يفيقها منه بقبلة، مرة أخرى، للمرة الأخيرة قبل أن يسلمها بيدي رجل آخر.

فتح الباب، دخل منه وسقط نور الشمس الوهاج على وجهه، كأن الغرفة مليئة بفضة تسوط العين، كل ما فيها يشع، فاضطر لإغلاق عينيه هنيهة من الألم.

وعندما فتحهما رأى لور ملقاة في السرير، عارية، ميتة ومحلوقة الشعر وبيضاء ناصعة. كأنه يرى الكابوس الذي رآه في الليلة قبل الماضية في غراس ونسيه واستعاد أحداثه بسرعة البرق في ذاكرته. كل ما حوله كان تماماً كما في ذلك الحلم، لكنه أكثر إبهاراً.

٤٧

انتشر خبر قتل لور ريشي في محيط غراس سريعاً، كأن أحدهم أعلن: مات الملك أو قامت الحرب أو وصل القراصنة إلى الشاطئ وبث فزعاً على غرار ذلك النبأ وأمضى. بغتة عاد الخوف المنسي بكل حرص، بفوعة كما في الخريف الماضي، بكل أعراضه، بكل الرعب والدهشة والغضب والشكوك الهستيرية واليأس. قبع الناس في بيوتهم، حجزوا بناتهم، تترسوا في منازلهم، اشتبه كل منهم بالآخر ولم يقدروا على النوم. خال الجميع أن الجرائم ستعود كما كانت، جريمة كل أسبوع، كأن الزمن عاد نصف عام إلى الوراء.

بل كان الخوف أبشع مما قبل نصف عام، فقد بعث رجوع الخطر، الذي ظن الجميع أنه راح وولى، في الناس شعوراً بالعجز. فإذا أخفقت لعنة الأسقف، إذا فشل أنطوان ريشي، أغنى أهالي المدينة، المستشار الثاني، الرجل الماكن والرشيد، الذي في يده مقاليد الأمور كلها، في حماية طفلته، إذا لم ترتعش يد القاتل في حضرة قداسة لور، فقد رأى فيها الجميع قديسة، وصارت أقدس بعد موتها، فكيف تمنى النفس بالخلاص من السفاح؟ إنه أغشم من الطاعون، يمكن الهرب من الطاعون، لكن لا يمكن الهرب من هذا المجرم، كما برهن مثال ريشي. من الواضح أن له طاقات خارقة، لا بد أنه متحالف مع الشيطان، إن لم يكن الشيطان ذاته. وهكذا لم يجد الكثير، خاصة السذج، حلاً غير الذهاب إلى الكنيسة والصلاة، كل حرفة لملاكها الحارس، صانعو الأقفال للقديس الواسيوس، النساجون للقديس

كريسبينوس، الجنائنيون للقديس انطونيوس والعطارون للقديس يوزيفوس. وأخذوا معهم زوجاتهم وبناتهم، صلوا معاً، أكلوا وشربوا في الكنيسة، ولم يتركوها حتى نهاراً، واثقين أنهم لن يجدوا الأمان من الوحش إلا في حمى الجماعة اليائسة ووجه العذراء، هذا إن ظل هناك أمان.

بعض الظريفين اجتمعوا في فرق شعوذة، لأن الكنيسة خيبت الآمال مرة، استعانوا مقابل الكثير من المال بساحرة من غوردون، زحفوا إلى أحد الكهوف الكلسية الصناعية في عالم غراس السفلي وأقاموا قداسات للشيطان كي يكون رحيماً معهم. وآخرون، في غالبهم من الطبقة البرجوازية الرفيعة وطبقة النبلاء المتعلمة، راهنوا على العلوم الحديثة، أحاطوا منازلهم بحقول مغناطيسية، نوموا بناتهم بالمغناطيس، أسسوا حلقات صامتة للمحفز الحيوي في صالوناتهم وحاولوا طرد روح القاتل بالتخاطر. نظمت هيئتهم موكباً للتكفير من غراس إلى نابول وبالعكس. أقام رهبان الأديرة الخمسة في المدينة صلوات دائمة، لم يتوقفوا خلالها عن النشيد، بحيث سمعت التراتيل للحال في كل أرجاء المدينة ليلاً ونهاراً. وأما العمل، فقد أهمله الأهالي.

وهكذا انتظر شعب غراس في حمى الفراغ وبنفاد صبر، صاعقة القاتل التالية. لم يشك أحد في أنها ستأتي، وكان الجميع يتحرقون شوقاً في سرهم لسماع النبأ المرعب، وكل أملهم ألا تحل الصاعقة على أهلهم، إنما على آخرين.

لكن السلطات العليا في المدينة والريف لم تسمح للشعب أن يصيبها بعدوى الهستيريا. وللمرة الأولى منذ ظهور القاتل من جديد عملت دوائر غراس ودراغيبان وطولون يداً بيد، عمل رؤساء البلديات، الشرطة، الدعاة، البرلمان والبحرية معاً. كان سبب تضامن أصحاب

السلطة خوفهم من انتفاضة الشعب من ناحية، ولأنهم عثروا على قرائن عن قاتل لور ريشي من ناحية أخرى، تمكنهم من ملاحقة المجرم منهجياً.

شوهد القاتل وعرف أنه صانع الدباغة المريب ذاك، الذي نام تلك الليلة في حظيرة خان نابول واختفى في الصباح دون أثر. وباتفاق معطيات صاحب الخان وعبد الحظيرة وريشي ذاته، فقد كان رجلاً لا يلفت الأنظار، يرتدي قفطاناً رمادياً ويحمل كيس سفر كتانياً. ورغم أن ذكريات الشهود الثلاثة كانت فضفاضة ورغم أنهم لم يتمكنوا من وصف وجه القاتل، لون شعره أو لغته، إلا أن صاحب الخان أضاف أن، هذا إن لم مخطئاً، في وقفة ومشية الغريب لخمة وضلعاً، قد يكون سببه جرح في الساق أو تشوه في القدم.

رافعين لواء هذه القرائن خرجت دوريتا درك للتحري عن القاتل نحو مرسيليا، إحداهما بمحاذاة الساحل والأخرى عبر الأرياف. كما مشط المتطوعون محيط نابول. سافر اثنان من آمري محكمة غراس المحلية إلى نيس للتحقيق بشأن صانع الدباغ. فتشت كل السفن المغادرة من موانئ فريوي وكان وآنتيب وسدت كل الطرق الحدودية نحو سافوايين ليثبت المسافرون هوياتهم. نشرت ملصقات بوصف المجرم لمن يستطيع القراءة على أبواب غراس، فانس، غوردون وعلى أبواب الكنائس في القرى. وأذاعها المنادون ثلاث مرات في اليوم. قوت مسألة حنف ساق المجرم من ظنون الناس بأنه الشيطان ذاته وبثت فيهم مزيداً من الفزع عوض الحصول على أدلة قيّمة.

وكف هذا بعد أن أعلن رئيس محكمة غراس بتكليف من ريشي عن مكافأة قد يصل مقدارها إلى مائتي ليرة، لمن يدلي بمعلومات عن القاتل. فأدت الوشايات إلى القبض على عدة من صناع الدباغة في

غراس وأوبيو وغوردون، بينهم، لسوء حظه، واحد يضلع. ورغم شهادات العديد من شهود العيان ببراءته، إلا أن المحكمة كانت بصدد تعريضه للتعذيب، عندما حضر رجل إلى رئاسة البلدية، في اليوم العاشر بعد مقتل لور، وأدلى بالإفادة التالية: أنا غابرييل تانملياسكو، ضابط الحراسة، كنت في ظهر ذلك اليوم المشؤوم أؤدي مهماتي المعتادة، عندما جاء رجل تنطبق عليه المواصفات المدونة في الملصقات وسألني وألح في السؤال عن الطريق الذي اتخذه المستشار مع قافلته في الصباح. لم أعلق أهمية كبيرة على هذه الحادثة، لا آنذاك ولا بعد ذلك، ولما كان لي تذكر ذلك الشخص، فلم يكن جديراً بالملاحظة، إذا لم أره أمس صدفة هنا في غراس، في شارع دو لا لوفر، أمام مشغل المعلم درو والمعلمة آرنولفي، وألاحظ أن الشخص كان يضلع بوضوح أثناء دخوله الورشة.

بعد ساعة ألقي القبض على غرينوي وللفور تعرف عليه صاحب خان نابول وعبده، اللذان يقضيان الوقت في غراس للتعرف على المشبوهين الآخرين، وأكدا أنه صانع الدباغ، الذي قضى ليلته تلك عندهما: هذا هو بعينه، هذا هو القاتل ولا أحد غيره.

فتشت الورشة وفتش الكوخ في حقل الزيتون خلف دير الفرنسيسكان وعثر في زاوية منه على ثياب لور وشعرها الأحمر، فلم يتستر عليها غرينوي كثيراً، وعندما حفرت الأرضية، ظهرت ثياب وشعر الصبايا الأخريات. كما وجدت الهراوة الخشبية، التي هوت على رؤوس الضحايا وكذلك كيس السفر الكتاني. كانت القرائن دامغة، فقرعت النواقيس وأعلن رئيس المحكمة، كتابة وشفاهاً، القبض على قاتل الصبايا، الذي تجري التحريات عنه منذ عام وحجزه في مكان آمن.

٤٨

لم يصدق الجمهور الخبر بداية، معتبرينه حيلة من حيل المسؤولين لتغطية عجزهم وإخماد ثورة الشعب. فقد استعادوا ذكرى إشاعة انتقال القاتل إلى غرينوبل وكان الخوف ينخر في قلوبهم أعمق هذه المرة. لكن وعندما أظهرت الأدلة للعلن في اليوم التالي في ساحة الكنيسة، أمام العدلية، تغير الرأي العام. كانت لوحة تلك الدلائل مهولة، فقد علقت أثواب وشعر خمسة وعشرين صبية على خوازيق في جبهة الساحة قبالة الكاتدرائية مثل فزاعات الطيور.

تواكب الناس مئات مئات على معرض الموتى. انهار أهل الضحايا، الذين تعرفوا على ثياب بناتهم وتشوق باقي الجمع، رغبة من البعض في مشاهدة العجائب ومن البعض الآخر في اغتنام اليقين، إلى رؤية القاتل. ارتفعت الصيحات الداعية إلى رؤيته وثارت اضطرابات خطرة في الساحة المكتظة بالبشر، حتى اضطر رئيس المحكمة للأمر بإحضار غرينوي من زنزانته بغرض عرضه من نافذة الطابق الأول.

توقف الهدير عندما لاح غرينوي في النافذة. حلت السكينة كما تحل ظهر يوم صيفي حار، عندما يكون الجميع في الحقول أو يزحفون إلى ظلال بيوتهم. لم تبق حركة، لم تبق نحنحة، لم يبق تنفس. تحول الجمع عيوناً وأفوا فاغرة لبعض دقائق. لم يصدق أحد أن يرتكب ذلك الوغد، الضئيل في النافذة، ذلك الصعلوك، ذلك الركام، ذلك اللاشيء، جرائم بحق خمس وعشرين صبية. لم يكن يشبه السفاحين، لم يستطع أحد أن يقول كيف تخيل الشيطان، غير أن الجميع اتفقوا

على أنه ليس بهذه الهيئة. ولكن، ورغم أن القاتل لم يوافق خيال الناس، ورغم أن عرضه لم يكن مفحماً، كما يمكن القول، إلا أن تجسد ذلك الرجل في النافذة وواقعة أنه هو من قدم للناس باعتباره القاتل، وليس غيره، بثا أثراً مقنعاً. قال الجميع في سرهم، لا يمكن أن يكون هو، وأدركوا في الآن ذاته أنه يجب أن يكون هو.

لكن وبعدما جرّ الحرّاس الرُجَيل إلى الغرفة المظلمة، أي بعدما غاب واختفى، بعد أن وجد هنيهة كذكرى، يمكن القول بعد أن انطبع في أذهان الناس كمصطلح، كمصطلح قاتل وغد، آنذاك زالت الدهشة واستعادت آلاف العيون الحياة. ثم ارتد رجع صرخة غاضبة وثائرة من الأفواه جميعاً: نريده بين أيدينا وتجهزوا لاقتحام العدلية، ليخنقوه بأيديهم، يقطعوه ويمزقوه. بالكاد استطاع الحراس إغلاق الباب والوقوف في وجه الرعاع. أخذ غرينوي على وجه السرعة إلى زنزانته، تقدم رئيس المحكمة إلى النافذة ووعد الجمهور بمحاكمة سريعة مثالية. ورغم ذلك لم تتفرق الجمهرة إلا بعد ساعات، لم تهدأ المدينة إلا بعد أيام. وحقاً سارت المحاكمة بسرعة، فلم تكن الأدلة وحدها قاطعة، بل اعترف المتهم قائلاً إنه قتل الصبايا لأنه كان يحتاجهن. أما سبب «احتياجه» لهن، وما معنى ذلك، فلم ينبس بكلمة. هُدّد بالتعذيب، عُلّق من قدميه ساعات طويلة، ضخت فيه سبعة مكاييل من الماء، سحقت قدماه بالأغلال، دون نتيجة. كأن ذلك الشخص لا يحس بألم الجسد، فلم يسمع له أنين ولم يقل كلما سئل شيئاً عدا: كنت أحتاجهن. اعتبره القضاة مجنوناً وأمروا بالتوقف عن التعذيب وقرروا بلوغ نهاية المحكمة دون المزيد من التحقيق.

كان ثمة سبب وحيد لبعض من التردد، هو مناوشة قضائية مع رئاسة بلدية دراغينيان حيث تقع نابول، وحيث ارتكبت الجريمة، في إدارتها

ومع برلمان إيكس، وكلاهما سعى لجر القضية إلى هيئاتهما. لكن قضاة غراس تمسكوا بقضيتهم، فهم من ألقى القبض على المجرم، وفي دائرتهم ارتكبت أكثر الجرائم، وهم من يهدده غضب الشعب، إذا سلموا الجاني إلى محكمة أخرى. فلا بد إذن أن يسيل دمه في غراس.

في ١٥ نيسان ١٧٦٦ نطق بالحكم وتلي على المدان في زنزانته وجاء فيه: صانع العطار جان بابتيست غرينوي يؤخذ في ثمان وأربعين ساعة إلى ساحة كور أمام أبواب المدينة. يربط هناك، مرفوع الوجه إلى السماء، إلى صليب خشبي. تهوى عليه أربع وعشرين ضربة من قضيب حديدي، تهشم مفاصل الذراع، الساق، الحوض والكتفين. ثم يضفر بعدها على الصليب حتى الموت. منع على الجلاد، ممارسة عملية الرحمة المعتادة، خنق الجاني بعد التهشيم بخيط، حتى لو دام النزع عدة أيام. ستدفن الجثة ليلاً في المسلخ ولا يعلّم مكان الدفن.

لم يبد على غرينوي التأثر أثناء تلاوة الحكم وعندما سأله خادم المحكمة عن آخر رغباته، أجاب لا شيء وقال إنه يملك ما يحتاجه.

دخل عليه قسّ ليتناول منه اعترافه الأخير، غير أنه خرج بعد ربع ساعة خائباً، قائلاً إن المدان نظر إليه أثناء ذكر اسم الرب نظرة استغراب، كأنه يسمع الاسم للمرة الأولى، ثم تمدد على مضجعه ونام نوماً عميقاً. وبهذا لم يبق للمزيد من الكلام معنى.

في اليومين التاليين جاء الكثيرون ليشاهدوا السفاح المشهور عن قرب. سمح لهم الحراس بإلقاء نظرة عليه من خلال كوة في الباب مقابل ستة قروش للنظرة الواحدة. كان على نقّاش نحاس أن يدفع فرنكين ليتمكن من رسمه، لكن الصورة جاءت بائسة، فقد كان السجين مغلول اليدين والقدمين راقداً طوال الوقت على مضجعه ونائماً متوجهاً إلى الجدار، ولم يرد على الطرقات والنداءات. منع دخول الزنزانة على

الزوار منعاً باتاً ولم يجرؤ الحراس على تجاوز المنع رغم كل الإغراءات، خشية أن يغتال أهل الضحايا السجين في وقت مبكر، وللسبب ذاته منع إدخال الطعام عليه خشية تسميمه، وطوال فترة السجن حصل غرينوي على الطعام من مطبخ رعية قصر الأسقف، شريطة أن يتذوقه صاحب شرطة السجن. لم يتناول غرينوي شيئاً في اليومين الأخيرين، بل اكتفى بالرقاد والنوم. أحياناً، كان الحرس يسمعون صليل قيوده فيهرع أحدهم إلى الباب ويراه يأخذ شربة ماء ليعود إلى مرقده وينام. كأن الرجل تعب من الحياة، بحيث لا يرغب في قضاء ساعاته الأخيرة يقظاً.

وفي هذه الأثناء أعدت ساحة كور لإجراءات الإعدام. بنى النجارون سقالة مساحتها ستة أمتار مربعة وارتفاعها متران، بحاجز ودرج وحيد، لا مثيل لها في غراس من قبل. كما بنوا منصة خشبية للأعيان وسياجاً يحميهم من الشعب الماكر، الذي يجب أن يظل بعيداً. أجّرت نوافذ وكوى البيوت يمين ويسار باب كور وفي المحرس بأسعار خيالية. وساوم مساعد الجلاد مرضى المشفى على أسعار نوافذهم البعيدة ليؤجرها بأسعار عالية إلى الفضوليين. حضّر بائعو العصير أباريق عرق السوس احتياطاً. صنع نقّاش النحاس من الرسم الذي أخذه في السجن وأضاف إليه من مخيلته مئات النسخ. تطاير الباعة الجوالون إلى المدينة من جميع الأنحاء. وخبز الخبازون حلوى خاصة للمناسبة.

طلب الجلاد، مسيو بابون، الذي لم يستمتع من عهد بعيد بتكسير عظام المجرمين، من الحدادين أن يسبكوا له قضيباً حديدياً مضلعاً وذهب به إلى المسلخ ليجربه على الجيف. فلا يحق له أكثر من أربع وعشرين ضربة وعليه أن يكسر بها المفاصل الأربع وعشرين دون أن يتلف أعضاء الجسم، كالصدر أو الرأس، وهي مهمة صعبة تتطلب حسًّا عالياً.

تهيأ الأهالي للحدث كمن يتهيأ للعيد. وأدرك الجميع أنهم لن يعملوا ذلك اليوم. كوت النساء أثواب العيد. نفض الرجال الغبار عن معاطفهم وأمروا بتلميع أحذيتهم. من كان ذي رتبة عسكرية أو صاحب منصب، من كان رئيس رابطة مهنية، محامياً، كاتب العدل، مدير طائفة أو يتمتع بقيمة ما، ارتدى البزة الرسمية، بكل النياشين والأوشحة والسلاسل والشعر المستعار المبيض بالكلس. قرر المؤمنون الاجتماع بعد الحفل للصلاة، عبدة الشيطان إقامة قداس شيطاني ماجن، النبلاء المثقفون عقد حلقات لمحفز الحياة في فنادق كابري وفيلينوف وفونميشيل. أعدت الفطائر والمأكولات في المطابخ. جيء بالنبيذ من القباء وباقات الزهور من الأسواق. وفي الكنيسة تمرن عازف الأرغن والكورال.

وحده بيت آل ريشي في شارع دروات ظل ساكناً. فقد منع رب البيت على أهله أي تجهيزات ليوم التحرير، كما سمى الشعب يوم الإعدام. كان مشمئزاً من الحياة. اشمأز من الخوف الذي انبعث في قلوب الناس. اشمأز من حمى فرحهم. اشمأز منهم ذاتهم. لم يشارك الناس اجتماعهم أو حفل عرض المجرم وضحاياه في الساحة أمام الكنيسة. لم يشارك في المحكمة ولم يشارك في مواكب الفضوليين إلى الزنزانة. طلب حضور هيئة المحكمة إلى منزله ليتعرف على ثياب ابنته وشعرها. أدلى بأقواله باقتضاب شديد ورجا الهيئة أن تترك له الأدلة تذكاراً عن ابنته الغالية. وحققت له المحكمة أمنيته. حملها إلى حجرة لور. وضع ثوب النوم الممزق وصديريتها على سريرها وبعثر الشعر الأحمر على الوسادة. ثم جلس إليها، وقضى ليله ونهاره في الحجرة، كأنه يريد أن يعيد بحراسته اليائسة ما فوته تلك الليلة في نابول. كان الاشمئزاز يملأ صدره، اشمئزاز من الدنيا ومن نفسه، لدرجة أنه لم يقدر على البكاء.

كما كان مشمئزاً من القاتل. لم يعد يرى فيه إنساناً، بل ضحية تذبح. لن يراه إلا أثناء الإعدام، عندما تهوي عليه الضربات الأربع وعشرين وهو مصلوب، سيراه تلك اللحظة، يراه عن قرب، فقد حجز مقعداً في الصف الأمامي. وإذا تفرق الشعب بعد ساعات، سيصعد إليه ويجلس جانبه ويحرسه ليالي طويلة، أياماً طويلة إذا اضطر، وينظر خلالها في عينيه، هو قاتل ابنته، ويبث اشمئزازه في عينيه، سيصب كل اشمئزازه كحمض كاو حتى يتعفّن ذلك الشيء...

وماذا بعد؟ ماذا سيفعل بعد ذلك؟ لا يعلم. ربما سيعود إلى حياته السابقة، ربما يتزوج، ربما ينجب ولداً، وربما لن يفعل شيئاً! ربما يموت. لا فرق عنده. بدا له التفكير في هذه الأشياء غبياً، كأنما يفكر أحدهم بما سيفعله بعد موته. طبعاً لا شيء. لا شيء، كما يعرف منذ الآن.

٤٩

عينت الساعة الخامسة عصراً موعداً للإعدام وقدم بعض الفضوليين منذ الصباح الباكر ليحجزوا أماكنهم، جالبين معهم كراسي ومقاعد ووسائد وغذاء وأطفالهم. عندما تدفقت سيول البشر من الأرياف ظهراً، كانت ساحة كور مكتظة بغيرهم، بحيث اضطروا لأخذ أمكنتهم في الحدائق والحقول المرتفعة كالشرفات، بعيداً عن الساحة وعلى طريق غرينوبل. ازدهرت تجارة الباعة الجوالين، فقد أكل الناس، شربوا، طنوا وازدحموا كما في السوق السنوي. للحال تجمع حوالى عشرة آلاف، أكثر مما في عيد تتويج ملكة الياسمين، أكثر مما في الموكب الكبير، أكثر مما في كل ما حدث في غراس حتذاك. وصلوا سفوح الجبال، تعلّقوا بالأشجار، تربعوا على الأسوار والسقوف وتزاحموا بالعشرات على الكوى. فقط في وسط الساحة ظل فراغ، محميًا بالسياج، لأجل المنصة ولأجل سقالة الإعدام، التي بدت صغيرة جداً كمسرح عرائس صغير جداً. كما ترك أحد الأزقة فارغاً، من ساحة الإعدام إلى باب دي كور وشارع دروات.

بعد الثالثة لاح مسيو بابون ومساعدوه، فَعَلا التصفيق المدوي. جاؤوا بالصليب المصنوع من عوارض خشبية إلى الساحة وجعلوه على ارتفاع ملائم لعملهم، بأن أسندوه إلى أربع حمالات قوية. ثبته صانع النجار بالمسامير وصفقت الجماهير الغفيرة لكل حركة من حركات النجار وغلمان الجلاد. وعندما تقدم بابون حاملاً قضيبه الحديدي، دار حول الصليب، قاس خطواته وهوى بضربات متخيلة على الجانبين، فألهب مشاعر الجماهير التي اندفعت في التهليل.

في الرابعة بدأ المسرح يمتلئ، فاستطاع الناس إبداء إعجابهم بالمجتمع الراقي. جاء سادة مهذبون برفقة خدمهم االوضيعين، جاءت سيدات جميلات وجاءت قبعات كبيرة وثياب لألاءة. حضر نبلاء المدينة والريف أجمعين. ظهر السادة في المجلس معاً يرأسهم المستشاران. كان ريشي يرتدي ثياباً سوداً، جوارب سوداً، قبعة سوداء. خلف المجلس سارت رئاسة البلدية بقيادة رئيس المحكمة. وأخيراً وصل الأسقف محمولاً على هودج مكشوف، بردائه البنفسجي اللماع وطاقيته الخضراء. من حافظ بقبعته على رأسه، رفعها بمقدم الأسقف وهيمن جو الاحتفال. ثم لم يحدث شيء طوال عشر دقائق. اتخذ السادة أماكنهم، توقف الشعب عن الحراك، عن الأكل وانتظر الجميع. انتصب بابون وعبيده فوق السقالة متسمرين. كانت الشمس كبيرة وصفراء فوق استيرال ومن حوض غراس يهبّ هواء فاتر، حاملاً رائحة زهر البرتقال. كان الجو حاراً وساكناً سكينة الموت.

وأخيراً، بعدما ظن القوم أن التوتر لن ينتظر أكثر دون أن ينفجر في آلاف الصرخات، في الفوضى، في الهرج والمرج أو أي حدث آخر، سمع خبب الخيول وصرير العجلات في السكينة.

نزلت عربة فاخرة يقودها جوادان شارع دروات، عبرت باب المدينة وتبدت أمام أعين الجميع في الزقاق الضيق، الذي يؤدي إلى ساحة الإعدام. أصر ضابط الشرطة على هذه البادرة ظناً منه أنه لا يستطيع ضمان أمن الجاني بشكل آخر، الأمر الذي لم يكن مألوفاً. فالسجن لا يبعد أكثر من خمس دقائق عن ساحة الإعدام وإذا لم يتمكن مدان من عبور الدرب مشياً، مهما كانت الأسباب، تخصص له عربة نقل مفتوحة يجرها حمار، لكن الشعب لم يشهد من قبل أن يقاد أحدهم إلى الإعدام في عربة فخمة بحوذي، بخدم أنيقين وبرفقة الفرسان.

رغم ذلك لم يغضب الشعب أو يثور، بل العكس. تطامنت الهمم لأنهم رأوا حدثاً واعتبروا حكاية العربة فكرة عظيمة، كما في المسرح، حيث تعلو قيمة المشهد في الأنظار إذا عرض عرضاً جديداً مبتكراً. بل وجد العرض نجاحاً لافتاً في أعين الكثيرين، فسفاح مميز يستأهل تعاملاً مميزاً، ولا يمكن سحله إلى الساحة في الأغلال وإعدامه كأي قاطع طرق مبتذل، فلن يكون ذلك حدثاً مثيراً، بل القسوة كل القسوة أن يرفع عن المقاعد الجلدية الوثيرة ليوضع على الصليب.

توقفت العربة بين سقالة الإعدام ومنصة علية القوم. قفز الخدم، فتحوا الكوة ونزلوا الدرج. نزل ضابط الشرطة وخلفه ضابط الحرس وأخيراً هبط غرينوي، مرتدياً قفطانا أزرق، قميصاً أبيض، جوارب حريرية بيضاء وحذاء أسود بإبزيم، من دون أغلال. لم يقده أحد من ذراعه، إنما هبط الدرج رجلاً حراً.

ثم قامت معجزة. أو شيء قريب من المعجزة، شيء خارق، لم يسمع له مثيل من قبل ويجل عن كل وصف، بحيث وصفه الشهود بعد ذاك بالمعجزة، هذا إن أتوا على ذكره، الأمر الذي لم يحدث، لأنهم خجلوا من الاشتراك فيه.

فقد حدث أن شعرت الآلاف المؤلفة من الناس في الساحة وعلى السفوح المجاورة بين لحظة وأخرى أنهم تشربوا بالإيمان الصادق بأنه من المستحيل أن يكون الرجل الصغير في القفطان الأزرق، الذي هبط للتو من العربة قاتلاً، هم لم يشكوا في هويته، فهو ذاته الذي شاهدوه قبل عدة أيام في ساحة الكنيسة في نافذة العدلية والذي كانوا سيمزقونه إرباً لو تناولوه بين أيديهم. ذاته الذي أدين بناء على أدلة حاسمة واعترافه بالجريمة. ذاته الذي تحرّقوا لرؤية قضيب الجلاد يهوي على مفاصله قبل دقيقة واحدة. هو ذاته دون ريب.

لكنه لم يكن هو، من المستحيل أن يكون هو. من المستحيل أن يكون قاتلاً، فالرجل القائم في ساحة الإعدام تجسيد البراءة، وهذا ما أدركه الجميع من الأسقف حتى بائع عصير الأترج، من الماركيزة حتى أصغر غسالة، من رئيس المحكمة حتى آخر سوقي.

كما أدركه بابون وارتجفت يداه القابضتان على قضيب الحديد. ضعف ساعداه القويان، تراخت ركبتاه ورق قلبه كالطفل. لن يقدر على حمل القضيب، لن يقوى قط على رفعه في وجه الرجل البريء. وجعل يخشى اللحظة التي سيصعد فيها إليه، ارتعدت أوصاله خوفاً وصار عليه أن يعتكز عصاه المجرمة، كي لا يسقط خوراً على ركبتيه، بابون الكبير، القوي.

ولم يكن حال عشرة آلاف رجل وامرأة وطفل وشيخ بخلاف حاله. ضعفوا كصبايا صغيرات سقطن صرعى جاذبية عشاقهن. حلت فيهم المودة، الرقة، الحب الطفولي، بل يعلم الله أنهم عشقوا الرجل الصغير القاتل ولم يستطيعوا، لم يرغبوا في مقاومة مشاعرهم. كانت حالهم بكاء لا يستطيعون الوقوف بوجهه، نحيباً مكبوتاً طوال الوقت، يتصاعد من القلب ويسحق كل مقاومة، يسيحها ويموهها. صارت الناس ضعيفة، مذابة الروح والجسد، أمواهاً وغمراً، لا تشعر إلا بقلوبها علقة تخفق في الباطن وسلموها، كل واحد منهم، كل واحدة منهن، بيد الرجل الصغير في القفطان الأزرق ليفعل بها ما يشاء، فهم أحبوه.

مرت على غرينوي عدة دقائق وهو واقف أمام كوة العربة دون حراك. ركع الخادم بجواره وركع وركع، حتى اتخذ الهيئة المعروفة في الشرق أمام السلطان أو الله، وحتى في هيئته تلك كان يرتعش ويرتجف ويريد الركوع أعمق فأعمق، الارتماء على الأرض، الارتماء فيها، الارتماء تحتها، يريد الانحناء حتى النهاية الأخرى للعالم رهبة

وخشوعاً. لم يتمكن ضابط الشرطة وضابط الحرس، وهما العدوانيان وواجبهما قيادة المدان إلى سقالة الإعدام وتسليمه إلى الجلاد، من الاتفاق على تحركاتهما. بكيا، رفعا قبعتيهما، أعاداها من جديد، رمياها على الأرض، تعانقا، تباعدا، خبطا الهواء بأيديهما، فركاها يأساً، ارتعدا وتقلصت أسارير وجهيهما كمصابين بداء الرقص المسعور.

استسلم الأعيان البعيدين إلى تأثرهم دون أن يبذلوا كثير الجهد لإخفاء مشاعرهم وتركوا الأعنة لرغبات قلوبهم. وكان بينهم سيدات ثبتن قبضاتهن في صدورهن لمرأى غرينوي وتنهدن شبقاً، وأخريات فقدن الوعي شهوة في الشاب الجميل، هكذا بدا لهن. وكان بينهم سادة قفزوا من مقاعدهم ثم جلسوا، ثم قفزوا لاهثين قابضين على سيوفهم، كأنهم يبغون تجريدها، وهم إذا يجردونها يعيدون الفولاذ إلى مكانه، ليفرقع ويقرقع في الأغمدة. وآخرون رفعوا أعينهم مناجين إلى السماء وأيديهم مشدودة للصلاة. وسعادة الأسقف، بدا كأنه يشعر بالغثيان، انحنى إلى الأمام ولامس ركبتيه بجبينه حتى سقطت طاقيته عن رأسه. لم يكن يشعر بالغثيان، بل يتقلب للمرة الأولى في حياته في الجذبة الإلهية، فقد قامت معجزة أمام عيون كل البشر. سقط الرب بنفسه بين يدي الجلاد بهيئة ملاك منزل يظهر للدنيا مجرماً. أيعقل أن يحدث مثل هذا في القرن الثامن عشر. يا لعظمة الرب ويا لصغار الذات، التي لعنت الملاك من دون أن تؤمن به كي ترضي الشعب. يا للتكبر، يا لضعف الإيمان وها هو الرب يقيم معجزة. فيا للخشوع، يا للخنوع اللذيذ، يا للرحمة العظيمة أن يصلحه الرب، هو الأسقف الضال.

أما الشعب على الناحية الأخرى من المتاريس، فقد استسلم بفجور أكثر للعواطف التي اعتملت فيه بظهور غرينوي. فمن شعر عند مطلعه بالعطف والحنان، امتلأ بالرغبات العارية، ومن أعجب وأدهش، وصل

للجذب. اعتبر الجميع الرجل في المعطف الأزرق أجمل الكائنات وأسماها وأكملها. فبدا للراهبات الإله متجسداً، لعبدة الشيطان رب الظلام بذاته، للمتنورين الكائن المطلق، للصغيرات أمير الأحلام، للرجال الصورة المثالية عن ذواتهم. وشعر الجميع أنه استدل على أرق مواضع أجسامهم ولمسها، فقد لامس مراكزهم الجنسية. كأن للرجل عشرة آلاف يد خفية، وكأنه وضع كل يد من أيديه على عضو من أعضاء العشرة آلاف من المحيطين به، يداعبها بالشكل الذي يرغب فيه كل منهم في أعماق أحلامه، رجلاً كان أم امرأة.

كانت العاقبة أن انقلب إعدام أحد أسفل المجرمين في ذلك العصر إلى أعظم حفل خلاعة يشهدها العالم منذ القرن الثاني قبل الميلاد. مزقت النساء العفيفات قمصانهن، عرين صدورهن صارخات صرخات داعرة وارتمين، رافعات تنوراتهن، على الأرض. كبا الرجال بنظراتهم الجنونية في حقل اللحم الشهواني المنتصب، جروا بأصابع مرتعشة قضبانهم التي صلّبها صقيع خفي من بناطيلهم، تساقطوا لاهثين على كل مكان. تجامع القوم وتزاوج في أوضاع وأزواج لا تعقل، الشيخ بالعذراء، الأجير بزوجة المحامي، الصانع بالراهبة، اليسوعي بالماسونية. اختلط الجميع بالجميع كما اتفق. صار الفضاء مثقلاً برائحة عرق الشهوة اللذيذ والصراخ العالي، بأنين ولهاث عشرة آلاف من الحيوانات البشرية. كان مأدبة الشيطان.

وغرينوي واقف وباسم. لاح للناس الذين شاهدوه أن يبتسم الابتسامة الأبرأ، الأنعم، الأسحر والأغوى في الآن ذاته، إلا أنها لم تكن في حقيقتها ابتسامة، إنما شماتة قبيحة وهازئة ما ارتسم على شفتي غرينوي، تعكس كل نصره وكل احتقاره. فهو، جان بابتيست غرينوي، المولود دون رائحة في أنتن بقعة في العالم، المتحدر من القمامة

والخراء والعفن، الناشئ دون حب، الحي دون روح إنسانية دافئة، المتشكل من العناد وطاقة القرف، الضئيل، القميء، الضالع، القبيح، المتحاشى، النذل في داخله وخارجه، بلغ لأن يحبه العالم أجمعين. من قال يحبه؟ بل يعشقه، يهواه، يؤلهه. لقد أتمم صنيع بروميثيوس. لقد تعنت وأبدع الشعلة الإلهية، التي توهب لكل الناس ومنعت عليه وحده، بالصبر والحذق. بل وأكثر، لقد زرعها بذاته في ذاته. إنه أعظم من بروميثيوس. لقد خلق لنفسه هالة أشرق وأقوى أثراً مما لبشر من قبله ولا يعود الفضل فيها على أحد، لا على أب، لا على أم ولا على إله رحيم، إنما عليه هو، هو وحده. الحق أنه كان إله ذاته، إلهاً أروع من ذاك الذي ينتن برائحة البخور ويسكن الكنيسة. أمامه أسقف يسجد ويتوسل فرحاً. أمامه أغنياء وسلاطين، سادة وسيدات فخورون، يخشعون لمعجزته، والشعب أجمع، بينه آباء وأمهات وأخوة وأخوات ضحاياه، يحتفلون على شرفه وباسمه ماجنين معربدين. بإشارة منه سيكفرون بربهم ويعبدونه هو، غرينوي العظيم. نعم، إنه غرينوي العظيم. لقد حق الحق. إنه غرينوي العظيم كما كان في خيالاته آنذاك. إنه يحيا في هذه البرهة أعظم انتصارات حياته. وشعر بالهول.

شعر بالهول لأنه لم يتمتع بثانية واحدة من النصر العظيم. ففي اللحظة التي تقدم فيها إلى الساحة الساطعة، مضمخاً بالعطر الذي حبب الناس فيه، بالعطر الذي عمل عليه عامين، العطر الذي تعطش إليه طوال حياته... في هذه اللحظة، حيث شم مدى تأثيره وكيف أسر به الناس أجمعين حوله منتشراً بسرعة الريح. في هذه اللحظة تصاعد فيه القرف من الإنسان ودس المرارة في نصره، فلا يمتنع عليه الفرح فحسب، بل ولا يشعر حتى بالتشفي أيضاً. فما كان يحلم به، حب الناس، صار في لحظة النصر عبئاً لا يطاق، فهو لا يحبهم، هو

يكرههم. وبغتة علم أنه لا يجد الرضا في الحب، إنما في الكراهية، في أن يَكره ويُكره. لكن كرهه للناس لم يجد صداه فيهم. فكلما كرههم كلما ألّهوه، فلم يشعروا منه إلا بهالته المصطنعة، بقناع الرائحة، بعطره المسلوب وهذا كان جديراً حقاً بالتأليه.

ود لو يكنسهم كلهم عن وجه الأرض، تماماً كما كنس آنذاك الروائح الغريبة عن أرض روحه السوداء. وتمنى لو يلاحظوا كم يكرههم وأن يكرهوه من جديد بسبب الإحساس الحقيقي الوحيد في حياته ويكنسوه عن وجه الأرض، كما أرادوا له أصلاً، أراد أن يكون لمرة واحدة في حياته كالبشر الآخرين وأن يعبر عن فحواه، وكما يعبرون هم عن حبهم وإعجابهم الغبي، يعبر هو عن حقده. أراد أن يعلم الآخرون مرة واحدة، مرة واحدة فقط، حقيقة وجوده وأن يرد له إنسان على إحساسه الحقيقي الوحيد، على الحقد.

لكنه لم ينجح، ولن ينجح، خاصة اليوم، فهو مقنَّع بأفضل عطور العالم وليس له تحت القناع أي وجه، لا شيء إلا عدم الرائحة المطلق، وبغتة شعر بالغثيان، فقد أحس بالضباب يصعد من حوله.

كما حدث له آنذاك في المغارة في خيال حلم نوم قلبه، صعد الضباب فجأة، الضباب المرعب لرائحته، التي لا يستطيع شمها لأنه عديم الرائحة. وكما حدث آنذاك، شعر بالخوف والذل وظن أنه سيختنق. لكن وبخلاف آنذاك لم يكن هذا حلماً ولا نوماً، إنما الواقع البحت. وبخلاف آنذاك لم يكن مستلقياً وحده في مغارته، إنما واقفاً في الساحة قبالة عشرة آلاف إنسان. وبخلاف آنذاك لن تغيثه صرخة توقظه وتحرره، ولن يعينه فرار إلى العالم الطيب، الدافئ والمنقذ. فهذا، هنا والآن، كان العالم، وهذا، هنا والآن، كان حلمه المتحقق. وهو من شاء هذا.

علا الضباب الخانق من وحل روحه والشعب يلهث في غيبوبة عربدية وشهوانية. أقبل عليه رجل قفز من الصف الأول على منصة الرئاسات قفزة مباغتة، بحيث سقطت قبعته السوداء عن رأسه ورفرف بقفطانه الأسود عبر ساحة الإعدام كغراب أو ملاك منتقم. وكان الرجل ريشي.

فكر غرينوي: سيقتلني. هو الوحيد الذي لا يخدعه قناعي، لا يمكن أن يخدعه. طيب ابنته على جسدي واضح وصارخ كالدم. لا بد أن سيعرفني ويقتلني. عليه أن يفعلها. وفتح ذراعيه ليستقبل الملاك المقتحم. وحسب أنه يشعر بطعنة الخنجر أو السيف، طعنة جميلة مدغدغة في صدره ويشعر النصل يتغلغل عبر دروع الرائحة والضباب الخانق في قلبه البارد. أخيراً يشعر بشيء في قلبه، شيء آخر عدا ذاته وشعر بالخلاص تقريباً.

لكن ريشي ارتمى بغتة في حضنه، ليس ملاكاً منتقماً، إنما رجلاً منهاراً، معولاً وأحاطه بذراعيه، أنشب فيه مخالبه، كأنه لا يجد له منقذاً آخر في بحر من النعمى. إذناً لا طعنة خنجر مخلصة، لا طعنة في القلب، لا شتيمة أو صرخة كره. وعوض هذا التصقت وجنة ريشي المبللة بالدموع بوجنته واستعطفه فمه المرتعش: اغفر لي بني، بني الغالي، اغفر لي.

ابيضت الدنيا أمام بصيرته واسودت أمام بصره. سال الضباب المحبوس في سائل متدفق كالحليب الغالي، المزبد. غمره، ضغط بقوة لا تطاق على جدار الصوت الداخلي في جسده دون أن يجد منفذاً. أراد الهرب بحق السماء، لكن إلى أين؟ أراد أن ينفجر كي لا يختنق بذاته. أخيراً انهار وفقد الوعي.

٥٠

عندما استعاد الوعي، كان في سرير لور ريشي، الذي رفعت منه تذكاراتها، ثيابها وشعرها. شم غرينوي شمعة مشتعلة على الطاولة وسمع من بعيد تهاليل المدينة المحتفلة عبر النافذة المشرعة. كان أنطوان ريشي جالساً على موطئ القدم بجانب السرير واضعاً يد غرينوي في يده، ممسداً عليها.

قبل أن يفتح عينيه جس غرينوي الجو. فأحس به هادئاً في باطنه، لا يضطرب ولا يفور فيه شيء. من جديد حل في روحه الليل البارد، الذي يعوزه ليجعل وعيه واضحاً ويستدل على الخارج، حيث شم عطره. ووجد أنه تغير قليلاً، فقدت حدوده بعض معالمها، بحيث تظهر نفحة رائحة لور أروع وأنقى، كنار هادئة، عميقة ومتوهجة. فشعر بالأمان، عالماً أنه محصن لعدة ساعات أخرى، ففتح عينيه.

كانت أنظار ريشي مركزة عليه، فيها رضا لا نهائي، رقة، حنان وعمق الحبيب الأجوف، الأحمق. ابتسم وشد على يد غرينوي قائلاً: الأمور على خير ما يرام. نقض المجلس حكمك، تراجع الشهود عن شهاداتهم. أنت حر طليق. لك أن تفعل ما تشاء. لكني أريدك أن تبقى معي. لقد فقدت ابنة وأريد أن أكسبك ابناً لي. إنك تشبهها، إنك جميل مثلها. شعرك، فمك، يداك. . . كنت أمسك يدك طوال الوقت، يدك مثل يدها. وعندما أرى عينيك، يبدو لي أنها تنظر إلي. أنت أخوها وأريد أن تكون ابني، فرحتي، فخري، وريثي. هل ما زال أهلك على قيد الحياة؟

هز غرينوي رأسه واشتعل وجه ريشي بحمرة السعادة: هل ستوافق على أن تكون ابني؟ تلعثم ونهض عن موطئ القدم ليجلس على طرف السرير ويتناول يده الأخرى: هل توافق؟ هل توافق؟ هل تتخذني أبا لك؟ لا تقل شيئاً، لا تتكلم، ما زلت ضعيفاً على الكلام، أومئ فقط، فأومأ غرينوي ونضح الفرح من وجه ريشي كعرق أحمر وانحنى على غرينوي وقبله من فمه.

وقال بعدما استقام: نم الآن، يا بني العزيز. سأسهر عليك حتى تغفو. وقال بعد أن تأمله ملياً مغتبطاً: إنك تسعدني جداً جداً. فتح غرينوي زاويتي فمه، كما رأى البشر المبتسمين يفعلون، ثم أغمض عينيه وانتظر برهة قبل أن يجعل أنفاسه هادئة وعميقة، مثلما يفعل النائمون.

شعر بنظرات ريشي الرقيقة على وجهه وشعر به ينحني عدة مرات عليه، راغباً في تقبيله، ويتراجع خشية أن يوقظه. وأخيراً نفخ على الشمعة وغادر الحجرة على رؤوس أصابعه.

ظل غرينوي راقداً حتى توقفت الأصوات في المدينة والبيت، ونهض مع طلوع الفجر. ارتدى ثيابه وتسلل في الممر، نزل الدرج وعبر الردهة إلى الشرفة. ومنها تمكن من النظر عبر أسوار المدينة، عبر صحاف سهوب غراس، التي يرى منها البحر إذا كان الجو صافياً. وفي الفجر كان الضباب الرقيق، بالأحرى البخار، يسود السهول وكانت الروائح القادمة منها، روائح العشب والرتم والورد، نظيفة، نقية، بسيطة ومنعشة. عبر غرينوي الحديقة وتسلق الجدار.

كان عليه أن يخوض بخار البشر في ساحة دي كور من جديد قبل أن يغنم الأرض الحرة. كانت الساحة والسفوح مثل معسكر جيش عملاق منحط. آلاف السكارى والمرهقون من عربدة الاحتفال الليلي

منطرحون حوله، بعضهم عراة، بعضهم خلع نصف ثيابه وترك النصف الآخر، قابعاً تحته كأنه قطعة لحاف. أنتن المكان بالنبيذ المز، بالكحول، بالعرق والبول، بغائط الأطفال واللحم المتفحم. ما زال الدخان ينبعث من المواقد، التي شووا عليها اللحم، شربوا حولها ورقصوا. ما زالت بعض الزغاريد والقهقهات تتفجر داعرة من بين شخير الآلاف المؤلفة. ربما ما زال البعض يقظاً ويحتسي آخر شراذم وعيه. لكن أحداً لم ير غرينوي الذي تنقل بين الأجساد المتبعثرة حذراً وسريعاً، كمن يتخبط في الوحل. وأما من رآه فلم يعرفه، لأنه لم يعد ينشر الطيب، لأن المعجزة زالت.

وحين وصل إلى نهاية الساحة لم يتخذ طريق غرينوبل، لم يتخذ طريق كابري، بل فر غرباً بين السهوب، دون أن يلتفت التفاتة واحدة. وعندما أشرقت الشمس سمينة وصفراء وحارقة، كان غرينوي قد اختفى للأبد.

استيقظ أهالي غراس على صداع شديد. وحتى من لم يشرب، كان يشعر بالرصاص في رأسه وفورة الغثيان في معدته وفؤاده. بحث القرويون السذج في أشعة الشمس الساطعة عن ثيابهم التي طرحوها في فجورهم، بحثت عفيفات النساء عن بعولهن وأطفالهن، انسلخ غرباء الناس مندهشين من احتضان حميمي غرقوا فيه، تقابل المعارف، الجيران، الأزواج بغتة وجهاً لوجه في حال من العري العمومي.

بدا الحدث للكثيرين مرعباً، سرانياً وغير ملائم لتصوراتهم الأخلاقية، فمسحوه من ذاكرتهم حرفياً في لحظة حدوثه ولم يعد لهم تذكره لاحقاً. والآخرون، الذين لم يستطيعوا السيطرة على جهاز وعيهم بإرادتهم، حاولوا إبعاد أنظارهم وأسماعهم وأفكارهم، ما لم يكن سهلاً، فقد كان العار جلياً وعاماً. من وجد أملاكه وأهله، فر سريعاً وخفية ما أمكن. وخلت الساحة كلياً في ساعة الزوال.

خرج أهل المدينة، إن جرؤ أحدهم على الخروج، مساء ليقضوا احتياجاتهم الضرورية. كانت التحيات عجولة والأحاديث تدور عن التفاهات. لم ينبس أحد ببنت شفة عن مجريات النهار والليلة الفائتة. كما كان الناس منشرحين ودون روادع مساء الأمس، صاروا اليوم خجلين. وكان الكل سواسية، فالكل مذنبون. لم يتفق أهالي غراس قط كما اتفقوا ذلك الأوان، فقد كانوا يعيشون صماً، بكماً، عمياً.

طبعاً اضطر البعض للتطرق إلى الحدث بحكم المنصب، فقد كان استمرار الحياة العامة وفلاح الحق والقانون يتطلبان إجراءات سريعة. بعد الظهر اجتمع مجلس البلدية. تعانق السادة، وبينهم المستشار الثاني، بصمت كأنهم يسعون لإعادة تشكيل الهيئة بهذه السحنة التآمرية. وقرر المجتمعون بصوت واحد، دون أن يتطرقوا للأحداث أو يذكروا اسم غرينوي: تزال المنصة وسقالة الإعدام من ساحة دي كور على وجه السرعة وتعاد الساحة والحقول المحيطة إلى سابق عهدها. واتفقوا على انفاق مائة وستين ليرة على تكاليف العمليات.

وفي الآن ذاته عقدت المحكمة في العدلية. اتفقت رئاستها، دون مفاوضات، على اعتبار قضية «غ» منتهية وتجميد الملف وتدوينه في السجلات دون رقم قيد وإعادة فتح قضية جديدة بحق مجرم مجهول الهوية قتل خمساً وعشرين صبية في غراس ومحيطها. وأصدرت الأوامر إلى ضابط الشرطة بإجراء التحقيقات دون تردد.

وفي اليوم التالي عثر على المجرم. وبناء على أدلة بينة، اعتقل المدعو دومينيك درو، معلم العطارة في شارع دو لا لوفر، الذي عثر بالنتيجة في كوخه على ثياب وشعر الضحايا. ولم ينخدع القضاة بالإنكار الذي أبداه هذا في البداية، فقد اعترف بعد أربع وعشرين ساعة من التعذيب، ورجا إعدامه بأقصى سرعة ممكنة، ما من عليه في الأيام

التالية. علق في الفجر دون ضجيج، دون سقالة ودون منصة، بحضور الجلاد وبعض أعضاء رئاسة البلدية، بحضور طبيب وقسيس. أزيحت الجثة حالما حلّ الموت وسجل رسمياً وبهذا انتهت القضية.

فقد تم وأن طواها النسيان، بحيث لم يجد الذين وصلوا إلى غراس في الأيام القليلة التالية وسألوا عن قاتل الصبايا المشهور، فرداً سليم العقل، قد يعطيهم جواباً شافياً. القليل من مجانين المصح العقلي، المرضى العقليين المزمنين، تأتأوا بشيء ما عن حفل كبير أقيم في ساحة دي كور، اضطروا بسببه إلى مغادرة غرفهم.

وللحال عادت الحياة إلى طبيعتها. للحال جد الناس في العمل وناموا وتابعوا تجارتهم واستقاموا في حياتهم. للحال فار الماء كما كان أبداً من الينابيع والآبار وغمر الأزقة بالطين. للحال استعادت المدينة موقعها الرث والفخور في السفوح على الحوض الخصب. للحال أشرقت الشمس دافئة وحل أيار وقطفت الورود.

الجزء الرابع

٥١

سرى غرينوي. وكما في بداية رحلته تحاشى المدن، تمادى الطرق، نام بمطلع النهار واستيقظ بحلول مساء ليتابع السير. علف كل ما وقع بين يديه، الأعشاب، الفطور، الأزهار، الطيور الميتة والديدان. مر في الأرياف، عبر نهر رون في زورق سرقه جنوب اورانج، سار بمحاذاة آرشي إلى أعماق السيفين، ثم بمحاذاة آليير نحو الشمال.

اقترب في جبال اوفيرني من ذروة كانتال، رآها غرباً، عالية وفضية في ضياء القمر وشم الهواء البارد الذي يقدم منها. لكن لم تستيقظ فيه الرغبة في الصعود إليها. لم يحن إلى حياة المغارة، فقد سبق وجربها وتبين له أنها لا تعاش، مثلها مثل تجربته الحياة بين البشر. فهنا وهناك يختنق. ثم إنه لم يعد راغباً في أي حياة. فنوى السفر إلى باريس والموت فيها. هذا ما رغب فيه.

كان يمد يده بين الحين والآخر في جيبه ويقبض على القارورة الزجاجية الصغيرة، التي تحوي عطره وكانت القارورة مليئة، فلم يستهلك منها لمسرح غراس سوى قطرة واحدة وسيكفيه الباقي ليسحر الدنيا بأكملها. وإن شاء، فله أن يجعل مئات آلاف الناس وليس عشرات الآلاف فقط يهللون له في باريس، أو يسير إلى فرساي ليقبل الملك قدميه، أو يكتب إلى الكرسي الرسولي رسالة معطرة ليعلنه البابا مسيحاً جديداً، أو يعمد نفسه بين القياصرة والملوك في نوتردام قيصراً أعلى، بل وإلهاً على الأرضين، هذا إن كان الإله يعمد ذاته.....

له أن يفعل كل هذا إن شاء، ففيه القدرة على ذلك، بيده القدرة على ذلك. قدرة أقوى من سطوة الذهب والإرهاب والموت، القدرة التي لا تقارع، القدرة على الإيحاء بالحب. لكن قدرته ليست قادرة على شيء واحد، ليست قادرة على أن تجعله يشم نفسه. وليرفعه عطره إلهاً بين الناس، فما نفعه إن لم يشم ذاته ولم يعرف من هو، إنه يبصق على كل شيء، على العالم، على ذاته وعلى عطره. كانت اليد القابضة على القارورة تفوح برائحة رهيفة وإذا قادها إلى أنفه وتشممها يشعر بالحزن وينسى السير عدة ثوان، يقف ويشم. وفكر في نفسه: لا أحد يعرف مدى جودة هذا العطر. لا أحد يعرف بكم من الاتقان صنع. الآخرون عبيد أثره، بل إنهم لا يعرفون أنه العطر ما يؤثر عليهم ويسحرهم. الوحيد الذي يعرف جماله الحقيقي هو أنا، لأني أنا خالقه. وأنا في الآن ذاته الوحيد الذي لا يسحر به. أنا الوحيد الذي لا يجد له قيمة.

وذات مرة، عندما وصل إلى بورغوند، حدّث نفسه: عندما وقفت إلى الجدار تحت الحديقة، حيث تلعب الصبية ذات الشعر الأحمر وهب علي عبيرها، بالأحرى وعد عبيرها، فلم يكن عبيرها قد وجد بعد، ربما كان ما شعرت به آنذاك، يشبه ما شعر به الناس في ساحة كور، عندما أغرقتهم بعطري؟ غير أنه طرح الخاطرة من رأسه: لا، كان ذلك مختلفاً. فأنا كنت أعلم أني أقدس الطيب لا الصبية. لكن الناس اعتقدوا بأنهم يقدسونني أنا وظل سرًّا عليهم ما يقدسون.

ثم توقف عن التفكير نهائيًا، فلم يكن التفكير أحسن ما فيه، ثم إنه وصل إلى أورليان. عبر نهر لوار عند سيلي وبعد يوم واحد وصلت رائحة باريس إلى أنفه وفي ٢٥ حزيران ١٧٦٧ دخل المدينة من شارع سان جاك في الساعة السادسة صباحاً.

كان يوماً حاراً، أكثر أيام العام قيظاً. تدفقت آلاف الروائح والنتن

من آلاف الضروع المترعة. كانت الريح ساكنة والخضار في دكاكين السوق ذابلة قبل حلول الظهر، وكان اللحم والسمك زنخين وهواء الأزقة متعفناً. بدا وكأن النهر ذاته لا يسيل، إنما متوقف وينتن. كان اليوم مثل يوم ولادة غرينوي.

عبر جسر نوف إلى الضفة اليمنى وتابع السير حتى السوق وسيميتيه ديزينوسانس، حتى جلس تحت الأقواس بمحاذاة شارع أوفيرس. كانت المقبرة أمامه كساحة حرب دمرتها القنابل، محفورة، متجعدة، تتخللها القبور، مزروعة بالجماجم والعظام، دون أشجار، دون نباتات أو أعشاب أو حجارة القبور. لم ير فيها حيًّا وكان نتن الجثث قويًّا بحيث هرب حفارو القبور، الذين جاؤوا بعد مغيب الشمس، ليحفروا طوال الليل قبوراً لموتى اليوم التالي.

بعد منتصف الليل، بعد مغادرة حفاري القبور، عاشت الحياة في المكان بكل أنواع الرعاع، اللصوص، القتلة، العاهرات، الفارين من الجندية واليافعين اليائسين من الحياة. أوقدوا النار ليطبخوا وليقدروا على هضم النتانة.

عندما أقبل غرينوي من الأقواس على مائدتهم واختلط بهم، لم يشعروا به بداية. كان له التقدم إلى نارهم كأنه واحد منهم، وهذا ما قوى ظنونهم اللاحقة بأنه كان شبحاً أو ملاكاً أو قوة خارقة أخرى، فقد اعتادوا على إبداء ردود فعل حادة تجاه الغرباء.

وسيقولون إن الرجل الصغير حضر فجأة، كأنه خرج من الأرض حاملاً بيده زجاجة صغيرة نزع سدادتها. وهذا أول ما سيتذكرونه بداية: أن أحدهم حضر وفتح زجاجة. ثم تضمخ بمحتواها وتضمخ حتى لاح عليه فجأة منتهى الجمال كما تلوح النار المتوهجة.

تراجعوا عنه فجأة رهبة واستغراباً، لكنهم شعروا في اللحظة ذاتها أن

تراجعهم كان تهيؤا، أن رهبتهم انقلبت رغبة. شعروا بأنفسهم منجذبين إلى الإنسان الملاك، فقد انطلقت منه دوامة غاضبة، جزر هدام، لا يثبت بوجهه إنسان مهما فعل، كما أن أحداً لن يرغب في ممانعته، فقد كان الإرادة ذاتها ما موّجه الجزر ووجهه نحوهم داعية إياهم إليها.

تحلقوا حوله، عشرون، ثلاثون شخصاً، وضاقت حلقتهم شيئاً فشيئاً. وللحال لم تعد الحلقة تسعهم كلهم، فتضاغطوا، تدافعوا، تزاحموا، وسعى كل منهم ليكون أقرب إلى مركز الحلقة.

ثم تحطم الحاجز أمام آخر الروادع وتداعت الحلقة. انقضوا على الملاك، هجموا عليه، طرحوه أرضاً. كل منهم يريد أن يلمسه، كل يريد جزءاً منه، ريشة، جناحاً، قبساً من ناره السنية. مزقوا ثيابه، نزعوا شعره، سلخوه، فتتوه، نشبوا أظفارهم ومخالبهم في لحمه، انقضوا عليه كالضباع.

لكن جسد الإنسان جلود ولا يتمزق بسهولة، فحتى الجياد تعاني منه وهكذا لمعت الخناجر وطعنت وقطعت، وصفرت الفؤوس والسواطير هاوية على المفاصل وسحقت العظام. بعد هنيهة قطع الملاك إلى ثلاثين جزءاً واستولى كل عضو من أعضاء الجمهرة على قطعة، ابتعد مدفوعاً بالجشع وعلفه. بعد نصف ساعة اختفت كل ألياف غرينوي عن وجه الأرض.

عندما اجتمع آكلو لحوم البشر إلى النار بعد مأدبتهم السمينة، لم ينطق أحد منهم بكلمة. تجشأ بعضهم، بصق شيئاً من العظم، تلمظ بلسانه، دفع بقدمه خرقة متبقية من القفطان الأزرق في النار وكانوا محتارين ولا يجرؤون على النظر إلى أعين بعضهم البعض. لقد ارتكب كل منهم جريمة قتل أو خطيئة قذرة، سواء رجلاً أو امرأة. لكنهم لم يبتلعوا قط إنساناً، فهم، بظنهم، غير قادرين على اقتراف هكذا شيء

مرعب واستغربوا رغم ذلك من سهولة ما قاموا به ومن عدم إحساسهم بالذنب. بل العكس، كانوا، رغم الثقل في أمعائهم، منشرحي الصدر، فقد ارتفعت في نفوسهم الحالكة فجأة روح عالية، وعلى وجوههم ظهر بريق صبياني من السعادة. وربما لهذا خجلوا من رفع أنظارهم والنظر في الآخرين.

ولمّا تجرّأوا بعد ذلك، خفيةً في البداية، وعلناً في ما بعد، ابتسموا، شعروا بالعزّ والفخار، فهم لأوّل مرّة في حياتهم قد فعلوا شيئاً بحبّ.

* * *

الفهرس

هذا الكتاب

في عصر لا يفتقر إلى النوابغ والسفلة، عاش في فرنسا القرن الثامن عشر رجل من أكثر الكائنات نبوغاً وسفالة. رجل ستُسرد حكايته هنا. كان اسمه جان بابتيست غرينوي. وإذا كان اسمه قد صار نسياً منسياً، خلافاً لأسماء النوابغ السافلة الأخرى على غرار دي ساد، سانت جوست، فوشيه، نابليون وغيرهم، فليس لأنه كان دونهم عنجهية واحتقاراً للإنسانية ولاأخلاقية، بل لأن نبوغه وولعه حُشرا في حقل لا يترك في التاريخ إلا النزر اليسير من الأثر، ألا وهو حقل الروائح الطيّار.

